بلاغة التراكيب

دراسة في علم المعاني

تأليف

أ.د. توفيق الفيل
أستاذ البلاغة والنقد الأدبي
جامعة قطر

Bibliotheca Alexandrina
0135824

مكتبة لسان العرب
@lisanarb

بلاغة التراكيب

دراسة في علم المعاني

تأليف

أ. د. توفيق الفيل

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي

جامعة قطر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

ت: ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المقدمـــة

أحمدك اللهمَّ ، واستعين بك ، واستهديك ، وأصلى وأسلم على نبيك الذى أوتى جوامع الكلم ، وكانت معجزته ذلك الكتاب العظيم . الذى أعجز البلغاء ، وأفحم الشعراء ، وأنطق المعاندين بفضله ، وجعلهم يقرون بروعته . وسمو أسلوبه ، وقوة معانيه .

وبعد :

فإن علم البلاغة من العلوم التى وقع عليها ضيم شديد ، كما أنه لم يلق ما لقيته علوم العربية الأخرى من توارد العلماء عليه طبقة بعد أخرى وكانت نشأة هذا العلم متأخرة عن غيره ، فلم يتح له الوقت الكافى فى فترة التقدم والازدهار التى شهدتها الحضارة العربية .

وقد نشأ علم البلاغة فى ظل الدراسات القرآنية ، ولخدمة قضاياها ، وبخاصة قضية الإعجاز . ولهذا فهو من العلوم القرآنية . وربما كان ذلك من بين الأمور التى جعلت بعض الدارسين يحملون عليه ، ويتهمونه بالقصور ويدعون إلى طرحه والتخلص منه . وساعد على ذلك الطرق العقيمة التى تناولت هذا العلم فأسهمت فى التنفير منه ، والبعد عنه .

ويضاف إلى هذا ما يتميز به علم البلاغة من دقة المباحث ، وضرورة التمكن من علوم العربية الأخرى ، وآدابها .

وإذا كان العصر الحديث قد شهد بدايات جيدة للكشف عن قيمة هذا العلم ومن ثم محاولة تقديمه فى صورة تفيد من الدراسات الحديثة ، والمعارف المختلفة فإن الارتكاز على الأصول يحافظ على جوهر هذا العلم ويحول بينه وبين

التيع الذى يريده بعض الباحثين ، جريا وراء ما يطلقون عليه الحداثة وهم فى الحقيقة يسعون جاهدين إلى تنفيذ ما دعا إليه سلامة موسى ولخدمة الغرض ذاته الذى كان يسعى إليه .

وإذا كانت محاولاتى السابقة فى مجال البحث البلاغى قد لقيت التشجيع والمؤازرة من الباحثين . فإنى أقدم لهم هذه الدراسة فى بلاغة التراكيب أدرس من خلالها مسائل علم المعانى . الذى يعد إسهاما قويا وأصيلا فى دراسة الأسلوب . بدأها عبد القاهر الجرجانى ، وأكثر من التطبيق عليها جار الله الزمخشرى وابن الأثير . ووضع قواعدها وأتم ضبطها أبو يعقوب السكاكى .

وقد درست فى هذا الكتاب مفهوم علم المعانى ، ومجالات البحث فيه ودرست أنواع الأساليب ، وكيف تتحقق البلاغة حين يلجأ المبدع إلى هذه الطريقة أو تلك ، كما درست فيه أبواب المعانى الأخرى معتمدا على النماذج الجيدة والأساليب الرفيعة ، وقمت بشرح الكثير منها وبينت ما تضمنته من قيمة فنية .

وقد وقفت عند كثير من الأمور التى تكشف عن عبقرية هذه اللغة ، وما تضمنته من الدقائق واللطائف والأسرار .

وقد سلكت فى هذا الكتاب مسلكا مختلفا فى بعض المسائل عن القدماء ، فتحدثت فى الأشياء التى لها علاقة ببناء الأسلوب وإن لم يعدها القدامى من مباحث علم المعانى ، كما جمعت الأشياء المتناظرة على نحو ما قمت به فى موضع « الحذف » الذى تناولت فيه بلاغة الحذف بدءا من حذف الحرف فى النداء أو الترخيم ، وانتهاء بحذف الجمل .

كذلك قمت بدراسة التقديم والتأخير وما لهما من أثر فى بلاغة الكلام ، وكان التحول فى الأساليب ، والانتقال من أسلوب إلى آخر على خلاف ما يقتضى

الظاهر من الأمور التى توقفت عندها ، وأطلت القول فيها لما لها من أثر نفسى على المتلقى تنبه إليه القدماء ، وتحدثوا فيه .

ولست أزعم أننى قدمت كل ما يجب القيام به فى هذا العلم الجليل ، لكننى أزعم أننى خطوت خطوة فيه تعتمد على صلة حميمة بلغة هذه الأمة وكتابها وأدبها ... وقد أفدت من كثير من الباحثين فى القديم والحديث . وأسأل الله أن يجزيهم عنى .. كما أسأله سبحانه حسن القصد ، وتسديد الخطى . وأن يهدينى سواء السبيل .

المؤلف

تمهيـــد

علم المعانى : مجال بحثه :

علم المعانى هو الأساس الأول فى علوم البلاغة ، ذلك لأنه العلم الذى يراد به بناء الجملة على نحو يؤدى إلى وفاء المعنى وتمامه طبقا لما يقتضيه الحال ، وحين يريد المتحدث أن يقوم بذلك يلزمه أن يسلك طرقا فى القول لا يتحتم عليه أن يسلكها عندما يريد أن يؤدى بكلامه المعنى الذى وضعت الألفاظ لتدل عليه .

(ولعل هذا القول يسلمنا إلى الحديث على أن اللغة التى نستخدمها ليست فى الاستخدام على نحو واحد . فهذه اللغة تستخدم فى أحاديث الناس العادية ، وحين يريدون قضاء حاجاتهم اليومية ، ومصالحهم التى ترتبط بغيرهم من الناس ، لكن هذه اللغة نفسها تستخدم لنقل المعارف والأفكار . ألسنا نستخدم ، اللغة فى نقل العلوم إلى غيرنا من الناس ؟ نتحدث ونحاضر بها ، أو نكتب فى هذا العلم أو ذاك ؟ .

ولا يقف استخدام اللغة عند هذين الأمرين ، فقد استخدمت اللغة منذ القدم التعبير عن المشاعر والأحاسيس ، واتخذ منها الأدباء والشعراء وسيلة جمالية .

وإذا كنا نسلم بأن اللغة فى مفرداتها وتراكيبها ونظمها ثابتة لا تتغير ، فاللفظ المفرد لابد أن يوافق قوانين اللغة فى الاستعمال ، بأن يكون مما وضعه العرب فى لغتهم ، وحين يكون مأخوذا من غيره يلزم أن يكون على الطريقة التى

To: www.al-mostafa.com

أقرها علماء اللغة فى التصريف والاشتقاق والجموع . وإذا انضم إلى غيره تحتم أن تكون هناك علاقة لهذا الضم . كالفاعلية أو المفعولية أو الزمانية أو المكانية أو غيرها من العلاقات التى تحددت فى علم النحو .

لقد قسم العلماء الكلام إلى ثلاثة أقسام : الاسم ، والفعل ، والحرف ، أى أن الكلام لا يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة . وأن الجمل إما أن تتكون من الأسماء ، أو من الأفعال والأسماء وتقوم الحروف بوظائف الربط وغيرها من الأمور لتى حددها علماء الغة .

ولعل هذا القدر من متطلبات اللغة يستوى – فى مقدار تحققه – أى مستوى من المستويات التى سبقت الإشارة إليها .. فلابدأن تتوفر للكلام الذى يدخل فى نطاق اللغة الفصيحة هذه الأمور الأولية .

وقد قرر ذلك علماء اللغة ، القدماء ، كما قرره البلاغيون . وإذا كانت اللغة تستخدم على هذا النحو فكيف تختلف فى ميادينها على نحو ما أشار إلى ذلك علماء اللغة والبلاغيون فى القديم والحديث ؟ .

إن اللغة التى تستخدم لنقل حقائق العلوم والمعارف لا يطلب منها بعد تحقق الصحة سوى أن تكون دقيقة ومحددة – وتعبر عن معناها الذى جاءت للتعبير عنه دون لبس أو غموض . وقد كان تحقق شرط أمن اللبس من الأمور التى اشترطها اللغويون فى كثير من الأحوال .

لكن لغة الأدب والفن تختلف عن ذلك . إنها ستكون وسيلة جمالية ، يطلب منها أكثر من دلالتها التى وضعت لها ، ويراد لها أن تعبر عن أمور لا تتضمنها المعاجم ولا تشير إليها .

ومن المشهور عند النقاد ودارسي الأدب أن الشعر إيحاء ، أي أنه يعطى بتراكيبه ونظمه ، ما لا تعطيه اللغة .

ويتفق على هذا الأمر علماء اللغة فى القديم والحديث . وقد أدرك ابن فارس ما تتمتع به لغة القرآن الكريم من استخدام خاص للوسائل الفنية ، وذهب إلى القول بأن هذه اللغة لا يمكن ترجمتها ونقلها إلى لغة أخرى . يقول ابن فارس : « وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب ، والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب فى القرآن الكريم فقال : ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل غيره من الكتب السماوية ، لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب » ويضرب ابن فارس أمثلة ببعض آى الذكر الحكيم ، ويقرر أن أحدا لا يمكنه أن يأتى بكل ما تضمنته دون بسط للعبارة ، وزيادة فى القول . كما أن الشعراء يضمنون شعرهم بعضا من الإيحاء – وإن لم يصل إلى ما وصل إليه القرآن الكريم – ولهذا يحتاج شرح شعرهم إلى كثير من الألفاظ والعبارات حتى تتوصل إلى قريب مما جاءوا به »(1) .

وإلى مثل هذا يذهب أحد اللغويين المحدثين فيقول : « إن اللغة الشعرية طبيعة خاصة ، إذ تعتمد اعتمادا كبيرا على الظلال والألوان المختلفة التى تثيرها الكلمات » كما أن الأدباء بوجه عام ، والشعراء بوجه خاص ، يستعملون اللغة على نحو مختلف ، وقد يخرجون عن القواعد المعروفة ، والتقاليد المتبعة . وهم يعتمدون كل الاعتماد على ما فى الألفاظ والتراكيب من قوة الإيحاء ، ولما كانوا يختلفون من حيث القدرة والموهبة والإحساس بما تتضمن الألفاظ والتراكيب من

---

(1) ابن فارس : الصاحبى ٤١-٤٢ .

قوة إيحاء وهم ليسوا على درجة واحدة من السيطرة على اللغة وتراكيبها ، فإن البون يتسع بينهم فى إثارة المشاعر ونقل الأحاسيس .

ولما كانت التراكيب تختلف من أديب لآخر ، ومن معنى لمعنى ، طبقا لمقتضى الحال ، وبحيث تكون التراكيب المستخدمة قد جاءت على وجه من وجوه النحو . كان وجود ما أطلق عليه « علم المعانى » من الأمور الضرورية التى تكشف عن مدى مطابقة الوجه المستخدم فى التركيب لمقتضى الحال .

إن الأديب حين يستخدم اللغة ، يقدم ويؤخر ، يعرف وينكر ، ويذكر ويحذف ، ويستخدم تلك الأداة من أدوات الربط دون غيرها . وهذه الوجوه من الكثرة والتعدد كما هو معروف، وهو يتوخى الوجه المناسب للمعنى الذى يعبر عنه . وتتوقف البلاغة أو عدمها على إصابته للوجه المناسب ، أو وقوعه دونه .

مفهوم علم المعانى ومجالات بحثه :

قلنا إن الألفاظ بأصل وضعها قد لا تفى بالمعانى التى يريد المتكلم أن يعبر عنها ، ولهذا يلجأ إلى التحوير فى العبارة بالتقديم والتأخير ، والحذف أو الذكر ، وغير ذلك من الأمور التى تجعل العبارة تتسع وتفيد معانى ودلالات ليست لها . وحين نعود إلى قوله تعالى فى دعاء زكريا عليه السلام : ﴿ رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا ﴾ نجد ما حدث فى الآية من تأخير المضاف عن المضاف إليه ، وتبادل الموضعية بينهما قد جعل الآية الكريمة تكشف عن الضعف الشديد الذى يعانى منه زكريا عليه السلام ، وكيف أن الشيب قد انتشر فى رأسه وعم جملته ، وهذا ما لا يتحقق لو جاءت الآية على نحو : « اشتعل شيب الرأس » .

وعلم المعانى هو العلم الذى يبحث فى أحوال التراكيب ، وما يكون فيها من اختلاف ، أو ما تأتى عليه من صور لتؤدى معنى مّا يناسب حالة بعينها .

يقول السكاكى فى تعريفه لعلم المعانى : « هو تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره » .

والتراكيب كما سبق تتنوع وتتشعب . وقد شرح ذلك عبد القاهر الجرجانى . فإذا كان كلام العرب لا يخرج عن ثلاثة أمور هى الاسم والفعل والحرف . وأن النظم هو تعلق بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، وأن وجوه التعلق معروفة ، فهى إما أن تكون بين اسمين ، أو بين فعل واسم ، وأن الحرف يكون للربط بينهما . ولا يتعلق الحرف بالاسم وحده فى غير النداء ، وهو على تقدير فعل ، كما لا يتعلق الحرف بالفعل وحده ، ولابد فى صحة الكلام من أن يكون مكونا من مسند ومسند إليه . فلا يأتى كلام من جزء واحد[1] .

وإذا كان من المعلوم فى تعلق الأسم بالاسم ، أن يكون أحدهما مبتدأ والآخر خبرا عنه ، أو حالا منه أو نعتا أو توكيدا أو عطفا أو بدلا ، أو أن يكون الأول مضافا والثانى مضافا إليه ، أو عاملا فيه عمل الفعل . وأن لهذه الأمور صورا مختلفة فالخبر قد يكون مفردا ، وقد يكون نكرة أو معرفة وقد يكون جملة « فعلية أو اسمية » وقد يكون شبه جملة .. ظرفا أو جارا ومجرورا . وقد يتقدم على المبتدأ أو يتأخر .. ومعرفة أى هذه الحالات أليق بالمقام وأحق بالتعبير عنه ، وأوفى لتأديته هى مجال علم المعانى . ويلاحظ أن الوجوه السابقة كلها .. والوجوه التى

(١) دلائل الإعجاز : ٤٧ .

تأتى فى تعلق الفعل بالاسم وتعلق الحرف بهما هى معانى النحو وأحكامه[٢] ومن هنا اكتسب علم المعانى تسميته ، فهو علم معانى النحو . التى يقع عليها المنشىء ويصيب بها ما يجب لكل مقام من المقال .

ومعرفة الحال ، وما يجب لها من الكلام من الأمور الدقيقة التى تحتاج إلى المعرفة والفطنة . وقد وهم فيها غير واحد من العلماء ، فالكندى فيلسوف العرب ذهب إلى أبى العباس المبرد قائلا : « إنى لأجد فى كلام العرب حشوا . قال أبو العباس فى أى شىء ... قال : تقولون عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم ، والمعنى فيهما واحد .. فأجابه أبو العباس أما الأولى فهى إخبار وأما الثانية فجواب سائل ، وأما الثالثة فردّ منكر .. لقد بين أبو العباس المبرد للكندى الأحوال التى سوغت مجىء الجملة على هذا النحو أو ذاك ، أو كما سنعرف ما يجب لكل مقام من المقال .

والاعتبار فى سوق الكلام على هذه الصورة أو غيرها . إنما هو للبليغ ، ومن له فضل تمييز بين صور الكلام — وأن يكون متلقيه من ذوى الفطر السليمة ، والذوق الذى يفرق بين الغث والسمين . ويقف على موضع الخصوصية ، ويلمس مكان الجودة .

ومن خلال ما سبقت الإشارة إليه تكون مباحث علم المعانى — كما حددها العلماء كما يلى :

---

(٢) السابق : ٤٧ .

في الخبر والإنشاء :

كل ما يصدر عن الناس من كلام لا يخرج عن واحد من اثنين ، هما الخبر والإنشاء ، وعلماء البلاغة يعرفون الخبر بأنه الكلام الذى يكون له مضمون يمكن أن يتحقق أو لا يتحقق فعندما نقول : قطف الولد الزهرة تكون الجملة قد تضمنت حكما هو القطف منسوبا إلى الولد .. وهذا الحكم يمكن أن يكون قد وقع أولا ... كذلك حين نقول: السماء صافية تتضمن الجملة حكما هو نسبة الصفاء إلى السماء . ويمكن أن يكون هذا الكلام صدقا إذا صدقه الواقع أولا يكون ... ولهذا يقولون إن الخبر هو الكلام الذى يحتمل الصدق والكذب لذاته ... أى بصرف النظر عن قائله .. فإن صدقه الواقع كان صادقا وإن لم يصدقه كان كاذبا .

أما أسلوب الإنشاء ، فليس فيه مثل هذا المضمون الذى يمكن الحكم عليه ، فعندما تطلب من الولد أن يقطف الزهرة قائلا « اقطف الزهرة » . أو عندما تستفهم قائلا: هل قطفت الزهرة؟ لا يتضمن كلامك شيئا يمكن الحكم عليه إنه مجرد إنشاء شيء .

ولهذا يقولون إن الإنشاء هو الكلام الذى لا يمكن الحكم عليه بالصدق أو الكذب .

أى أنه ليس له مضمون خارجى يمكن الحكم عليه ..

الإسناد الخبرى

ويشتمل على

أعراض الخبر – أضرب الخبر – التجوز فى الإسناد

أولا : الخبر .

تعريفه : تقدم القول بأن الخبر هو كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته ، أى بغض النظر عن قائله . والتقييد فى التعريف ليدخل فيه الأخبار الواجبة التصديق ككل الاخبار التى وردت عن الله تعالى وعن رسله عليهم الصلاة والسلام ، كما يدخل فيه الأخبار الكاذبة أيضا كأخبار المتنبئين فى ادعائهم النبوة . والبديهيات المقطوع بصدقها ، كقولنا الواحد نصف الاثنين . فكل هذه الأمور إذا نظر إليها لذاتها ، ودون اعتبار لمن صدرت عنه ، أو أى اعتبار آخر كانت أخبارا تحتمل الصدق والكذب . أما إذا نظر إليها بما فيها من خصوصية فى الخبر فإنها تنسب إلى الصدق أو الكذب .

صدق الخبر وكذبه :

أما صدق الخبر أو كذبه فيثبت حين ينظر إلى مطابقة ما يدل عليه الكلام بما يكون للخبر من نسبة خارجية ، فمن المعروف أن للكلام نسبتين ، تعرف إحداهما من اللفظ ، وتسمى النسبة الكلامية ، وتعرف الثانية من الخارج وتسمى لنسبة الخارجية ، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقا ، وإن اختلفتا كان الخبر كاذبا . فنحن حين نقول الجو معتدل ويكون الجو كذلك فى الواقع نحكم بصدق الخبر ، أما حين يكون الجو غير معتدل فإننا نحكم بغير ذلك .

ثانيا : الغرض من إلقاء الخبر :

حين يلقى المتكلم خبرا من الأخبار يقصد إلى واحد من أمرين :

الأول : أن يفيد السامع شيئا لم يكن له به علم من قبل ، كأن تقول لمن لا يعرف شيئا عن نشأة البلاغة : نشأت البلاغة فى ظل الدراسات القرآنية . وأن تقول لمن لم يخرج من بيته ويعرف حالة الجو . الجو بارد . ويسمى الكلام فى مثل هذه الحالة فائدة الخبر .. أى أن فائدة الخبر تكون حين نعطى للسامع خبرا لم يكن على علم به .

وقد يلقى الخبر لشيء آخر .. كأن يكون السامع على علم بمضمون الخبر ، لكن المتكلم يريد أن يخبره بأنه يعرف الأمر مثله .. كأن تقول لمن زار صديقك بالأمس وأخفى عليك ذلك . « زرت صديقنا فلانا أمس » أو تقول لمن أخفى سفره : « سافرت إلى القاهرة يوم الجمعة الماضى » ويسمى ذلك لازم الفائدة .

والخلاصة أن الخبر قد يلقى لمن لا يعرف شيئا عن مضمونه. ويسمى فائدة الخبر ، أو يلقى لمن يعرف المضمون ، ويسمى لازم الفائدة .

لكن الخبر – وبخاصة فى الأدب – لا يتوقف على هذين الأمرين ، بل يساق لأغراض أخرى بلاغية – يكشف عنها السياق الذى وردت فيه . فحين يخاطب ابن الرومى عينيه قائلا :

بُكَاؤُكُما يَشْفِى وإن كان لا يُجْدِى فَجُودَا فقد أَوْدَى نَظِيرُكُمَا عِنْدِى

لا يسوق إليهما فائدة الخبر أو لازم الفائدة ، لكنه يكشف عن حزنه وألمه وتوجعه لفقد ولده . وعندما يقول أبو فراس الحمداني :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ ... أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ

لا يسوق الكلام من أجل فائدة الخبر أو لازم الفائدة لكنه يتعجب من تلك القوة والتجلد والصبر على ما أصابه .

وحين نستمع إلى قول أبي الطيب المتنبي :

أَنَا الذى نَظَرَ الْأَعْمَى إلى أَدَبِى ... وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِى مَنْ بِهِ صَمَمُ
أنام مِلْءَ جُفُونِى عَنْ شَوَارِدِهَا ... وَيَسْهَرُ الخلقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُوا
الخليلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنى ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

لا نبحث عن فائدة الخبر أو لازم الفائدة ، فما لهذا أو ذاك أراد أبو الطيب ، لكنه يريد أن يفاخر بشعره وفنه الذى جابَ الآفاق ، وتداولته الأيادى والأسماع ، وطربت له القلوب والنفوس ، وأصبح هو و صاحبه معالم معروفه ، وعوالم معلومة ، وأعلاما على الشجاعة والبلاغة والفطنة .

وحين نستمع إلى ضراعات الشاعر فى قوله :

إِلَهِى عبدُكَ الْعَاصِى أَتَاكَا ... مُقِرًّا بالذُّنُوبِ وَقَدْ دَعَاكَ

نحس بالخضوع والضعف اللذين ساق الشاعر من أجلهما قوله. فهو لا يريد أن يعرفنا فائدة الخبر أو لازمها .

وفى قوله تعالى : ﴿ رب إنى وهب العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا ﴾ لم يكن زكريا عليه السلام يظهر إلا الضعف والحاجة إلى

المعين ، وهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعلم مضمون الخبر ، وحاشى أن يقع فى وهم الرسول عليه السلام غير هذا ، كما يعلم أن الله يعلم ما يعلمه عن نفسه . ومن هنا لا يكون المقصود بالخبر فائدة الخبر أو لازم الفائدة وفى قصيدة الشاعر الأعمى التى نظمها حامد طاهر . وفيها يقول :

طَفَتْ مِنْ سِخْرِهَا سَلْمَى .. فَقَالَتْ إِنَّه أعمى
ضَرِيرٌ لا يرى الأشواقَ فى عينىَّ والحلمَا
وراحت فى إباءِ الحسنِ تُهْدِمُ قلبَهُ هَدْمَا
وتطوى أمنياتِ الحبِّ مِنْ أعماقِهِ الْهَيْمَا

أَجَلْ أَعْمَى !! ولكنْ فِى دَمِى الموار أضواءُ
وبينَ جَوانِحِى فجْرٌ مِنَ التَّحْنَانِ وَضَّاءُ
ونهرُ مشاعرٍ بيضاء ، لم يكدَرْ بِه الماءُ
ودنيا من أغاديرٍ لها بالقلبِ لألاءُ

أَجَلْ أعمى .. إذا ما ضَلَّ فى الطرقاتِ ، أَوْتَاهَا
ومدّ عصاهُ قبلَ خُطَاهُ ثم ارتادَ مَجْرَاهَا
ولكن إن رَنَا فى الكونِ بالوجدانِ ٱلْقَاهَا
وجاوزَ أعْمَقَ الأسوارِ راحَ يخاطبُ اللهَ

أجل أعمى كما قالت .. وأعمى لا يَرَى السِّحْرَا
وكيف يحسُّ هذا الحسنَ إن ناداه أو أغْرَى
أنا يا غادتى قلبٌ بإحْسَاسَاتِه أدْرَى
يكادُ يثيرنى همسُ الوردةِ العَذْرَا

أَنَا لَحنٌ سَرَى فى النَّايِ فَيْضُ جَوَاهُ فاخْتَرَقَا
وسَالَ على رُبَى الْعُشَّاقِ .. فاهتزت لَهُ نَزَقَا
أُذَبْتُ كشمعةِ الْقِدِّيسِ أَشْواقِى هُنَا أَرَقَا
وعشتُ أصوغُ للآفاقِ من دنيا الهوى أُفُقَا

ففى الأبيات الأولى يتحدث الشاعر على لسان تلك الحبيبة التى لعب الجمال بعقلها فأضله ، وجعلها لا تنظر فى الشاعر الذى أحبها سوى فقد بصره ، ومن ثم سوف لا يرى جمالها الساحر ، ولا يبصر الأشواق والأحلام التى تسبح فى عينيها ، وهى بهذا الصنيع حطمت قلبه ، وقتلت أمانيه، وطوت أمنيات الحب فى قلبه الذى هام بها .

وحين ننظر فى أساليب الخبر لا نجد الشاعر يسوقها ليعلمنا فائدته أو لازم الفائدة ، لكن ليكشف عن غرورها من جهة وألمه ويأسه من جهة أخرى .

فإذا انتقلنا إلى المقطوعة الثانية : وجدنا الشاعر يقر بما فيه من فقد البصر ، لكنه يكشف عما ينعم به من نور البصيرة ، وما تمتلىء به نفسه من أضواء ففى دمه الموار أضواء ، وفى جوانحه الفجر الوضاء .. وفى مشاعره البيضاء نهرا .. .

ويحشد الشاعر فى هذه المقطوعة عددا من الألفاظ المشعة بالضوء ، والتى تبدد كل ظلمة فنحن نلحظ فيها ألفاظا مثل: « أضواء – وضاء – فجر – بيضاء – لألاء .

وعلى أية حال يخرج الشاعر بالخبر عن وظيفته فى فائدة الخبر أو لازم الفائدة ، بل يكشف عن قدراته وإمكاناته ، وما أعطاه الله سبحانه وتعالى من مناقب لا يكاد يتمتع بها غيره ، والتى تصبح بجوارها عاهة فقد البصر شيئا هينا .

ولعله يشير إلى تأثره بقوله تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ .

والخلاصة أن الخبر في الشعر بصفة خاصة والأدب بصفة عامة لايراد به إفادة المخاطب ما يسمى فائدة الخبر أو لازم الفائدة . بل يكون المراد شيئا آخر ، كإظهار الضعف، أو الحزن أو الفخر أو أى شيء آخر يكشف عنه السياق ويحدده . وليس صحيحا ما ذهب إليه أحد الباحثين المحدثين حين قال : « قصائد المديح في الأدب العربي ، والغزل الذى يتعرض لوصف حبيبات القلوب « وقصائد العتاب واللوم والهجاء ، وما يشبهها من النثر تنضوى جميعا تحت لواء سماه البلاغيون : « لازم الفائدة » في الكلام الخبرى »[1] .

ثالثا : أضرب الخبر وما يجب لكل منها :

يجب أن نضع في اعتبارنا دائما ذلك الشرط الذى وضعه البلاغيون لجودة الكلام واستحقاقه لأن يسلك في الكلام البليغ ، ويندرج صاحبه بين البلغاء . ذلك الشرط هو مراعاته لمقتضى الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال .

وقد قسم البلاغيون الخبر إلى ثلاثة أضرب بالنظر إلى حال المخاطب . فإذا كان المخاطب لا يعرف شيئا عن مضمون الخبر ، وليس له موقف منه اقتضى الكلام أن يأتى على نحو معين أما إذا كان لديه علم بمضمون الخبر وهو يتردد في قبوله ، فإن الكلام يحتاج إلى أن يتخذ مسارا مختلفا عن الحالة السابقة . وإذا كان المتلقى يعرف مضمون الخبر وينكره فالحالة تقتضى ما لا تقتضيه في الحالتين السابقتين .

---

(١) البلاغة في ثوبها الجديد : ٦٠ .

الضرب الأول يسمى الضرب الابتدائى ، ويكون المتلقى فيها خالى الذهن عن مضمون الخبر ويساق له الكلام خاليا من أى توكيد . كأن تقول مثلا يجد الدارس النفع فى دراسة البلاغة ، أو تقول له البلاغة توقفنا على أحسن السبل فى سوق العبارة . ومثل هذا أيضا أن تقول لمن لا يتخذ موقفا ، أو يشكل رأيا حول رسالة الجامعة و الجامعة مركز إشعاع فى الوطن .

والضرب الثانى هو الطلبى .. ويساق للمتردد فى أمر من الأمور ، كأن تقول لمن يتردد حول سفر صديقه . إن صديقك سافر ، والتوكيد فى هذا الضرب يكون على سبيل الاستحسان ، وذلك ليزيل التردد من نفس المتلقى ، ويصل إلى اليقين .

ومثل ذلك تقوله لمن يتردد فى فائدة البلاغة بالنسبة له فتقول له : « إن البلاغة علم نافع » .

الضرب الثالث : هو الإنكارى . وهو يساق فى حالة من ينكر مضمون الخبر ، وهذا الضرب يجب توكيد الكلام فيه . والتوكيد يتدرج ويزداد كلما زادت حالة الإنكار .

ومما يروى فى أضرب الخبر ، ويكشف عن وجوب معرفة الحالات التى يلقى فيها الكلام ، والكيفية التى يلقى بها ما ورد عن الكندى الفيلسوف حين ذهب إلى أبى العباس المبرد قائلا : إنى لأجد فى كلام العرب حشوا . فقال له المبرد فى أى شيء ؟ قال : تقولون عبد الله قائم وتقولون إن عبد الله قا م ، وتقولون إن عبد الله لقائم ، وكان جواب المبرد أن الحالة الأولى فى الكلام مجرد إخبار لا موقف للسامع منها ، فذهنه خالى عن مضمون الخبر . أما الحالة الثانية

فهى جواب عن سؤال ... أى أنها تكفى فى حالة الشك والتردد ، أما الثالثة فهى رد لإنكار منكر .. .

وفى القرآن الكريم ملاحظة لأحوال المخاطبين ، وإلقاء للكلام بحسب هذه الحالات . ففى سورة يس . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا * وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ .

فالآيات الكريمة تحكى لنا موقف أصحاب القرية من رسلهم ، وكيف لم يستجيبوا لدعوة الحق . وكذبوا رسلهم . والله سبحانه وتعالى يرسل إليهم فى بادىء الأمر رسولين فيجدان من هؤلاء التكذيب والأنكار ، فيعزز الله سبحانه رسوليه بثالث ، ويسوق الرسل كلامهم إلى هؤلاء مؤكدا : « إنا إليكم مرسلون » فقد أكدوا الجملة « بإن » وقصرت الرسالة عليهم . أى أن هؤلاء الرسل أرسلوا إليهم وليس إلى غيرهم . لكن الكفار يزيدون من درجة تكذيبهم وإنكارهم . فيقولون : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا . وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾ ، إن الموقف هنا يختلف فهم لا يتصورون أن يكون الرسل مثلهم فى بشريتهم ، وكيف يستوعب عقلهم أن يكون الرسل أناساً يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ؟ وكيف لا يكون الرسل ملائكة . لقد قصروا الرسل على البشرية وما داموا كذلك فهم مثلهم ، لا يتميزون عنهم فى شىء . ثم يمتدون بالإنكار فينفون أن يكون الرحمن قد أنزل شيئا ، أو أرسل رسلا . ثم يختمون قولهم بتلك العبارة التى تقول : ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ إنها تحصرهم وتحبسهم على الكذب وحده . لقد بلغ الإنكار ذروته ، ولا يناسبه إلا أن يصل التأكيد ذروته ، وكذلك

يأتى قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾[1] فهم يبدأون التوكيد. بإسناد الأمر إلى علم الله ﴿ ربنا يعلم ﴾ ثم يكون التوكيد بإسمية الجملة ، وإن ، ولام الابتداء ، وقصر الرسالة عليهم ، ومن المعروف أن أسلوب القصر فيه توكيد للكلام . كما سنبين ذلك فيما بعد .

وإذا جاء الكلام لخالى الذهن بغير توكيد ، وللمتردد الشاك مؤكدا بمؤكد على سبيل الاستحسان ، وللمنكر مؤكدا بأكثر من مؤكد على سبيل الوجوب ، بحسب حالة الإنكار قيل إن الكلام جاء على حسب مقتضى الظاهر . وتكون بلاغته فى موافقته لهذه الحالة فقط .

لكن البليغ قد يأتى بالكلام على غير ما يقتضى الظاهر مشيرا إلى نكتة بلاغية يتوصل إليها برهف الحس ، ودقة الملاحظة ، وعمق النظرة . فإذا كان هناك من ينكر وجود الله مثلا ، فإننا حين نخاطبه بحسب ما يقتضيه الظاهر سنقول له (إن الله لموجود) لكننا قد ننزله منزلة خالى الذهن ، ونسوق له الكلام من غير توكيد البتة . فنقول (الله موجود) وكأننا بذلك نومىء إلى أن كل شىء فى الكون يدل على وجوده سبحانه ، فالكواكب التى يمضى كل منها فى مساره ، والأفلاك التى يعج بها الكون . والإنسان وما سخر له الله من أجهزة فى داخله . والبحار والمحيطات ... وكل شىء يراه أو يحسه ، أو يسمع عنه كلها دليل على وجوده سبحانه ، فلا مكان إذا لإنكاره ومكابرته .

وقد ينزل خالى الذهن منزلة المنكر أو المتردد كأن يرى فى حالة وكأنها حالة من ينكر الأمر ولا يصدقه. وذلك كأن تقول للمسلم الذى يعرف ما حرم الإسلام وما أحل ، إن الخمر محرمة بنص الكتاب . وقد نزلناه منزلة الشاك أو المنكر لأنه يتعاطى

---

(١) التوبة : ٤٠ .

الخمر ، وكأنه فى حال شبيه بحالتهما . أو تقول له إن الصلاة فريضة ، فتنزله منزلة المتردد الشاك مع أنه ليس كذلك ، وإنما اتخذنا معه هذا الموقف لأنه ترك الصلاة ، أو أهمل فى أدائها .

وحين يجيء الخبر على هذا النحو تقول إن الخبر قد جاء على خلاف مقتضى الظاهر . وعلينا أن نبحث عن النكتة التى اقتضت ذلك . ويجب أن ننبه إلى أن ذلك لا يتأتى لغير الأدباء والبلغاء الذين يضعون الكلام مواضعه ، ولا يجوزون به هذه المواضع إلا لغايات يعرفونها أولا ... ويعرفها من يلقون له القول ثانيا . أما الذين حرموا صفة البلاغة فلا يتأتى منهم مثل ذلك ، لأن وضع الكلام فى غير موضعه قد يكون نتيجة الجهل وعدم المعرفة .

ومن الأمثلة التى نزل فيها خالى الذهن منزلة المتردد قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ والنكتة التى اقتضت هذا ، وجعلت الكلام يأتى على خلاف مقتضى الظاهر ما تضمنه الكلام السابق لها من إشارة تثير التساؤل . فالله سبحانه وتعالى فى الآية الأولى يطلب من الناس أن يتقوا الله ويخشونه . وهى فى بداية السورة ومفتتحها . وهنا قد يقول المستمع : لماذا هذا الطلب ، فيأتى التوكيد لإزالة هذا التردد من جهة ، ويقوى ما تتصف به القيامة من قوة تهز كيان الخلق ، وتدخل فى نفوسهم الهلع والفزع .

وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى أيضا على لسان — رسول الله ﷺ — حين كان فى الغار مع صاحبه ، والكفار يجدون فى طلبهما ، ويسعون لإلحاق الأذى بهما ، والخوف يحيط بهما من كل الجوانب ، حتى فى الغار لم يكن الأمن متحققا فى كل الأحوال والظروف ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله

سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[1] .

فالآيات الكريمة تحيط بالحال من جوانبه ، وتعبر عنه فى أسمى صور التعبير ، وحين يأتى الكلام مؤكدا يكون بالنظر إلى ما كان عليه الصدّيق من حال الخوف لا على نفسه ، ولكن على رسول الله ﷺ . هذا الخوف الذى نلمسه من سير الصديق رضى الله عنه تارة عن يمين رسول الله ﷺ ، وأخرى عن يساره ، وثالثة أمامه ، ورابعة خلفه ، لأن الصديق كان يخشى أن يصاب رسول الله ﷺ بأذى من أى جهة . وحتى فى الغار كان فيه ما فيه من الهوامّ التى لا تقل خطرا عن كفار قريش ، لهذا نزل منزلة من يشك فى النجاة ... فقال له ﷺ : « لا تحزن إن الله معنا » .

وقد بيّن (السكاكى) جانبا من التعليل لجمال القول فى مثل هذه الأحوال . وهو أن يتقدم فى الكلام ما يلوح له بحكم الخبر ، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب . كقوله تعالى : ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ فقد تقدم فى الآية ما يجعل المخاطب يتساءل : لماذا لا يخاطب نوح ربه فى أمر هؤلاء الظالمين المعاندين ، وحتى يقضى الجواب على هذا التردد جاء التوكيد فى الآية الكريمة : ﴿ إنهم مغرقون ﴾ .

ومما جاء فى التنزيل على هذا المقتضى من تنزيل خالى الذهن منزلة المتردد ، ولنفس السبب قوله تعالى على لسان امرأة العزيز : ﴿ وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ لأنه لما تقدم فى الكلام قولها ﴿ وما أبرىء نفسى ﴾ تولد فى نفس المستمع لقولها تساؤل : ولم هذا ؟ فجاء التوكيد ليزيل من نفوسهم هذا الاستشراف والتساؤل .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٨٩ .

« وسلوك هذه الطريقة – كما سبق – شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض ، وهي قد تخفى على غير البليغ الذى يعرف مداخل الكلام وأوضاعه . وما يناسب كل مقام من المقال . وقد روى أن أبا عمرو بن العلاء وخلفا الأحمر كانا يقدران بشار بن برد ويقابلانه بغاية التعظيم والإكبار . وحين أنشد بشار قوله :

بكرا صاحبيَّ قبل الهجيرِ إن ذاكَ النجاحَ في التبكير

قالا له : يا أبا معاذ : لو أنك قلت : فالنجاح فى التبكير » لكان أفضل .

فقال لهما بشار : لقد بنيتها أعرابية بدوية . ولو قلت : فالنجاح فى التبكير لما ناسبت ذلك القول ، وكانت بكلام المولدين أشبه ، ولا يدخل فى معنى القصيدة . فقام خلف فقبّل بين عينيه .

ولم يحدث ذلك إلا لأن بشارا كان أدرى بموقع القول وما يناسبه . وقد خفي ذلك على صاحبيه ، فأرشداه إلى أن الربط بالفاء ربما كان أولى . لكنه بيّن لهما مقصده من الكلام وأوقفهما على مكان اللطف فيه ، وأزال بذلك ما كان عليه من الخفاء .

وينزل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار . وذلك كقول حجلة بن نضلة الباهلى :

جاء شقيقٌ عارضاً رُمْحَـهَ إنَّ بَني عَمِّكَ فيهم رِمَـاحُ

لقد جاء شقيق هذا واضعا رمحه على فخذه ، بحيث يكون عرضه ناحية هؤلاء القوم ومثل هذه الحالة فيها عدم اكتراث بالقوم ، وكأنهم ليسوا أهلا للحرب ، أو كأنهم لا يملكون عدة الحرب . ومن هنا جاء بقوله : « إن بنى عمك فيهم رماح » وهي مما يكون لمنكر الشيء والجاحد له .

وفى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[1]

نجد الجزء الأول ينزل فيه غير المنكر منزلة المنكر ، ويؤكد له بمؤكدين . فالموت مما لا يرتاب فيه أحد لأنه مما يقع للناس فى كل وقت . وقد جاء هذا الجزء من الآية ليقرر أن الناس على الرغم من عدم إنكارهم للموت يتمادون فى غفلتهم ، ويعرضون عن العمل الصالح ، ويرتكبون الذنوب والآثام ولهذا جاء التوكيد على نحو ما أسلفنا ، وجاء الخبر اسما ليدل على الثبوت .

لكن الجزء الثانى وهو الخاص بالبعث . وهو مما ينكره الكافر ولا يؤمن به فيأتى مؤكد بمؤكد واحد ، أى أن المخاطب ينزل منزلة المتردد بينما هو جاحد منكر . وذلك إيماء إلى الأدلة التى تشير إلى البعث . ومن روعة القرآن الكريم وبلاغته أن يأتى الخبر هنا فعلا ليفيد التجدد والحدوث على خلاف ما حدث فى الجزء الأول من الآية الكريمة .

رابعا : المجاز العقلى أو : التجوز فى الإسنـــاد

كان عبد القاهر الجرجانى أول من نبه إلى هذا النوع من المجاز ... فقد وجد أن الإسناد قد يأتى على حقيقته أو يقع ممن يتوقع أن يقع منه ، وهذا هو الإسناد الحقيقى ؛ وقد يسند إلى من لا يتصور وقوعه منه بحسب العادة أو الاعتقاد .

وقد عرفنا فى علم البيان نوعًا من المجاز يكون بنقل الكلمة من معناها إلى معنى آخر ، وقلنا عندئذ إن هذا المجاز هو المجاز اللغوى لأنه يكون فى حاق اللفظ ... لكن النوع الذى نحن بصدده لا يكون فى اللفظ وإنما يكون فى إسناد اللفظ إلى غير ما هو له .

(١) المؤمنون : ١٦ .

يقول عبد القاهر : « اعلم أن طريق المجاز والاتساع فى الذى ذكرناه قبل ، أنك ذكرت الكلمة ، وأنت لا تريد معناها ، ولكن تريد معنى مّا هو ردف له ، أو شبيه ، فتجوزت بذلك فى ذات الكلمة ، وفى اللفظ نفسه » .

« وإذ قد عرفت ذلك ، فاعلم أن فى الكلام مجازا على غير هذا السبيل ، وهو أن يكون التجوز فى حكم يجرى على الكلمة فقط ، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ، ويكون معناها مقصودا فى نفسه » .

إن وجود معنى اللفظ فيه يبعد القول بالمجاز .

يضرب عبد القاهر الجرجانى مثلا لذلك بقول الشاعر :

وصيَّرني هـواكِ وبـي ... لِحَيْني يُضْرَبُ الْمَثَـلُ

وقول الشاعر :

يزيـدك وَجْهُـهُ حسنـاً ... إذا ما زِدْتَـه نظـرًا

فمعنى الفعل : صيرنى فى البيت الأول موجود فيه ، ومعنى الفعل يزيد كذلك .

« وإذا كان معنى اللفظ موجودا على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه ، وإذا لم يكن المجاز فى نفس اللفظ كان لا محالة فى الحكم »[1] .

وقد مثل على ذلك بقوله : نهارك صائم ، وليلك قائم . ففى الجملة الأولى جاء النهار على أصل وضعه ، والصيام كذلك . لكن التجوز جاء فى نسبة الصيام إلى النهار ووقوعه خبرا له ، ومثل ذلك « ليلك قائم » فالليل جاء على حقيقته ، وكذلك القيام لكن التجوز جاء فى الإسناد .

(١) دلائل الإعجاز : ٢٨٦-٢٩١ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ فالتجارة لم تتجاوز أصل وضعها ومعناها ، وكذلك الربح ، لكن التجوز جاء فى إسناد الربح إلى التجارة .

ومقابل المجاز العقلى الحقيقة العقلية وبها يعرف إذ كما يقول القائل :

وبضدها تتميز الأشياء

وما دام الأمر كذلك ، فمن المناسب أن نذكر شيئا يحدد لنا مفهوم الحقيقة العقلية ثم نتبعه بما يبين مفهوم المجاز العقلى ...

وقد عرف الخطيب القزوينى الحقيقة العقلية بقوله : « هى إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم فى الظاهر » .

والتعريف يتحدث عن إسناد الفعل وما فى معناه ، وما يكون فى معنى الفعل هو اسم الفاعل واسم المفعول ، والزمان والمكان ، واسم التفضيل ...

والتقييد بما هو له .. يعنى أن إسناد الفعل إلى الفاعل الذى قام به وفعله حقيقة . كقولنا : « أنبت الله الزرع » فالله هو فاعل الفعل . ومثل ذلك : قام محمد فقد أسند إليه الفعل وإن كان الفاعل الحقيقى هو الله .

وقد حدث جدل طويل حول أفعال العباد ، وهل هى لهم ، أم أنها لله سبحانه ، وأن ما لهم فيها هو الكسب والاختيار - كما يذهب إلى ذلك أهل السنة والجماعة -.

ولسنا نريد الخوض فى هذه القضية لأنها ليست مما يعنينا فى هذا المجال . لكننا نؤكد على مجموعة من الأمور :

أولها : أننا نرى ما يراه أهل السنة من أن الأفعال كلها مخلوقة لله سبحانه . وعندما نقول : إن محمدا قام .. فإن كسبه وتحصيله واختياره يكفى لأن نقول إنه فاعل الفعل ، ومن ثم يكون إسناد القيام إليه حقيقة .

والعبرة فى التعريف بما يعتقده المتكلم ... وهو الذى يحدد ما إذا كان الكلام حقيقة أو مجازا . فعندما يقول الموحّد : أنبت الله الزرع يكون الإسناد إسنادا حقيقيا . وعندما يقول الكافر : ﴿ نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ يكون الإسناد على الحقيقة بحسب اعتقاده ، وإن كان غير ذلك بحسب اعتقادنا .

أثر المجاز العقلى فى الأداء الفنى :

وكما بين عبد القاهر الآثار الفنية التى تترتب على الاستخدام المجازى فى اللفظ وأن ذلك من السبل التى توطىء القول للأديب ، وتتيح له سبل الإبداع ، وتكسب الكلام جماله وجلاله . يجد أن الكلام فى هذا النوع أيضا « يفخم عليه المعنى ، وتحدث فيه النباهة » .

ويتضح الفرق حين ننظر فى مثل قول الشاعر :

فنامَ لَيْلِى وتجلَّى هَمِّى

بما فيه من حسن ، ونقارنه بقولنا فنمت فى ليلى ، وتجلى همى . وينتهى عبد القاهر الجرجانى إلى القول : « بأن هذا الضرب من المجاز كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان ، والاتساع فى طريق البيان » .

وهو يطلق على هذا النوع من المجاز اسم المجاز الحكمى ، ويبين أن من أسباب حسنه – كما كان من أسباب حسن المجاز اللغوى – تهيئة النظم وإعداده

لتقبل المجاز » واعلم أن من أسباب اللطف فى ذلك أنه ليس كل شىء يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز الحكمى بسهولة ، بل تجدك فى كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهيىء الشىء وتصلحه لذلك بشىء تتوخاه فى النظم . وإن أردت مثلا على ذلك فانظر إلى قوله :

تَنَاسَ طِلَابَ العامرية إذْ نَأَتْ ... بِأَسْجَعَ مرقالِ الضُّحى قَلِقِ الضَّفْرِ
إذا ما أَحَسَّتْه الأفاعِى تحيَّزت ... شواةُ الأفاعى من مُثَلَّمةٍ سُمْرِ
تجوبُ له الظلماءَ عينٌ كأنها ... زجاجةُ شَرْبٍ غيرُملأى ولا صفر

فنحن فى الأبيات أمام صورة من صور الحزن والأسى التى يحاول الشاعر الهروب بسببها عن مكانه ، فلم يعد له فى هذا المكان إقامة طالما رحلت ليلى عنه . ووسيلته فى هذا الارتحال جمله سريع العدو الذى ضمر جسمه من طول سيره ، حتى أصبح الحزام لا يستقر عليه ، وقد ثلمت أخفافه لطول السير عليه ، وحين تحس به الأفاعى تنقبض جلودها .

وهذا الجمل معود على سرى الليل والسير فيه ، ويساعده على ذلك عينان غائرتان يشق بهما سدول الليل ، ويخترق بهما حجبه . ويشبه الشاعر هذين العينين بالزجاجة التى ذهب نصف شرابها ، وبقى نصفه الآخر .

ثم يبين عبد القاهر سبب الجمال فى البيت الأخير ، وأنه كان بسبب تهيئة النظم وإعداد الكلام فقد علق الجار والمجرور [له] بالفعل [تجوب] ولولا هذا ما صلحت العين لأن تكون فاعلا للفعل [تجوب] كما أن جهة التجوز ما كانت لتظهر . ويختلف الأمر كثيرا لو أنه قال مثلا : تجوب له الظلماء عينه »[1] .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٨٦ – ٢٩١ .

هل لابد من حقيقة لكل مجاز ؟

يذهب بعض البلاغيين إلى أن أى مجاز لابد له من حقيقة يمكن الرجوع إليها .

وفى مثل ما نحن فيه من المجاز العقلى أو مجاز الإسناد مثلا نجد فى مثل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ أنه يمكن الرجوع إلى الفاعل الحقيقى فتقول : « فما ربحوا فى تجارتهم » كما يمكننا فى قول الشاعر :

يحمى إذا اخترط السيوف نساءَنا ضربٌ تطير له السواعد أرعل

أن نقول نحمى نساءنا بضرب .

لكن عبد القاهر الجرجانى لا يذهب مذهب هؤلاء ... وقد بين لنا فى حديثه عن الاستعارة أنه ليس بلازم أن ترد كل استعارة إلى أصلها من التشبيه . وهو هنا يبين لنا أن من الأفعال ما يسند إلى ما ليس له . ولا يكون له فاعل حقيقى يمكن أن يرجع إليه . فلا يمكن الزعم بأن لصيرنى فى قول الشاعر :

وصيرنى هـواك وبى لحينى يضرب المثل

فاعل « قد نقلت عنه الفعل فجعل للهوى » .

وكذلك ليس للفعل « يزيد » فاعل يمكن الرجوع إليه فى قول الشاعر :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

العلاقة فى المجاز العقلى :

سبق أن عرفت أن المجاز لا يصح إلا بشرطين :

١ — أن توجد فى الكلام قرينة تمنع من أن يكون الكلام على حقيقته . وهى إما لفظية أو حالية .

والقرينة اللفظية وجود لفظ يدل على ما أراد المتكلم وما يعتقده فى إسناد الفعل ، وذلك على نحو ما جاء فى قول أبى النجم :

قد أصبحت أمُّ الخيارِ تدَّعي ... عليَّ ذنبا كلُّه لم أصنعِ
من أن رأت رأسي كرأس الأصلَعِ ... ميَّزَ عنه قُنزعا عن قنزعِ
جذب الليالى أبطىء أو أسرعى

فقد جاء بعده قوله :

أفناه قيل الله للشمس اطلعى ... حتى إذا واراك أفق فارجعى

فقد بين فى هذا البيت اعتقاده ، وأنه موحد ، وأن الفاعل الحقيقى هو الله ، وعلى ذلك فالإسناد فى جذب الليالى جاء على غير حقيقته .

وفى هذه الأبيات لمحة إنسانية ، وصورة من صور التقلب عند بعض النساء ، يصورها لنا الشاعر . فهذه المرأة تغير حالها بعد أن وجدت الرجل قد تقدم به العمر ، ونالت منه الليالى والأيام . وذهب منه ماء الشباب ورونقه . لقد سقط شعره ، وأصبحت خصلاته متباعدة ، وقرب من الصلع وهنا أخذت المرأة تسند إليه النقائص والعيوب . وتحاسبه على ما لم يقترف من الذنوب . ولم لا تفعل هذا ؟ أليس الشباب رغيبة النساء ؟ أو كما يصور الشاعر :

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى ... فأعرضن عنى بالخدود النواضر

أما القرينة الحالية ... فأن يقول الموحد : أنبت الربيع البقل . فإن المعروف من حاله نسبة الفعل إلى الله سبحانه . ومن النوع الأخير من القرينة [الحالية] قولنا : محبتك جاءت بى إليك . فالعقل يحكم أن المحبة لا تأتى بالإنسان .

الشرط الثانى لتحقق الصور المجازية أن توجد علاقة تجوز هذا الجنوح بالكلام عن أصل وضعه . وهذه العلاقات حصرها بعضهم من خلال تعريفه السابق « إسناد الفعل أو ملابسه إلى غير ما هو له » وقد بين الخطيب القزوينى ملابسات الفعل فى قوله : « وللفعل ملابسات شتى . يلابس الفاعل والمفعول به ، والمصدر والزمان والمكان والسبب » .

لكن التجوز فى الإسناد قد يضم ملابسات أخرى غير السابقة . وذلك كإضافة الشيء إلى غير ما هو له ، أو وصفه به على نحو ما سنمثل لذلك .

فمثال إسناد الفعل المبنى للمعلوم إلى المفعول قوله تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ فالعيشة لا تكون راضية وإنما تكون مرضى عنها . ومثله قوله تعالى : ﴿ من ماء دافق ﴾ إذ الماء لا يكون دافقا فى الحقيقة ، بل يكون مدفوقا .

وقد جاء على هذه الصورة أيضا قول الحطيئة :

دع المكارمَ لا ترحلْ لِبُغْيَتِهَا ... واقعد فإنَّك أنت الطاعمُ الكاسي

فقد أسند « راضية » إلى ضمير العيشة ، وهى فى الحقيقة مرضى عنها ، وكذلك طاعم وكاس ، ودافق . أى مطعوم ومكسو ، ومدفوق .

أو إسناد المبني للمفعول إلى الفاعل . وذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾ فالحجاب يكون ساترا . ومثله قوله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾ فالوعد يكون آتٍ .

ثالثا : إسناد الفعل إلى المصدر كقولنا : « الآن جدّ الجدُّ » وعليه جاء قول أبى فراس :

سيذكرنى قومى إذا جدَّ جدُّهم وفى الليلةِ الظلماءِ يُفْتَقَدُ البدرُ

فالجد لا يفعل نفسه ولكن يفعله الجاد ، وقد أسند إليه كما نرى على سبيل المجاز .

رابعا : من ملابسات الفعل التى يسند إليها : الزمان والمكان . فمثال الإسناد إلى الزمان قولنا : نهار صائم ، وليل قائم . فالنهار لا يصوم والليل لا يقوم وإنما يصام ويقام فيهما .

ومن الإسناد للزمان قول أبى البقاء الرندى فى رثاء الأندلس :

هى الأمورُ كما شاهدتُها دولٌ من سرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ

فالإنسان يسرُّ فى الزمان ، أو يُسَاءُ فيه .

والإسناد إلى المكان مثل قولنا : « نهرٌ جارٍ » وطريقٌ سائر . فالنهر يجرى فيه الماء والطريق يسير فيه المارّة . وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ﴾ .

سادساً : الإسناد إلى السبب : قول الشاعر :

نعم المعين على المروءة للفتى   مال يصون عن التبذل نفسه

فالمرء يصون نفسه عن التبذل بسبب المال ، لا أن المال هو الذى يصون .

ومن إسناد الفعل إلى ما هو سبب فيه قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ فالتجارة لا تربح وإنما بسببها يربح أصحابها . ومن هذا النوع أيضا : بنى الأمير المدينة ، فالذى قام بالبناء هم العمال والمهندسون ، ولكنه أسند إلى الأمير لأنه السبب فيه ، والآمر به .

ومن هذا النوع أيضا ما جاء فى قوله تعالى عن عمل فرعون : ﴿ يذبح أبناءهم ﴾ فقد نسب إلى فرعون الذبح لأنه الآمر به .

ألوان أخرى من المجاز :

إن التعريف الذى سبق لا يشمل كل أنواع المجاز العقلى ، ذلك لأن صاحبه حصره — كما سبق — فى إسناد الفعل أو ملابسه . وقد عددنا ملابسات الفعل . لكن أنواعاً أخرى من المجاز العقلى لم تكن فى إسناد الفعل بل كانت فى إسناد الخبر على نحو ما جاء به عبد القاهر الجرجانى من قول الخنساء :

فما عجولٌ لدى بَوٍّ تُطِيفُ به   لها حنينان إعلانٌ وإسْرَارُ
أودى به الدهرُ عنها فهى مرزمةٌ   قد سَاعَدَتْها على التَّحنان أظآرُ
ترتعُ ما غفلت حتى إذا ادكرت   فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ

فقد جعلت الخنساء الناقة إقبالا وإدبارًا ، أو بعبارة أخرى أسند الإقبال والإدبار إلى الناقة على طريق المجاز . وقد أشار عبد القاهر الجرجانى إلى أن تقدير مضاف يفسد الشعر ويخرج به عن الغرض الذى قصدت إليه الخنساء .

ومثل هذا النوع وصف الذات بالمصدر مثل قولنا « رجل عدل » ، وقوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ... ﴾[1] (الآية) .

ويعد من المجاز أيضا وصف الشىء بصفة غيره كوصف الضلال فى قوله تعالى : ﴿ فى ضلال بعيد ﴾ و﴿ عذاب أليم ﴾ .

أقسام المجاز بالنظر إلى طرفيه :

إذا كان المعتبر فى هذا النوع من المجاز الذى اصطلح على تسميته بالمجاز العقلى ، أو مجاز الإسناد أن يسند فيه الفعل إلى غير فاعله ، أو الخبر إلى غير مبتدئه ، فلم يغفل العلماء عن النظر فى الطرفين – المسند إليه والمسند –.

لقد وجد العلماء أن هذين الطرفين يمكن أن يكونا على حقيقتهما . ويكون التجوز فى الإسناد وحده .

وقد يكون التجوز فيهما ، وفى الإسناد . كما قد يكون أحدهما فيه نقل وتجوز ويكون الآخر على أصل وضعه . ومن هنا قسَّم العلماء هذا المجاز إلى أربعة أقسام :

الأول : ما يكون المسند والمسند إليه على حقيقتهما ، ويكون التجوز فى إسناد أحدهما للآخر . مثل قولنا : أنبت الربيع البقل . فالإنبات حقيقى فى معناه . وكذلك الربيع لكن التجوز يكمن فى إسناد أحدهما للآخر .

(١) البقرة : ١٧٧ .

ومن هذا النوع الذى تبقى فيه الألفاظ على أصلها ويكون المجاز فى الإسناد قول الفرزدق :

سقاها خُرُوقٌ فى المسامِع لم تكن عِلَاطاً ولا مخبوطةً فى الْمَلَاغِمِ

والفرزدق يتحدث عن إبل قوم من السادة فيها علامات عرفت بها ولهذا عندما ضلت ووجدها أناس عرفوا لمن تكون فعنوا بها وسقوها .

فليس المجاز فى السقى ولا فى الخروق ، لكن فى إسناد أحدهما للآخر . ويسوق عبد القاهر الجرجانى أمثلة لهذا قوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ وقولنا : ليل قائم ونهار صائم ، وقول الشاعر :

فنام ليلى وتجلى همى

ويعلق على هذا كله بقوله : « أنت ترى فى هذا كله مجازا ولكن لا فى ذوات الكلم وأنفس الألفاظ ، ولكن فى أحكام أجريت عليها »[1] .

ومن هذا النوع أيضا قول الشاعر :

يَحْمِى إذا اخْتُرِط السيوف نساءَنَا ضربٌ تطير له السواعد أرعلُ

فنحن أمام شاعر يتحدث عن حماية نسائهم بالقوة حين تستل السيوف ، وتشتد المعارك وحماية أولئك النساء ستكون بالضرب الشديد الطائش السريع .

وقد أسند الفعل « يحمى إلى الضرب » وهذا الإسناد كان سببا فى جمال التعبير وقوته ، وأرجع عبد القاهر الجرجانى « الماء والرونق » إلى هذا النظم ، وقارن بينه وبين الإسناد الحقيقى فى قوله : « نحمى إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل » حيث يمضى الحسن الذى كان ، ويذهب الرونق

(١) دلائل الإعجاز : ٢٨٦ .

فى غير هذا المكان ، ويفقد البيت روعته التى وجدناها عندما أسند الحماية إلى الضرب على طريق المجاز العقلى .

الثانى : ما يكون فيه المسند إليه والمسند مجازين أيضا ، بمعنى أن يكون كل منهما قد نقل من أصل وضعه إلى معنى جديد ، وذلك مثل قولنا : أحيا الأرض شباب الزمان فالمقصود بإحياء الأرض ما تكون عليه من النضرة والجمال ، والمقصود بشباب الزمان الربيع ، فأنت ترى مجازا فى المسند إليه ، وفى المسند . يضاف إلى هذا التجوز فى نسبة الإحياء إلى شباب الزمان .

وقد يكون التجوز فى الإسناد إضافة إلى المجاز فى المسند إليه ، أو المسند ، أى أن أحدهما يكون حقيقيا .

فمما اجتمع فيها مجاز الإسناد مع المجاز فى المسند إليه قول الفرزدق فى الفخر :

سقاها خروق[1] فى المسامع لم تكن   علاطا ولا مخبوطة فى الملاغم

وهو يريد أن إبلهم لم تكن معلمة . وهذا هو المراد بقوله : « لم تكن علاطا » كما أنها لم تكن معلمة فى أشداقها .

وعلى الرغم من هذا كانت تلك الإبل إذا وردت الماء لم يمنعها أحد لقوة أصحابها ، وشهرتهم وما كان لهم من ذكر بين الناس .

لقد أسند السقى إلى الخروق ، والخروق هو الصوت ، والمراد به ذكر أصحابها وما كان لهم من سمعة . والخروق هو مجارى الصوت فى الأذن ، وقد أطلق على الصوت نفسه من إطلاق المحل على الحال فى المجاز المرسل . أى أن ذلك

(1) الخروق : مجرى الصوت فى الأذن ، وقد أطلق على الصوت والكلام فى البيت ، العلاط ، العلامة فى العنق ، والملاغم : الأشداق . يريد أنه لا توجد بها سمة فى الأعناق أو الأشداق .

مجاز مرسل إذا نظر إليه وحده ، أطلق فيه المحل وأريد الحال . لكن المخروق جعل فاعلا للسقى ، والذى يسقى فى الحقيقة هم الناس .

ومن الواضح قوة التعبير فى الاستخدام المجازى ، ويتضح هذا إذا قلنا : يسقى الناس إبلنا لقوة أصحابها . ومن هذا النوع قولنا : أنبت البقل شباب الزمان ، فقد سبق أن عرفنا المقصود بشباب الزمان وأنه الربيع .

وقد يأتى المجاز فى المسند بالإضافة إلى المجاز فى الإسناد . وذلك كقولك : « أحيتنى رؤيتك » بمعنى آنستنى وسرتنى ، فقد جعلنا السرور والمؤانسة إحياء ، ثم أسندنا الفعل إلى الرؤية . والإسناد على الحقيقة هو لله سبحانه .

ومن هذا النوع من المجاز الذى يجتمع فيه المجاز فى المسند إلى المجاز فى الإسناد قول أبى الطيب المتنبى :

وتُحيى له المالَ الصوارمُ والقنا ويَقْتُلُ ما تحيى التبسُّمُ والْجَدَا

فالمتنبى يمدح صاحبه بصفتين مما يكتمل المدح بهما ، وهما الشجاعة والكرم . والذين ينظرون فى المديح العربى يجدون هاتين الصفتين أكثر دورانا فيه ، وكأنه لا يكون المدح مدحًا ما لم يكن الممدوح شجاعًا جوادا . وقد تلطف الشعراء فى إيراد هاتين الصفتين وغيرهما من صفات المدح ونوعوا فيهما ، وأشركوا عناصر مختلفة فى بناء صورهما . فتارة نجد النار تدخل عنصرا فى بناء صورة الكرم :

متى تأته تعشو إلى ضوءِ نارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عندها خَيْرُ مُوقِدِ

وأخرى يكون فيها الحيوان عنصرا .. فالكلاب لا تهرب عند قدوم الناس لأنها ألفتهم ولهذا توصف بالجبن :

ومهما يكُ فيَّ من عيبٍ فإنّي جبانُ الكلبِ مهزولُ الفصيلِ

وأخرى يحرم ولد الناقة لبنها ليقدم للأضياف ، ومن ثم يصاب بالهزال ، وما هذا وغيره إلا خطوط فى صور الكرم . قد يكون فى تتبعها والسعى لاستقصائها خروج عن الغرض الذى نريده . لكنا فقط نشير إلى أن أبا الطيب يمدح بالشجاعة والكرم فهو يجمع المال عن طريق الغزو والإغارة ، أو هو يدافع عن المال والحرم ، وقد جعل حفظ المال والدفاع عنه حياة له — على سبيل المجاز — وأسند الفعل إلى السيوف والرماح على غير الحقيقة . وجُعل إنفاق المال والجود به قتلا له — على سبيل المجاز — ثم أسند الفعل إلى الجود والابتسام ، وهو تجوز فى الإسناد .

صور المجاز العقلى فى القرآن الكريم والشعر :

وللقيمة الفنية لهذا النوع من المجاز ، وما يضفيه على الأسلوب من قوة ، وما يحدث فى العبارة من التأثير كثر فى القرآن الكريم والشعر . فمن أمثلته فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(١) والآية تتحدث عن المؤمنين ، وما تمتلىء به قلوبهم من الإيمان عندما ينظرون فى آيات الله وخلقه . وقد أسندت الزيادة إلى الآيات لقوة تأثيرها وعظمها فى نفوس المؤمنين كما أن الآيات كانت السبب فى تلك الزيادة .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ﴾(٢) لقد كان الظن سبب هلاكهم ، وإسناد الفعل إليه — مع أن فاعله هو الله — ليبين أن هلاكهم كان بأيديهم وبما انطوت عليه نفوسهم من ظن سيء بربهم .

---

(١) الأنفال : ٢ .

(٢) فصلت : ٢٣ .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ . وقوله على لسان فرعون : ﴿ يا هامان ابن لى صرحًا لعلى أبلغ الأسباب ﴾[3] . وقوله تعالى على لسانه أيضا : ﴿ فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحًا ﴾[4] . وقوله تعالى : ﴿ يذبح أبناءهم ﴾ ولا يخفى على المتتبع الحكمة فى بناء الآيات على المجاز فى الإسناد ما جاء من المجاز فى الشعر .

ولقد كثر المجاز فى الشعر كثرة لافتة ، لأنه — كما سبقت الإشارة إليه — بابٌ من التوسع فى القول ، يلجأ إليه الشعراء والأدباء ليخلعوا به على الأشياء صفات ليست لها ، فيجعلون به الأخرس مبينا ، والجماد ناطقا . ونسوق بعض ما جاء من الشعر.. فمنه قول الشاعر :

عفا البينُ ما أبقت عيونُ الْمَهَامِنِّى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فَشِبْتُ ولَمْ أَقْضِ اللُّبَانَةَ مِنْ سِنِىّ

ومعنى هذا البيت أن صاحبه يشكو مما أصابه من الفراق والغوانى الفاتنات ، لقد وقع تحت تأثير ذوات العيون النجل اللائى أضنينه وعذبنه ، وحديث الضنى واللوعة فى الحب مما يكثر وروده فى الشعر الغزلى . فالشاعر المحب دائما يشكو ما يلقاه من قيد وتعذيب وما يخلفه فى قلبه من جوى وآلام . وحديث الفراق وآلامه يكثر هو الآخر ، ونحن هنا أمام شاعر يشكو من الأمرين معًا ... ما أحدثته فيه عيون الغوانى ، وما أحدثه الفراق فى تلك الغلالة التى بقيت ... لقد تقدم به العمر ، أو شاب وهو صغير لم يتجاوز عهد الصبا .

---

(1) يونس : ٢٤ .
(2) الزلزلة : ٢ .
(3) غافر : ٣٦ .
(4) القصص : ٣٨ .

لقد نسب الإزالة إلى البين – كما نرى – على سبيل المجاز ، لأن الهلاك كان بسبب هذا البين وبتأثير منه .

ومنه قول الشاعر :

مَلَكْنَا فكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بالدَّمِ أَبْطَحُ

وهو يقارن بين كرم قومه ، وما جبلوا عليه من العفو والتسامح عندما كان الأمر لهم والزمام فى أيديهم . ولم يكونوا كغيرهم لا يعرفون للتسامح طريقا ، وهم عندما أصبح الأمر بيدهم لم يعرفوا غير التجبر والانتقام والقتل . فشتان بين هؤلاء وأولئك وموضع الشاهد – كما يقال – هو أنه أسند الفعل [سال] إلى الأبطح وإسناد الفعل [سال إلى الأباطح] جاء فى الأبيات المشهورة :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ على حدبِ الْمَهَارِى رِحَالُنَا وَلَمْ يَعْرِفِ الْغَادِى الذى هُوَ رائِحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسالت بأعناقِ الْمَطِىِّ الْأَبَاطِحُ

وقد أرجع عبد القاهر المزية هنا إلى أن الشاعر جعل سال فعلا للأباطح ثم عداه بالباء ومن هذا النوع أيضا قول المتنبى :

والهمُّ يخترم الجسيمَ نحافَةً ويُشيبُ ناصيةَ الصَّبِىِّ ويُهْرِمُ

والمتنبى هنا يبين ما تصنع الهموم فى الناس ، إنها تقضى عليهم ، وتحيلهم عن أحوالهم ، فهى تضعف الجسم ، وتجعله نحيفا ، وتجعل الشيب يصيب ناصية الصغير وتصيبه بالشيخوخة . . .

نعم ما أعظم ما تفعل الهموم بالجسوم والنفوس ، وليس ما يحدث من آثار الهموم بخافٍ على الناس . والمجاز فى البيت جاء من خلال إسناد الفعل [تخترم]

إلى الهمّ . والعلاقة هي السببية . لأن ما يحدث إنما يكون بسبب الهمّ . ندعو الله أن يدفعه عنّا ، وينجينا من أثره فى الجسم والنفس على السواء .

ومن المجاز فى الإسناد أيضا قول الشاعر :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأنباء من لم تزود

ومنه أيضا هذه الأبيات التى يحدثنا فيها صاحبها عن عاطفة الأبوة ، وما يتحمل الآباء من أجل أبنائهم . وما يحسونه من عاطفة نحوهم .

أنزلنى الدهرُ على حكمِهِ مِنْ شامخ عالٍ إلى خفضِ
وغالنى الدهرُ بوفرِ الغنى فليسَ لى مالٌ سوى عرضى
لولا بُنَيّاتٌ كزغبِ القطا رُدِدْنَ مِنْ بعضٍ إلى بعضِ
لكان لى مضطربٌ واسعٌ فى الأرضِ ذات الطولِ والعَرضِ
وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرضِ
لو هَبّت الريحُ على بَعْضِهِم لامْتَنَعَتْ عينى عن الغَمْضِ

فالرجل يشكو ما أصابه من الفقر والفاقة ، وما أجبرته الأيام عليه من الإقامة فى مكان لا يجد فيه حاجته ومبتغاه ، إننا نحس بآلامه وزفرات نفسه ، وعجزه عن الحركة بسبب تلك القيود التى تكبل يديه ورجليه . لقد أنزله الدهر من المكانة الرفيعة التى يستحقها ، وهوى به فى قرار سحيق . ولم يبق له من المال شيئا سوى عرضه الذى يتحتم عليه أن يدافع عنه ، وقد سلب منه ونزع أمضى أسلحة الدفاع وكان يمكنه أن أن يجفو المكان الذى جفاه . لكنه منع ذلك بسبب بناته الضعاف اللائى يحتجن إلى الراحة والحماية وتوفير سبل الحياة ، وقد يطول بنا الحديث إذا رحنا نستقصى الزفرات النفسية ، ونتحسس الآلام والأوجاع عند هذا الشاعر ، وقد نضع يدنا على شيء منها ، وقد تقصر بنا الوسائل والغايات ،

ولذلك حسبنا أن نبين أنه سلك فى البيتين الأولين سبيل المجاز فى الإسناد . وذلك حين أسند إلى الدهر الإنزال فى البيت الأول [أنزلنى الدهر على حكمه .

وأسند إليه أيضا الاغتيال فى قوله : [وغالنى الدهر] .

المجاز يحتاج إلى تهيئة وإعداد :

أشرنا فى غير هذا الموضع إلى أن المجاز انحراف بالأسلوب عن الأصل لتحقيق غايات فنية وتوسيع العبارة حتى تكون قادرة على حمل المشاعر والأحاسيس ونقلها إلى المتلقى ، ولتستوعب من المعانى ما لا تستوعبه بأصل وضعها . لكن هذا التحول بالأسلوب والانحراف به لابد فيه مما يشير إلى هذا النقل والتحول حتى لا يؤدى إلى اللبس والغموض والتعقيد ، وتضيع الغاية الأساسية من الكلام وهى الفهم والإفهام ، وقد تنبّه لذلك عبد القاهر الجرجانى حين قال : « واعلم أن من سبب اللطف فى ذلك أنه ليس كل شىء يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز الحكمى بسهولة ، بل تجدك فى كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهىء الشىء وتصلحه لذلك بشىء تتوخاه فى النظم . وإن أردت مثلا على ذلك فانظر إلى قوله :

تناسَ طلابَ العامرية إذ نأت ... بأسجع مرقال الضحى قلق الضفر
إذا ما أحسسته الأفاعى تحيزت ... شواة الأفاعى من مثلمة سمر
تجوبُ له الظلماءَ عينٌ كأنها ... زجاجةُ شَرْبٍ غيرُ ملأى ولا صِفْرِ

فالشاعر يصف جملا ، ويبين أنه يهتدى بنور عينيه فى الظلمة ، ولولاها لكانت تلك الظلمة سدا وحاجزا تحول بينه وبين سبيله : « فأنت الآن تعلم أن لولا أنه قال : تجوب له : فعلّق [له] بتجوب لما صلحت العين لأن يسند إليها « تجوب » ولكان لا تتبين جهة التجوز فى جعل [تجوب] فعلا للعين كما ينبغى ،

ولذلك تعلم أنه لو قال مثلا : تجوب له الظلماء عينه : لم يكن له هذا الموقع ، ولاضطرب عليه معناه ، وانقطع السلك من حيث كان يعييه حينئذ أن يصف العين بما وصف به الآن »[1] . وعبد القاهر يرى ضرورة تهيئة النظم وإعداده فى كل مجاز ، لا فى هذا المجاز الحكمي وحده . ونضيف على هذا أن المجاز له مقتضيات لابد من ملاحظتها حتى تكون الصورة المجازية مقبولة ، وتؤدى الغاية المرجوة منها فى التعبير ، وإلا فإنها تتحول إلى نوع من القبح ، وتصبح عبئا على المعنى وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى غير هذا الموضع فلا حاجة لإعادة القول فيه[2] كما أن عبد القاهر قد نبه إلى مسألة أخرى فى هذا النوع من المجاز ، فليس من الضرورى أن يكون للفعل الذى أسند إلى غير فاعله . فاعلٌ حيقيقى إذا أرجعنا العبارة إليه عدنا به إلى الحقيقة . فقد يتحقق ذلك فى بعض الصور فى مثل قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » إذ يمكن القول فما ربحوا فى تجارتهم . وقول الشاعر :

يحمى إذا اخترِطَ السيوف نساءنا ضربٌ تطير له السواعد أرعـد

إذ يمكن القول فيه « نحمي نساءنا بضرب » .

لكنه لا يمكن أن يتحقق فى صور أخرى دون أن يفسد الغرض ، ويخرج الكلام عن المعنى الذى بناه صاحبه عليه . فنحن مثلا لا نستطيع فى قولنا : « أقدمني بلدك حقّ لى على إنسان » أن نجعل فاعلا غير « حقّ » .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١١٣ .

(٢) انظر مقال لصاحب البحث بعنوان : « مسوغات القبول فى صور المجاز » حولية كلية الإنسانيات جامعة قطر العدد ١٢/١٩٨٩ .

كذلك لا نستطيع فى قول الشاعر :

وصيرنى هواك وبى ... لحينى يضرب المثل

وقوله أبى نواس :

يزيدك وجهه حسنا ... إذا ما زدته نظرا

« أن نزعم « لصيرنى فاعلا قد نقل عنه الفعل وجعل للهوى . كما فعل ذلك فى « ربحت تجارتهم ، ويحمى نساءنا ضرب . ولا تستطيع أن تقدر [ليزيد] فى قوله يزيدك وجهه فاعلا غير الوجه[1] » .

خامسًا : القول فى المسند إليه :

بعد الحديث عن الخبر وسبب إلقائه ، ومقتضياته وما يجب لكل منها فى بناء العبارة والإسناد وما يكون عليه . يأتى القول على أطراف الإسناد ومتمماته وذلك يتناول الحديث عن المسند إليه والمسند . وما يطلق عليه متعلقات الفعل .

ومن المعروف أن المسند إليه والمسند يعتريهما حالات ، أو يأتى كل منهما على صورة من الصور التي يجوزها علم النحو ، ويقتضيها موقف الخطاب . وقد يرجع الحسن أو القبح فى صورة من صور الكلام إلى إصابة الوجه ، ومراعاة المقتضى .

وقد درس البلاغيون حالات المسند إليه والمسند . وقالوا إنها الحذف والذكر والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير وغير ذلك من الأمور التى تكشف عنها الدراسة التفصيلية لهذين الركنين .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٩١ .

لكنا نشير هنا إلى بعض الأمور التى نفضل سلوكها فى دراستنا لهما .

وأول هذه الأمور أن بعض الأسباب التى ذكرها البلاغيون لحذف المسند إليه هى نفسها الأسباب أو أكثرها التى ذكرت لحذف المسند ، وأن الأسباب التى اقتضاها الذكر هنا هى نفسها أو بعض منها الأسباب الذى اقتضاها الذكر هناك ، ومن ثم يكون التكرار تزيدا فى القول لا مبرر له ولا مقتضى .

ثانيا : أن بعض القضايا لا يتوقف الأمر فيها عند ورودها فى المسند والمسند إليه ، بل تتعداهما إلى غيرهما من الأمور ، وقد يكون من المناسب الحديث عنها عند ذكر الحالة التى تشبهها فى هذا الموضع . وعلى سبيل المثال ، الحذف فى العربية لا يقتصر أمره عند حذف المسند إليه أو المسند ، فقد يكون فى الحرف ، وقد يكون فى بعض الجملة [المسند إليه ، أو المسند] وقد يكون فى حذف التكملة كالمفعول به مثلا . وقد يكون فى حذف الجملة . وما دمنا نتحدث فى بلاغة التراكيب فلنقرن الشبيه إلى الشبيه .

لكن يجدر بنا أن نقرر أن الأمور التى أشرنا إليها لم تكن مهملة عند القدماء ، أو أنهم لم يدرسوها وأننا ننشىء فيها أمرا لم يكن ، ونحدث جديدا غاب عن القوم ، فالأمر على خلاف ذلك ، لكن تناولهم لها جاء فى أماكن متفرقة ، ومواضع مختلفة ، وليست محاولتنا إلا جمعا لهذا المتفرق ، ووضعه بين يدى الدارس لتسهل الإفادة منه .

أولا : الحذف :

حين أراد عبد القاهر الجرجانى الحديث فى الحذف لم يقصره على حذف المسند إليه والمسند ، بل توسع فى ذلك ، وتحدث عن حذف المفعول به . وقدم عبد

القاهر للقول فى الحذف بما يفيد قيمته فى اللغة ، وأهميته فى إحكام العبارة فقال : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِن »[1] ثم يسوق عددا من الأمثلة يبين من خلالها صدق ما ذهب إليه من قيمة الحذف وأهميته وهو – كما سبق – لا يتوقف عند حذف المسند إليه أو المسند ، بل يتحدث عن الحذف بصفة عامة وهو على سبيل المثال يسوق ما جاء به سيبويه :

اعتادَ قلبُكَ من ليلى عَوائِدَهُ   وهاجَ أهواءَكَ المكنونَةَ الطَّلَلُ
ربْعٌ قَواءٌ أذاعَ المعصراتُ بـه   وكلُّ حيرانَ سارٍ ماؤه خَضِـلُ

فالمحذوف هنا هو المبتدأ « المسند إليه » والتقدير هو ربْعٌ .

والشاعر يتحدث عن الهموم التى تعاود قلبه حين يهيج ذكرى ليلى إليه ذلك الطلل الذى لم تبق منه العاديات شيئا – وأصبح خاليا قواء . ويشير عبد القاهر إلى مثل هذا النوع من الحذف . وكأنه عادة متبعة عندهم حين يذكرون الديار . كما يشير إلى فائدة لغوية أفادها من شيخه . وهى أن كلمة [ربع] لا تعرب بدلا من الطلل ، لأن الربع أكثر من الطلل ، والشىء يبدل مما هو مثيله أو أكثر منه ، فأما الشىء من أقل منه ففاسد لا يتصور » وكما يحذفون المبتدأ أو يضمرونه ، فقد يضمرون الفعل فينصبون – كبيت الكتاب :

ديـارَ ميةَ إذ مَـيٌّ تُسَاعِفُنَـا   ولا يُرَى مِثلها عـربٌ ولا عَجَمُ

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٨٨-٢٨٩ .

فالذى نصب كلمه « ديار » هو فعل مضمر كأنه قال : « اذكر ديار مية »[1] .

وقبل أن نذكر المواضع التى يحذف فيها المسند إليه والمسند ، وما يكون لهذا الحذف من تأثير فى بناء الجمل والعبارات نشير إلى حذف الحرف .

لم يقتصر الحذف فى العربية على حذف الكلمة ففى العربية نجد الحرف محذوفا فمن الأمور التى نصادفها ما يقوله النحاة فى بعض الكلمات إذ يقولون إن الاسم منصوب على نزع الخافض أو ما نجده فى النداء حين يحذف حرف النداء ، أو الترخيم . وهو كما نعلم حذف الحرف الأخير من الكلمة فى النداء أيضاً . ولا شك أن لهذا الحذف غايات يحددها السياق ، ويقتضيها المقام .

ففى قوله تعالى : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ نجد فى حذف حرف النداء من تقريب يوسف إلى العزيز ، وإشعاره بالمنزلة التى يحتلها فى نفسه إذ كان عنده بمنزلة الولد ، وحين جاء به من السيارة ، وذهب به إلى امرأته قال لها : ﴿ أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ وها قد أصبح العزيز فى موقف يحتاج فيه إلى نفع يوسف ومساعدته ، ففى حديثه عن الواقعة وتمسكه بها ما يثلم عرض الرجل ،

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٧٠ .

(١) الخصائص جـ٢/٣٦٠-٣٦١ .

ويقضى على مكانته ، إنه يذكر يوسف بالرعاية والحب اللذين لم يغفل يوسف عنهما ، بل كانا من الدوافع التى حالت بينه وبين الاستجابة لنزوات المرأة لقد أجابها بقوله : ﴿ معاذ الله . إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

إن فى حذف حرف النداء هنا إزالة أى حاجز بينه وبين العزيز ، بل فى الحذف إظهار للتلاحم بينهما ، وأن ما يصيب العزيز سوف يمتد إلى يوسف وثمة بلاغة أخرى فى العبارة وهو التعبير عن الواقعة بالإبهام حيث يعبر عنه باسم الإشارة « هذا » وهو غير معرف إلا لهما . وقد يكون الحذف مراعاة لجمال العبارة ، ومحافظة على النسق . على نحو ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ﴾ فقد حذف حرف العلة من آخر الفعل المضارع لغير جازم . ومثله قوله تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ فقد حذفت ياء الاسم المنقوص ، والاسم بالألف واللام . وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى أن ذلك الحذف كان لمراعاة التناسب بين أواخر الآيات . والتناسب قيمة جمالية يتجاوز عن بعض الأمور فى سبيل تحقيقها[1] .

ومما جاء فى حذف الحرف وأشار القدماء إلى علته قوله تعالى : ﴿ ونادوا يا مالِ ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ والقراءة بالترخيم فى مالك . وقد حدثنا جار الله الزمخشرى حديثا واعيا علل به لهذه القراءة . فقال كأنهم لشدة ما هم فيه من العذاب عجزوا عن تمام الكلمة « وتلك لمحة واعية من جار الله ، يحسها من جهد فى القيام بعمل ، أو كان فى نزال شديد إنه لا يستطيع إكمال اللفظ لما هو عليه من التعب والإجهاد . ولعل هذا ما اهتدى إليه صاحب

---

(١) راجع فى هذا « الفصاحة : مفهومها : قيمها الجمالية . حولية كلية الآداب الكويت ، الحولية السادسة رسالة ٢٧ .

القصيدة المنسوبة لبشر بن عوانة فى صراعه مع الأسد . فقد قيل إن بشرا كان يحب ابنة عمه فاطمة ، وأنه رغـب الزواج منها ، لكن أباها أراد أن يوقعه فى التهلكة فطلب مهرا لابنته مائة ناقة من نوق النعمان . وكان يتحتم على بشر أن يعبر المفاوز ، ويقابله أسدٌ يقضى عليه ، ويريح عمه من هذا الطلب . لكن بشرا يلقى الأسد وينازله فى معركة قوية يقضى عليه فيها . وحتى تظهر شجاعة بشر وقوته لابد أن يكون الأسد قويا ضخما مدفوعا إلى افتراس من يقابله . وحين تنجلى الموقعة عن قتل الأسد ، يكتب بشر بدمه قصيدة يرسلها إلى ابنة عمه . وهى قصيدة فريدة فى بابها ، يظهر فيها توظيف اللغة توظيفا جميلا ، وجاءت متماسكة تماسكا قويا ، وأبرز الشاعر من خلالها شجاعته . وقد قمنا بدراسة هذه القصيدة فى موضع آخر[1] . لكن يهمنا منها ما جاء عليه المطلع إذ يقول :

أفاطـمُ لَوْ شِـهَدتِ ببطنِ خَبْتٍ ... وقد لاقى الهزبرُ أخـاكِ بِشْرَا

إذا لرأيت ليثـا أمّ ليثـا ... هزبرًا أغلبـا لاقـى هِزَبْـرا

لقد حذف الحرف الأخير من فاطمة ، وهذا يدل على شدة تعبه ومعاناته فى تلك المعركة الضارية التى خاضها .

لكن الحذف يختلف فى موقف آخر ، ويدل على شيء غير الذى أراد بشر ابن عوانة أن يدل عليه ، وذلك فى قول امرىء القيس :

أفاطمُ مهلًا بعد هَذَا التدلل وإن ... كنت قد أزْمَعْتِ صَرْمى فأجْمِلى

إن التدليل ، وإظهار الملاحة قد تكون أقرب إلى هذا الموضع من أى شيء آخر يفسر حذف الحرف الأخير .

---

(١) نصوص أدبية : دراسة تحليلية .

ومثل هذا الحذف ، أو بعبارة أخرى الحذف الذى يجتمع فى حذف حرف النداء ، وحذف الحرف الأخير للترخيم ما نجده فى قول الحارث الجرمى يجيب امرأته أميمة التى تطالبه بالثأر لأخيه من قومه الذين قتلوه . ويحس الحارث بأزمة شديدة . لأن القتيل أخوه ، والقاتل قومه . والمصاب يصيبه على أى نحو. إنه حين يثأر منهم يعمق جرحه ويزيد مصيبته ، ويضيف إلى الألم الماضي ألما آخر . يقول :

قومِى هُمُ قتلوا أُمَيْمَ أخِى ... فإذا رميتُ يُصيبنى سَهْمِى
فإذا عفوتُ لَأَعْفُوَنْ جَلَلًا ... ولئن رميت لَأُوهِنَنْ عَظْمِى

وهذان البيتان يذكران بقول الآخر :

أقول للنفس تأساءً وتعزيةً ... إحدى يدىّ أصابتنى ولم تُرِدِ
كلاهما عوضٌ عَنْ فقدِ صَاحِبِهِ ... هذا أخى حين أدعوه وذَا وَلَدِى

وكان أخوه قد قتل ابنه – ووجد نفسه فى حيرة ماذا يفعل . على أية حال فى قول الحارث نجده يحذف حرف النداء ، ويحذف الحرف الأخير . وحذف حرف النداء يدل على قربها من نفسه . وحذف الحرف الأخير يكشف عن معاناته وألمه حتى كأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يكمل الكلمة .

حذف المسند إليه والمسند :

وهذا الحذف يشمل أحد جزأى الجملة . والأسباب التى يذكرونها فى حذف المسند إليه يذكرون قريبا منها فى حذف المسند . ولعل من أهم الأمور فى هذا الحذف ما يخلعه على الجملة من حبكة حيث يبعدها عن الطول ، ويخرجها عن ذكر الشيء ما دام عدم ذكره لا يحدث لبسًا .

إن البلاغيين يجعلون ذكر المسند إليه والمسند هو الأصل ، ولا يترك الأصل إلى غيره دون وجود ما يقتضي ذلك . وهم قد حددوا المقتضيات التي يحذف من أجلها المسند إليه أو المسند . ثم إن الحذف في بعض المواضع يكون أفضل من الذكر ، ويظهر ذلك من خلال المقارنة وأول ما نجد في مبررات الحذف أنه لمجرد الاختصار ، وكأنهم بذلك يجعلون حذف الزوائد والنوافل من الجملة من الأمور التي لها دخل في قوة العبارة وشدة تماسكها وما دام في الكلام من القرائن ، أو المعنى يدل على المحذوف فذكره يعدُّ نوعًا من التزيد لا فائدة منه . فمثلا عندما نقول : أهلا وسهلا . بمجيء الأهل والسهل منصوبة يدل على أن شيئا مّا عمل فيها النصب .

وفي حذف المسند إليه نجد ما اعتاد عليه العرب من حذفه حين يتحدثون عن الديار والأطلال . وذلك على نحو قول الشاعر :

اعتاد لِبُّكَ من ليلى عَوَائِدَهُ   وهاجَ أهواءَهُ المكنونةَ الطَّلَلُ
ربعٌ قواءٌ أذاعَ المعصراتُ به   وكلُّ حيرانَ سارٍ ماؤُهُ خضِلُ

وقول الآخر :

هل تعرِفُ اليومَ رسمَ الدارِ والطللا   كما عرفت بِجَفْنِ الصيقلِ الخِلَلا
دارٌ لمية إذْ أهْلِي وأهْلُهُمُ   بالكانسية نرعى اللهوَ والغزلا

ومن المواضع التي يضمرون فيها المسند إليه أي يحذفون فيها المبتدأ « القطع والاستئناف » وهذه الحالة أنهم يأخذون في الحديث عن الشخص ، ويتحدثون في بعض الأمور التي تخصه ، ثم يتركون هذا الكلام ، ويأخذون في كلام آخر . وذلك على نحو ما نجد في قولهم :

وعلمت أنى يوم ذا لكَ منازلٌ كَعْبًا ونهدا
قومٌ إذا لبسوا الحديـ ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وقدًّا

فالشاعر يتحدث عن منازلته لهؤلاء الناس ، لكنه يترك هذا الكلام ويأخذ فى وصفهم بالشجاعة حين يلبسون عدد الحرب . وقد حذف المسند إليه فى البيت الثانى . وتقدير الكلام « هم قوم » لكن لا يخفى ضعف التعبير عند إظهار المسند إليه .

ومثل ذلك قول الآخر :

هُمْ حَلُّوا من الشـرف المعلى ومن حسبِ الْعَشِيرَةِ حيث شاءُوا
بنـاةُ مكارمٍ وأسـاةُ كَلْمٍ دِمَاؤُهُمُ من الكلْـب الشفـاءُ

والشاعر فى البيتين يمدح جماعة من الناس ، ويزعم أنهم وصلوا فى الشرف إلى المكانة العالية كما بلغوا فى الحسب إلى حيث أرادوا ، لقد أقاموا المجد وشفوا من الجراح ، ودماؤهم يتداوى بها من الْكَلِب . حسب معتقدات العرب — وموضع الشاهدة فى البيتين أنه حين تحدثَ عنهم فى البيت الأول ، وأطلق عليهم بعض الصفات ، قطع هذا القول ، واستأنف قولا آخر ، ولهذا حذف المسند إليه . وتقدير الكلام « هم بناة مكارم ، وأساة كلم الخ لكن ليس يخفى الفرق بين الكلامين .

ومثل هذا أيضا قول أسيد بن عنقاء الفزارى يمدح رجلا من قومه هو عميلة :

رآنى على ما بى عميلةُ ، فاشتكى إلى ما لِهِ حالى ... أسَرَّ كما جَهَر
غلامٌ رماهُ الله بالخير مُقْبِلًا له سيمياءُ لا تَشُقُّ على البصر

والبيتان يقدمان فى سياق جديد صورة من صور الكرم التى تكثر فى الشعر العربى ، لكن الشاعر يجعل ممدوحه يشكو إلى ماله ما رآه من حال الشاعر ، وهذا الممدوح يستوى سره وجهره. وبعد البيت الأول تأتى عدة أبيات أخرى يتحدث فيها عما قام به عميلة نحوه فى وقت يعز فيه المساعد والمعين ، ولا يجد فيه المحتاج من يقف إلى جواره . وكان على أن أشكره على هذا الصنيع الذى كفاه حمد الحامد، وذمّ الذام . وبعد هذا الحديث يأتى بالبيت الثانى الذى حذف فيه المسند إليه .

ومن الشواهد على هذا النوع من الحذف ما يسوقه عبد القاهر من قول الشاعر :

سأشكرُ عمرا إن تراخت منيتى ... أيَادِيَ لم تُمنَنْ وإن هى جَلَّتِ
فتى غير محجوبِ الغنى عن صديقهِ ... ولا مظهِر الشكوى إذا النعلُ زَلّتِ
رأى خِلّتِي من حيث يخفى مكانُها ... فكانت قَذَى عينيه حتى تُجَلّتِ

والشاعر الذى قال هذه الأبيات محل خلاف ، فهى تنسب لأكثر من شاعر ، فهناك من ينسبها إلى إبراهيم بن العباس الصولى الكاتب الشاعر المغنى المتوفى ٢٣٠ هـ ، ومن ينسبها إلى محمد بن سعيد وفى حماسة أبى تمام تنسب إلى عمرو بن كميل ، كما أنها تنسب إلى غير هؤلاء .

وصاحبها يذكر أنه يظل شاكرا تلك الأيادى الكثيرة التى كانت لعمرو عليه ، وسوف يظل عمره يذكر هذه النعم الجليلة التى سبغها عليه . لقد كان رجلا عظيما ثاقب الفكر ، عميق النظر ، رأى حاجته وفقره التى جهد لإخفائها عن الأعين . فأصبحت قذى فى عينيه حتى أزالها . إن عمرا يتصف بصفتين عظيمتين : الأولى أن ما له متاح لأصدقائه ، وطالبى رفده ، والثانية أنه لا يشكو

أو يتبرم إذا ما تغيرت حاله . وهذا دليل على الكرم والحزم وقوة النفس . وموضع الاستشهاد بهذه الأبيات أنه حذف المسند إليه ، لأنه تحدث عن الممدوح أولا ، ثم قطع هذا الحديث واستأنف . وتقدير الكلام « هو فتى » لكن ليس يخفى قوة العبارة مع الحذف .

وكما ورد ذلك فى المدح ورد فى الغزل . فهذا جميل يتحدث عن بثينة ، ويتساءل عما إذا كانت قاضية دينة ، أو فاعلة خيرا به ، فيجزيها عن هذه الأعمال ، أم أنها ستظل على ما هى عليه من التمنع والدلال .. لقد فتكت به بألحاظها ، تلك التى تحولت إلى سهام فأصابت قلبه لكنه يقطع هذا الكلام . ويستأنف غيره على نحو ما نجد فى قوله :

وهل بثينةُ يا للناسِ قاضيتى دينى وفاعلةٌ خيرا فَأَجْزِيهـا
ترنو بعينى مهاةٍ أقصدت بهمـا قلبى عشية ترمينى وأرميهـا
هيفاءُ مقبلةٌ ، عجزاءُ مدبرةٌ ريا العظام بلين العيش غاذيها

وتجدر الإشارة إلى موقع الاستفهام فى الأبيات ، وحسن التقسيم فيها :

ومثل هذا الحذف أيضا فى حسنه وإصابته لموقعه قول جميل أيضا:

إنى عشيةَ رحتُ وهى حزينةٌ تشكو إلى صبابةً لصبـورُ
وتقول: بت عندى - فديتك - ليلة أشكو إليك ، فإن ذاك يسيرُ
غراء مبسـامٌ كأن حديثهـا درٌّ تحدَّر نظمـه منثـورُ
محطوطَـةُ المتنين مضمـرةُ الحشـا ريَّا الروادف خلقهـا ممكـورُ

وإذا صرفنا النظر عن هذا الجمال الحِسّى الذى يخلعه على بثينة ، وهو الجمال الذى لفت الشاعر القديم واسترعى انتباهه . وجدنا الأبيات تشتمل على بعض نواحى الجمال فى التعبير منها تلك الضراعة التى نحسها فى البيت الثانى ،

والتى تطلب منه من خلالها أن يبقى معها ليلة تشكو له . ولعل هذا ما تكشف عنه الجملة الاعتراضية [فديتك] ومنها ذلك التشبيه لحديثها بالدر المنثور . وبعد هذا حذف المسند إليه فى البيت الثالث .

ومن الأمور التى يحذف بسببها المسند إليه ، ظهوره بدلائل القرائن عليه ، وحينئذ يكون ذكره عبئا على العبارة وذلك كقوله تعالى حكاية عن زوج سيدنا إبراهيم حين سمعت الملائكة يبشرونه بغلام ، وقيل ساعتها أحست المرأة — على الرغم من كبرها — بما تحس المرأة فى الفترة التى يمكن فيها الحمل يقول الله تعالى : ﴿ فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾[1] لقد علت المرأة الدهشة ، وملكت عليها تفكيرها ، وذلك لا يظهر ما لم نتصور تلك الحركة المصاحبة للقول: ﴿ فصكت وجهها ﴾ . وقالت عجوز عقيم ، لقد حذفت المسند إليه لأن قرينة الكلام تكشف عن ذلك ، كما أن حذفه يساعد فى إظهار الدهشة والاستغراب ومن مواضع حذف المسند إليه ضيق المقام . وذلك على نحو ما نجد فى قول الشاعر :

قال لى : كيف أنت ؟ قلت : عليلٌ   سهرٌ دائم وحزن طويلُ

فحال المريض الذى يعانى آلام العلة ، ويؤلمه الكلام لا ينتظر منه أن يطيل فيه ، وكثير منا يذهب لعيادة مريض ويسأله عن حاله فيقول : « بخير » إن الموقف يستدعى الاختصار وعدم الإطالة .

ومن مواضع الحذف فى المسند إليه ... الخوف من فوات الفرصة ، كقولك لآخر « ثعبان / أو قول من رأى طيارًا مقبلاً « طيار » فذكر المسند إليه ربما أدى إلى أن يتمكن الثعبان ممن تحدثه ، أو لم يلحق بهذا الطيار المقبل عليه .

---

(١) الذاريات : ٢٩ .

ومنها تشريفه عن الذكر ، وإخفاء اسمه حتى لا يشيع بين الناس كقولك فى الأول مرّ فى المدينة تريد الأمير ، أو تقول كما قال عروة بن أذنية[1] :

بيضاءُ باكرها النعيمُ فصاغَهَـا ... بلباقةٍ فأدَقَّهَـا وأَجَلَّهَـا

ومن مواضع الحذف تشريف اللسان عن ذكره . وذلك كقول الأقيشر فى ابن عم له موسر كان يعطيه المال فينفقه على نزواته ، وذات يوم طلب منه مالا فلم يعطه ، فذهب الأقيشر إلى نادى قومه وشكى ابن عمه . فلطمه ابن عمه : فقال الأقيشر :

سريعٌ إلى ابنِ العمِّ يَلْطِمُ خَدَّهُ ... وليس إلى داعى الندى بسريع

حريصٌ على الدنيا مضيعٌ لدينه ... وليس لما فى بيتـه بمضيـع

ومن الأسباب التى تدعو إلى حذف المسند إليه . تعينه وعدم احتمال غيره ، إما بحسب الواقع . كقولك الخالق — الرازق — فليس يخفى على أحد أن المراد هو الله سبحانه وتعالى .. وإما أن يكون تعينه بحسب الادعاء والمبالغة . كقولك : « وهاب الألوف » أو « الشاعر المفلق » . وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[2] .

وقد يحذف المسند إليه لغرض فنى . كالمحافظة على التناسب فى السجع ، أو الموسيقى فى الشعر وذلك كقولك : « من طابت سيرته حمدت سريرته » أى حمد الناس سريرته .

ومما جاء الحذف فيه للمحافظة على الوزن فى الشعر قول الشاعر :

---

(١) قمت بتحليل هذه القصيدة واتخذنا منها وسيلة للتطبيق على بلاغة الحذف .

(٢) الرعد : ٩ .

وما المالُ والأهلـون إلا ودائعٌ ولا بد يوما أن تُرَدَّ الودائـعُ

فلو أظهر الشاعر المسند إليه ، وقال ولابد يوما أن يرد الناس الودائع لاختلت موسيقى البيت .

ومن المواضع التى ذكرت لحذف المسند إليه تأتى الإنكار عند الحاجة ، كقولنا مثلا عن شخص مّا .. « هماز مشاء بنميم » أو قولنا مثلا : « :ظالم جبار » إذ يمكن لقائل هذا أو ذاك أن يتراجع عنه ، أو يزعم أن المقصود به شخص آخر .

ومن مواضع الحذف فى المسند إليه ، ما يؤدى إليه الحذف من زيادة الاحتمالات والتقدير ، وفى هذا ما فيه من تأثير على المعنى . وذلك على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾[1] إذ يمكن القول : أمرى صبر جميل ويمكن القول : « صبر جميل أجدر لى وأجمل » .

وحين يكون المسند فعلا ويحذف المسند إليه تكون هناك اعتبارت كثيرة أيضا ، يحددها السياق ، ويكشف عن الغاية من الحذف فيها .

ولا يقتصر الأمر عند حذف الفاعل وإقامة نائبه مقامه ، بل إن البلاغيين ارتضوا أن يحذف الفاعل وفعله مبنىٌّ للمعلوم . وذلك كقوله تعالى : ﴿ إنى أحببت حبَّ الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ﴾[2] والتقدير والله أعلم حتى توارت الشمس . وربما كان فى الحذف إيماء إلى توارى الشمس حتى تحدث الملاءمة بينهما .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعائكم الذين

---

(١) يوسف : ١٨ . (٢) ص : ٣٢ .

زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[1] .

والآية الكريمة تأتى فى سياق يتحدث عن أشد أنواع الظلم الذى يقع من الكافرين الجاحدين الذين يفترون على الله الكذب تارة بالزعم أنه تعالى لم ينزل على بشر كتابا ، كما أنه بطبيعة الحال لم يرسل رسولا . وهذا ينسحب على محمد ﷺ ، والله سبحانه يرد على هؤلاء أنهم بزعمهم هذا لم يقدروا ربهم حق قدره . وإذا كان قولهم صحيحا ، فمن أنزل الكتاب على موسى هدى ونورا . وقد أنزل عليك يا محمد هذا الكتاب العظيم المبارك ، لتنذر أم القرى ومن حولها ، وسوف يؤمن به الذين يؤمنون بالآخرة . أما الذين يكفرون به فسوف ينضمون إلى الفئات الظالمة الأخرى كأولئك الذين افتروا الكذب على الله ، والذين زعموا كذبا وبهتانا أن الله أوحى إليهم ، والذين تطاولوا على مقام الربوبية ، وادعوا أن لهم قدرة مثل قدرته ، ومشيئة مثل مشيئته . وقالوا سوف ننزل مثل ما أنزل الله .

ثم تبين الآية مصير الظالمين جميعًا حين يأتى أجلهم . وتغشاهم غمرات الموت ، والملائكة يبسطون أيديهم ، لكنهم لا يقبضون هذه الأرواح التى تختلط بأجسام ملوثة حقيرة تطاولت على مقام ربها وعصت رسله . بل يقول الملائكة لهؤلاء الظالمين : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ فلا يملك الظالمون إلا الإذعان والاستجابة ، وهنا يبشرون بالعذاب الذين يستحقون وهو عذاب الهون . وبعد هذا السياق تأتى الآية التى تتضمن الشاهد . وهى تتحدث فى مجال تعذيب هؤلاء ، وتبين ما هم عليه من الضعة والهوان .. فهم يشخصون فى العذاب فرادى مجردين من المال الذى ظنوا فيه وقاية لهم ، مجردين من الأنصار والأتباع الذين زينوا لهم الكفر ، وأغروهم على الطغيان ، مجردين من الأهل والولد الذين ظنوا

---

(١) الأنعام : ٩٤ .

أنهم يحفظونهم من مصيرهم الأليم.. لقد أصبحتم وحدكم، وليس معكم الشفعاء الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . « لقد تقطع بينكم » أى لقد تقطعت بينكم الأسباب والروابط ، وتقطع الأمر الذى كنتم تظنونه يجمعكم .. لقد كنتم لضعف إدراكم وطغيانكم ، وما ضرب على بصركم من الغشاوة تظنون تلك الروابط متينة ، والأسباب قوية .. وما هى تتقطع وتتمزق .. وفى الحذف ما فيه من إيماء إلى ضعف هذه الروابط، وما هى عليه من الوهن. حتى كأنها تقطعت وحدها.

ومما جاء فى القرآن الكريم من حذف الفاعل مع بناء الفعل للمعلوم قوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقى ﴾[1] أى الروح . وقوله تعالى فى شأن يوسف عليه السلام: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾[2] أى ثم بدا لهم رأى أو أمر .. وحذف الفاعل إشارة إلى أن هذا الأمر تافه لا يعتد به إلى جوار البراهين الساطعة على براءة يوسف عليه السلام وطهارة ذيله من تلك التهمة الظالمة ، التى دبجتها مخيلة امرأة مريضة سيطرت الشهوة على عقلها ، وملكت حواسها ، فطاش تفكيرها ، وتمكن من نفسها الانتقام من الرسول الذى عفّت نفسه عن الولوغ فى عرض رجل أكرم مثواه. ومن هذا النوع من حذف الفاعل قول الشاعر :

أَمَاوِيَّ ما يغنى الثراءُ عن الفتى   إذا حَشْرَجَتْ يوما وضاق بها الصَّدرُ

والشاعر يصف لحظات شدة وضيق ، فيها يظهر الضعف ، وتتقطع الأنفاس ، ولا يستطيع المرء أن يكمل الكلمة .. ومما يساعد على تصوير الموقف وبيانه هذا الحذف الذى لا يلتبس به غيره فالمراد : « حشرجت الروح » . وفى البيت حذف آخر يساعد فى تصوير الموقف ، هو حذف الحرف الأخير من « ماوية » فى الترخيم وقد يكون الحذف مع بناء الفعل للمجهول . وقد ذكر

(١) القيامة : ٢٦ .   (٢) يوسف : ٣٥ .

النحاة أسبابا فى حذف الفاعل من بينها الخوف منه أو الخوف عليه أو غير ذلك من الأسباب التى تظهر من خلال الموقف الذى تتردد فيه .

وقد وردت أمثلة لهذا فى القرآن الكريم نحو قوله تعالى : ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾[1] ولعبد القاهر الجرجانى حديث ضافٍ فى روعة هذه الآية بسبب نظمها . يقول معلقا عليها : « فتجلى لك منها الإعجاز ، ويبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة » . ويمضى فى بيان جمال هذا النظم وروعته إلى أن يصل إلى بناء الأفعال لما لم يسمَّ فاعله . ويقول فى غيض : « إنه جاء على هذه الصيغة الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : ﴿ وقضى الأمر ﴾ ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمرو ، وهو استوت على الجودى » ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة ، على عظم الشأن ، ثم مقابلة « قيل » فى الخاتمة « بقيل » فى الفاتحة ، أفترى لشيء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبةٌ تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب »[2] .

ومثال حذف المسند إليه للجهل به . قول المرقش الأكبر :

إن تبتدر غايةٌ يوما لمكرمة ... تلق السوابقَ مِنّا والمُصَلّينَا

(١) هود : ٤٤ .

(٢) دلائل الإعجاز : ٨٩ — ٩٠ .

ومثال الحذف للخوف عليه قول النابغة الذبياني :

نبئتُ أن أبا قابوسَ أوعدني ولا قرارَ على زَأرٍ من الأَسَدِ

كما حذف المسند إليه لاحتقاره في قول النابغة أيضا :

لئن كنت قد بلغت عني خيانةً لمبلغك الواشي أغشُّ وأكذبُ

وليست أمثلة حذف المسند إليه محصورة فيما ذكرنا . فهناك أوجه أخرى وأسباب للحذف يمكن الوقوف عليها في مواضعها .

حذف المسند[1] :

وكما يحذف المسند إليه للأسباب التي ذكرنا ، يحذف المسند ، ولا يخرج حذف المسند عن الأغراض العامة التي ذكرت للحذف كالاختصار ، والاعتماد على القرائن .

وتخليص العبارة من التزيد الذي لا يضيف شيئا إلى المعنى .

وكما ذكرنا فيما يتعلق بالمسند إليه تكون ثمة مقتضيات للحذف يحددها السياق والموقف وما يصلح فيه الحذف في عبارة قد لا يصلح في عبارة أخرى . ولهذا نجد بلاغة العبارة يكون سببها حذف هذه الجزء أو ذاك ، وفي عبارة أخرى يكون مرد البلاغة إلى وجود هذا الجزء في الكلام .

وقد ذكر البلاغيون بعض الاعتبارات التي توفرت للعبارات نتيجة حذف المسند فمن الأمور التي ذكرها البلاغيون لحذف المسند ، ما يقتضيه المقام من

---

(١) آثرت أن أذكر حذف المسند مع الحذف بصفة عامة . وبخاصة أن الأسباب التي يذكرها البلاغيون لحذف المسند لا تخرج عن الأسباب التي يذكرونها لحذف المسند إليه .

التحسر والتوجع مع الضيق الذى لا تتناسب معه الإفاضة فى القول . وقد مثلوا لذلك بقول ضابىء البرجمى :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإنى وقيارٌ بها لغريبُ

وحتى نقف على الغرض من البيت ، ونعرف السياق الذى ورد فيه ، والغرض الذى يعبر عنه نسوق الأبيات الأخرى وهى قوله :

وما عاجلاتُ الطير تُدنى من الفتى ... نجاحًا ولا عَنْ رَيْثِهنَّ يَخيبُ
وربَّ أمورٍ لا تضيركَ ضيرة ... وللقلبِ من مخشاتهن وجيبُ
ولا خيرَ فيمن لا يُوَطِّنُ نَفْسَه ... على نائباتِ الدَّهْرِ حينَ تَنُوبُ
وفى الشك تفريطٌ وفى الحَزْمِ قُوَّةٌ ... ويخطىءُ فى الحَدْسِ الفتى ويصيب

والشاعر يتحدث عن الغربة وما ينتاب المرء فيها من أحاسيس ، وما يشعر من الضعف حتى ولو كان قويا .. لكن الشاعر لا يترك نفسه للمشاعر تمزقه ، ويحاول ضبط هذه المشاعر والسيطرة عليها .. فليست العجلة بالتى تهىء النجاح للفرد فى كل وقت ، كما أن التريث لا يخيب له المسعى . والمرء قد يخشى أمورا ويضطرب لها ، لكنه لا يجد لها أثرا ضارا عليه .. إن عليه أن تمتلىء نفسه باليقين ، ولا تستسلم للجزع والقلق والشك ، كما يجب عليه أن يوطن نفسه لنوازل الدهر ونوائبه .

أما محل الشاهد فى هذه الأبيات ففى قوله : « فإنى وقيار بها لغريب » وتقدير الكلام فإنى غريب بها . وقيار غريب بها أيضا . وليس يخفى ما فى العبارة من طول وترهل ، وبعد عن الإحكام الذى نجده فى البيت . وفى البيت لفتة فنية أخرى فى تقديم « قيار » على الخبر ليفيد أن الإحساس بالغربة لا يقتصر عليه ، وإنما يشمل جمله أيضا .. إن إحساسه بالغربة ، وما يشعر به من ضيق النفس

سوغت حذف الخبر هنا بالإضافة إلى الاختصار ، ووجود القرينة الدالة على هذا الحذف .

ومما جاء فيه الحذف على هذا النحو قوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ فالتقدير والله أعلم : « والله أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك . لكنه حذف من الثانى لدلالة الأول عليه ، كما أن تقديم المعطوف على الخبر أفاد التسوية » .

ومن مسوغات حذف المسند ما سبقت الإشارة إليه فى الحديث عن حذف المسند إليه وهو التعويل على شهادة العقل ، دون الاعتماد على اللغة . وفى هذا ما فيه من الإيماء إلى فطنة السامع والثقة بفهمه . وعلى مثل هذا النوع من حذف المسند جاء قول الأعشى :

إن مَحَلًّا ، وإن مُرْتَحَلًا   وإن فى السفر إذ مَضَوْا مَهَلَا

يريد إن لنا محلا فى الدنيا ، وإن لنا مرتحلا عنها فى الآخرة .

وقد يكون من هذا النوع حذف الفعل فى قول القائل :

علفتها تبنا وماءً باردا   حتى غدت هَمَّالَةً عيناها

إذ التقدير وسقيتها ماء .

ومثل هذا جوابك لمن سألك قائلا : هل لك أحد ؟ إن الناس إلب عليك ، فأجبته إن محمدا ... وإن عليا ، أى إن لى محمدا وإن لى عليا .

ومن أسباب حذف المسند ومزاياه ما يؤدى إليه من التكثير وزيادة الاحتمالات . وذلك على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خُمسَهُ ﴾[1] فقوله : ﴿ فإن لله خمسه ﴾ مبتدأ . وخبره محذوف تقديره : « حق » أو واجب .

وقد أشار جار الله الزمخشرى إلى النكتة فى هذا الحذف ، وبين أن هذا الحذف يؤكد ثبات الخمس ، وأنه لا يمكن الإخلال به . يقول : « كأنه قيل لابد من ثبات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال أو التفريط فيه من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات كقولك : ثابت . واجب — حق ، لازم ، وما أشبه ذلك كان أقوى للإيجاب من النص على واحد »[2] .

وقد يكون الحذف استهانة به ، واحتقارا لشأنه فى مقابلة المسند إليه . وذلك كقوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[3] . فالاسم الموصول : « من » مبتدأ خبره محذوف . تقديره كذلك . وإذا علمنا أن هذا الموصول الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت هو الله تعالى ، أصبح هينا وضئيلا أى شيء يذكر بعده .

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى : ﴿ أفمن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾[4] والتقدير خيرٌ أمْ مَنْ ليس كذلك .

ومنه أيضا : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » .

وقوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ﴾ .

ويكثر هذا الأسلوب فى الكتاب الكريم .

---

(١) الأنفال : ٤١ .

(٢) الكشاف : جـ ٢ ، ص ١٥٨ .

(٣) الرعد : ٣٣ .

(٤) الزمر : ٩ .

وقد يكون الحذف مفيدا للاختصاص على نحو ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ .

فالتقدير والله أعلم : « لو أنتم تملكون تملكون بالتكرار للتوكيد ، ثم حذف الفعل فانفصل الضمير ، وأفاد الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتناهى »[1] .

حذف المفعول به :

لابد أن أقرر دقة اللغة فى استخدام الكلمات والحروف ، والذين خبروا هذه اللغة الشريفة واطلعوا على عجائب التعبير فى كتاب الله سبحانه وتعالى ، وأساليب البلغاء يدركون إلى أى مدى وصلت هذه اللغة من رهافة الحس ، ودقة التعبير ، وتضمنت من عجائب الأسرار ما جعلت عالما لغويا كبيرا كابن جنى يبدى من الدهشة والعجب ما يدفعه إلى الميل إلى أنها من عند الله . وكأنه يذهب إلى أن هذه الطاقات ، والإمكانات لا يمكن أن تكون من عمل البشر .

وقد تحدثنا عن جوانب من الحذف وما يكون لها من البلاغة ، وليس الحذف إلا حالة من الحالات التى تعتور الكلمات ، وهناك حالات أخرى سنشير إليها . ونسوق الآن حالة أخرى من حالات الحذف ، وهى حذف المفعول به .

والمفعول به واحد من متعلقات الفعل ، أى أنه يتصل بالمسند إذا كان فعلا . وهذه المتعلقات – سواء كانت المفعول به أو غيره – ليست زيادات فى الجملة ، أو أنه لا فائدة لها . فعلى العكس من ذلك تفيد هذه المتعلقات زيادات لا تتوفر للجملة بدونها .

---

(١) علوم البلاغة : ٨٥–٨٦ .

وحين نتحدث عن حذف المفعول نشير إلى ما ذكره البلاغيون من أننا حين نريد مجرد الإخبار عن وقوع الحدث . فلا حاجة حينئذ لذكر المفعول به ، ويذكر فى هذه الحالة مصدر الفعل ليكون فاعلا لكون عام فنقول حدث أكل ، أو وقع ضرب ، أو وجد قول أو نحو ذلك .

وإذا أردنا أن نعبر عن وقوع الفعل من فاعل بعينه ، قلنا : ضرب محمد ، وأكل على وحين يتحدث عبد القاهر الجرجانى عن حذف المفعول . يبين قيمة ذلك فى بناء العبارة ويرى أن الحاجة إلى ذكر الحذف فيه أمس ، لأن فيه لطائف كثيرة ، « وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أكثر »[1] .

وكالعادة التى سار عليها عبد القاهر يعمد إلى ضبط أصول المسائل ، ووضع القواعد لها . وأول هذه الأصول التى يقررها : « هو أن حال الفعل مع المفعول الذى يتعدى إليه حاله مع الفاعل » فعندما تسند الفعل إلى الفاعل يكون غرضنا بيان من وقع منه الفعل ، وليس وقوع الفعل فحسب . وإذا عدينا الفعل إلى المفعول كان غرضنا أن نبين من وقع عليه الفعل . ومن هنا يكون عمل الفعل فى الفاعل والمفعول عند اجتماعهما ، من أجل أن يعلم أن عمله فيهما « إنما كان من أجل أن يعلم التباس المعنى الذى اشتق منه بهما . فعمل الرفع فى الفاعل ليعلم التباسه به من جهة وقوعه منه ، والنصب فى المفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه » .

ويمضى عبد القاهر فى بيان الأمور وتجليتها . فيقرر أن الناس حين يستخدمون الأفعال المتعدية . فهم أحيانا يستخدمونها وغرضهم أن يقصروا

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٧٦ .

الفعل المتعدى كاللازم فى أنك لا ترى له مفعولا لا لفظا ولا تقديرا . ومثال ذلك قول الناس : فلان يحل ويعقد ، ويأمر وينهى ويضر وينفع »[1] إلى غير ذلك . وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ فالمعنى هل يستوى من له علم . بمن ليس له علم . وذلك دون نظر إلى نوع هذا العلم . كما أن منه قوله تعالى : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ فالمعنى فى كل ذلك : « أنه هو الذى منه الإحياء والإماتة ، والإغناء والإقناء . وهكذا فى كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى فى نفسه فعلا للشىء ، وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه ، أو لا يكون إلا منه ، أو لا يكون منه » ففى مثل هذه الحالات لا يعدى الفعل ، لأن تعديته — كما يقول عبد القاهر — تفسد الغرض ، وتغير المعنى »[2] فحين تقول مثلا هو يعطى الدنانير يكون المعنى أنك تدخل الدنانير فى نوع عطائه . ولا يكون قصدك وقفا على مجرد الإعطاء .

إن عبد القاهر يبين لنا أن مثل هذا النوع من الأفعال التى تخلو عن المفعول — رغم تعديتها — لا يكون لها مفعول يمكن النص عليه . وذلك ليس ما يقصد إليه بالحديث فى الحذف ، إنما المقصود بذلك نوع آخر من المفعول يكون مقصودا ، لكنه يحذف . وهذا ما يعبر عنه بقوله : « وقسم ثان ، وهو أن يكون له مفعول مقصود قصده معلوم إلا أنه يحذف من اللفظ لدلالة الحال عليه .

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين : قسم واضح جلى لا صنعة فيه ، وقسم خفى تدخله الصنعة . ويمثل — عبد القاهر — للواضح الجلى بمثل قولهم : « أصغيت إليه » يريدون أذنى . وأغضيت عليه — أى جفنى . ويبدو أن مثل هذا

(١) السابق : ١٧٦-١٧٧ .
(٢) السابق : ١٧٧ .

النوع يمكن إدراكه ، ومن ثم لا يستحق إطالة الوقوف عنده . أما الذى يستحق ذلك فهو النوع الثانى ، الذى يكون خفيا تدخله الصنعة ويحتاج إلى الفطنة . وهو كما يقول : « تدخله الصنعة فيتفنن ويتنوع » .

وأول نوع منه : أن تذكر الفعل وفى نفسك مفعول مخصوص له . قد علم مكانه . إما لتقدم ذكر له . أو وجود دليل يدل عليه ، لكنك تنسيه وتسقطه ، وتخفيه ، وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت نفس معناه من غير أن تعديه إلى شيء أو تعرض فيه لمفعول ومثاله قول البحترى :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وغيظُ عِدَاهُ   أن يَرَى مبصرٌ ويسمعَ وَاعِ

فتقدير الكلام : أن يرى مبصر محاسنه ، ويسمع واع أخباره ومناقبه . والذى حمله على ذلك الحذف إرادته لمعنى شريف . فالبحترى يمدح الخليفة المعتز . ويعرض بالخليفة المستعين .

وهو يقول إن محاسن المعتز ومناقبه كثيرة ، وهى التى تؤهله للخلافة والإمامة ، وإنها ظاهرة لمن يرى ويسمع ، ولهذا يتمنى أعداؤه ألا يكون هناك من يرى أو يسمع . وليس ثمة ما يغيظ الحساد ويحزنهم إلا أن يعلموا بوجود من يرى ويسمع . لأنه سيقف على أفضال المعتز ومناقبه ويرى أحقيته بالخلافة .

النوع الثانى : أن يكون هناك مفعول معلوم ، وقد علم أنه ليس للفعل مفعول غيره ، ولكن المتكلم يطرح هذا المفعول . حتى يتوفر العناية للفاعل . وذلك على نحو ما نجد فى قول عمرو بن معدى كرب :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحُهُم   نطقتُ ولكنَّ الرماح أَجَرَّتِ

فالفعل « أجرت » متعد . ولو عداه لم يتعد إلى غير ضمير المتكلم . نحو ولكن الرماح أجرتني .

ولو ذكر المفعول به لأوهم خلاف الغرض ، إذ الغرض أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار ، وحين يذكر المفعول يتوهم أنه لم يعن بأن يثبت للرماح إجرارا ، بل الذي عناه أنها أجرته »[1] .

ومن هذا النوع ما قال طفيل الغنوي لبني جعفر بن كلاب :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت ... بنا نَعْلُنا في الواطئين فَزَلَّتِ
أبَوْا أن يَمَلُّونا ، ولو أن أمَّنَا ... تُلاقِي الذي لا قَوْه منا لَمَلَّتِ
هُمُ خلطونا بالنفوس وَألْجَأُوا ... إلى حُجُرَاتٍ أدفأَت وَأظَلَّتِ

وطفيل الغنوي يمدح بني جعفر بن كلاب . ويقول إننا حين احتجنا ، ونزلت بنا الحال لجأنا إليهم فوجدنا عندهم العون والمساعدة ، وهم تحملوا عنا ما لا تتحمله الأم عن أبنائها لقد جعلونا جزءا منهم ، وضمتنا بيوتهم حيث وجدنا فيها الطمأنينة والدفء .

وقد تمثل بهذه الأبيات الصدِّيق رضي الله عنه حين استبطأته الأنصار . لانشغاله بحروب الردة . وقد أجابهم الصديق بأن مودتهم في القلب – ولكنهم يريدون أن يكون في مثل حال رسول الله ﷺ فيهم ، وتلك حال لا يمكنه أن يصل إليها .

وقد تضمنت الأبيات حذف المفعول به في أربعة مواضع هي قوله : « لملت » وألجؤا وأدفأت ، وأظلت . لأن الأصل فيها لملتنا ، وألجؤونا ، وأدفأتنا ، وأظلتنا وقد أفاد هذا الحذف توفير العناية على إثبات الفعل للفاعل .

(١) دلائل الإعجاز : ١٧٩ .

وعبد القاهر يضيف[1] فائدة أخرى للحذف فى هذه الأبيات وفى البيت السابق فهذا الحذف يفيد العموم ، ففى قول عمرو بن معدى كرب . يتيح لنا الحذف أن نقول إن سوء بلاء هؤلاء فى الحرب، ونكوصهم عن القتال ما يُجِرُّ مثله ، ومثل هذا الموقف لا يتفق لقوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقا ، ولو ذكر المفعول لاقتصر الأمر عليه وعلى قومه .

ومثل هذا يقال فى أبيات الطفيل . فعند الحذف يخصب القول ويصبح عاما يضم كل أم أى لو أن أى أم لاقت ما لقيه هؤلاء منا لدخل نفسها الملل والسأم من أبنائها وذكر المفعول يجعل الأمر خاصا بهم وبأمهم . ولا يخفى أن ذلك هو ما يحدث فى بقية المواضع التى حذف فيها المفعول .

ومما يكون فيه حذف المفعول لتوفير العناية للفاعل قول جرير :

أَمَنَّيْتِ الْمُنَى ، وَخَلَبْتِ حتى تركت ضميرَ قلبى مُسْتَهامَـا

وجرير يتحدث عن الأمانى والوعود التى تعده بها الحبيبة وتمنيه ، ثم لا تفى بها وهى فى ذلك كالبرق الخلب الذى لا يعقبه مطر . وهذا معنى قوله أمنيت المنى وخلبت . وقد حذف المفعول من الفعل « خلبت » . وذلك ليبين أنه كان منها « التمنية والخلابة » وأن هذا يكون منها دائما معه ومع غيره . لكنه لو ذكر المفعول ما تحقق له ذلك .

وحذف المفعول به لتوفير العناية للفاعل مما ورد كثيرا فى القرآن على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٨٠–٢٨١ .

نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾[1] فقد حذف المفعول به فى خمسة مواضع - كما يقول صاحب البرهان[2] . وتقدير الكلام والله أعلم ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون : « غنمهم . أو إبلهم » ووجد من دونهم امرأتين تذودان « غنمهما » قال : ما خطبكما قالتا لا نسقى « غنمنا » حتى يصدر الرعاء غنمهم أو إبلهم . فسقى لهما « غنمهما » لكن عبد القاهر يرى الحذف فى أربعة مواضع . ومن الواضح أن الغرض فى هذه الآية إنما كان لبيان أنه كان من الناس سقى ومن المرأتين ذود . وأن موسى عليه السلام سقى لهما . أيا كانت الماشية التى تم سقيها. لكن عبد القاهر يرى الحذف فى أربعة مواضع « إذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لا نسقى غنمنا ، فسقى لهما غنمهما .

ونوع آخر من حذف المفعول كأنه غير النوع السابق - ذلك لأن الغرض منه ليس توفير عناية الفعل للفاعل - بل للكشف عن لطيفة لا يتم الكشف عنها بغير حذف المفعول . وقد مثل عبد القاهر لهذا النوع بقول البحترى :

إذا بَعُدت أَبْلَتْ ، وإن قَرُبت شفت ... فهجرانها يُبْلِى ولُقْيَانُهَا يَشْفِى

والبيت كما هو واضح يتحدث عن بعد الحبيبة وقربها عليه .. ففى بعدها تكون علته وفى قربها يكون برؤه وشفاؤه . والمعنى - كما يراه عبد القاهر : « إذا بعدت عنى أبلتنى وإن قربت منى شفتنى » إلا أن جمال الشعر يأبى ذكر المفعول ، ويحتم حذفه . ففى هذا الحذف تصبح الأمور التى أسندها إليها كأنها طبيعة فيها :

(١) القصص : ٢٣ - ٢٤ .
(٢) الزركشى : البرهان فى وجوه البيان م٣ - ١٦٤ ، ١٦٥

« حتى كأنه قال : أتدرى ما بعادها ؟ هو الداء المضنى . وما قربها ؟ هو الشفاء والبرء من كل داء . ولا سبيل لك إلى هذه اللطيفة وهذه النكتة إلا بحذف المفعول البتة فاعرفه[1] .

ومن الحذف فى المفعول به ما يتم أولا لأنه سيأتى بعده ما يظهره . أو حسب عبارة عبد القاهر الإضمار على شريطة التفسير . وذلك مثل قولهم أكرمنى وأكرمت عبد الله . يريدون أكرمنى عبد الله وأكرمت عبد الله . فهم يتركون الأول استغناء بالثانى . ويبين عبد القاهر الجرجانى[2] أن الحذف فى هذا الموضع ليس ظاهرا أو أنه يخلو من الجمال الفنى كما يظهر فى مثل المثال السابق ، بل يوجد فى كلام الفحول ، وقد اشتمل على دقيق الصنعة ، وجليل الفائدة . ومن هذا الجليل النادر قول البحترى :

لو شئت لم تُفْسِد سماحةَ حاتمٍ　　　كرمًا ولم تَهْدِمْ مآثرَ خالدِ

فإن التقدير فى مثل هذا البيت : « لو شئت عدم إفساد سماحة حاتم لم تفسدها . لكنه حذف المفعول من الأول اكتفاء بدلالة الثانى عليه ، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب فى حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف ، ولا يظهر إلى اللفظ فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت : لوشئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها : صرت إلى كلام غث ، وإلى شىء يمجه السمع ، وتعافه النفس »[2] .

ثم يمضى عبد القاهر فى بيان ما يكون فى البيان بعد الإبهام من الحسن . ذلك لأن الإبهام حين يأتى أولا يحرك النفس ، ويدفعها إلى التطلع . والبحث عن

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٨٣ .
(٢) السابق : ١٨٣-١٨٤ .

المجهول . وذلك ما يكفل لها اللطف والنبل . ويتوفر مثل هذا الأمر كثيرًا فى أفعال المشيئة . لأنك حين تقدم فعل المشيئة توحى إلى النفس أن ثمة أمرا يقتضى هذه المشيئة .

ويلحظ عبد القاهر كثرة مجىء المشيئة بعد « لو » وبعد حروف الجزاء موقوفة غير معداة[1] فى كتاب الله تعالى ويحذف المفعول بعدها . وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ . والتقدير فى هذا ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم « ولو شاء الهداية لكم لهداكم » . ومن هذا النوع الذى يحسن فيه الحذف أيضا قوله تعالى : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ . وقول الشاعر :

لو شئت كنت ككُرْزٍ فى عبادته ... أو كابن طارق حول البيت والحرم

فالمعنى أنه يقول لو أردت أن أكون مثل « كرز » فى عبادته لكنت ، ولو أردت أن أكون مثل طارق فى طوافه حول البيت لكنت . لكنه حذف فأبهم ثم ذكر فأزال هذا الإبهام وضمن لعبارته الحسن والخلابة والتأثير .

وتكثر الأمثلة التى يوردها عبد القاهر الجرجانى على حذف المفعول ، ويبين ما يكون لهذا الحذف من أثر فى جمال الأسلوب ومتانته ، كما يبين ما يصيب هذا الأسلوب من الضعف حين يقدر هذا المحذوف . يقول : « ومما يعلم أن ليس فيه لغير الحذف وجه » . قول طرفة :

وإن شئتُ لم تُرْقِل وإن شئتُ أرقلت ... مخافةَ ملوىٍّ من القدِّ مُحْصَدِ

وهو يتحدث عن ناقته ، وكيف أنها طيعة فى يده ، تنفذ مشيئته ، ولا

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٨٤ .

تعصى له أمرا فهو إن أراد لها أن تسرع فى السير أسرعت ، وإن شاء لها أن تمشى الهوينا امتثلت لأمره لأنها تخشى السوط الذى فى يده .

ومنه قول حميد بن مالك الأرقط :

إذا شئت غنتنى بأجزاع بيشة ... أو الزرق من تثليث أو بِيَلَمْلَمَا
مطوقنة ورقـاءُ تسجـع كلمـا ... دَنَاالصيفُ وانْجَابَ الربيعُ فَأنْجَمَا

وقال البحترى :

إذا شاء غادى صِرْمَةً أوْغَدا على ... عَقَائِلَ سِرْبٍ أوْ تَقَنَّصَ رَبْرَبَا

وقوله :

لو شئت عدت بلاد نجد عَوْدَةً ... فحللتَ بين عقيقه وزرود

فمن الممكن فى هذا كله أن يقدر المفعول ، أو يظهر فى الكلام ، لكن ظهوره يفسد الشعر ويخرج به إلى كلام غث . كما يقول عبد القاهر[1] ونوع آخر من حذف المفعول يذكر عبد القاهر أنه عجيب . بل يذكره فى معرض تفخيم الحذف والتنويه بذكره .

وهذا النوع يتأتى حين يعمد الشاعر المفلق إلى إيقاع المعنى فى ذهن السامع على نحو يمنعه من توهم شيء غير المراد فى بدء الأمر . وذلك على نحو قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها :

أعن سفهٍ يوم الأبيرقِ أم حلـمِ ... وقوفٌ بربعٍ أو بكاءٌ على رســمِ

وفيها يذكر محاماة الممدوح عليه ، وصيانته له ، ودفعه نوائب الزمان عنه :

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٨٤ .

وكم ذدت عنى من تحامل حادث ... وثورة أيام حَزَزْنَ إلى العظم

فأصل الكلام « حززن اللحم إلى العظم » « إلا أن فى مجيئه محذوفا ، وإسقاطه له من النطق ، وتركه فى الضمير مزية عجيبة ، وفائدة جليلة ، وذلك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى فى نفس السامع إيقاعًا يمنعه من أن يتوهم فى بدء الأمر شيئا غير المراد ، ثم ينصرف إلى المراد[1] » وبيان هذا أنه لو أظهر المفعول فقال : حززن اللحم إلى العظم . لجاز أن يتوهم السامع أن الحز كان فى بعض اللحم ، وليس فى جميعه . وحتى يتم دفع هذا التوهم كان إسقاط المفعول من اللفظ حتى يقع المعنى فى أول الفهم . ويعرف منذ البداية « أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده إلا العظم . أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين ، وأجلى فى صحة ما ذكرت لك من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح من الذكر ، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحسن للتصوير »[2] .

وإذا كان عبد القاهر الجرجانى قد أوقفنا على بعض المحاسن التى تكون لحذف المفعول ، كما أوقفنا على أثرها فى الأسلوب ، وكشفها عن الغرض المراد من الكلام . إذا كان عبد القاهر قد فعل هذا .. فإن صاحب « إعراب القرآن »[3] يحدثنا عن ألوان أخرى من حذف المفعول والمفعولين وغير ذلك . ويبين أن مثل هذه الأمور يدق فيها النظر ، ولا يتسنى للناظر فيها الإحاطة بها . ولا أريد تكرار ذكر حذف المفعول ، لكننا نضيف إلى ما سبق ما ساقه الزجاج من حذف أحد المفعولين من الفعل الذى يتعدى لمفعولين . وذلك على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ أى إلها . وكذلك قوله : ﴿ باتخاذكم

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٩٠ .
(٢) السابق : ١٩١ .
(٣) منسوب إلى الزجاج .

العجل ﴾ أى باتخاذكم العجل إلها ففى المثالين حذف للمفعول الثانى . يقول الزجاج . ولابد من إضمار المفعول الثانى لأنهم عوتبوا بذلك ، ولا يعاتب أحد باتخاذه صورة العجل »[1] ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ إذا كان الدعاء بمعنى التسمية أى سموه الله أو سموه الرحمن ، فأيا ما تكون التسمية فله سبحانه وتعالى الأسماء الحسنى . وإذا كان ادعوا بمعنى سموا كان متعديا إلى مفعولين ، وواضح أنه قد تم حذف المفعول الأول . وفى قوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ لأن كال ووزن يتعدى كل منهما إلى مفعولين أحدهما باللام والتقدير كالوا لهم ووزنوا لهم . والمحذوف هنا هو المفعول الثانى ، وقد أفاد الحذف فى هذه الآية التعميم .

وهناك ألوان أخرى من الحذف يؤدى استقصاؤها إلى الإطالة والأغراض التى تحققها لا تخرج عن تلك الأمور التى أشار إليها النقاد والبلاغيون وعلماء اللغة ، وبعضها يعد من متعلقات الفعل ، ولهذا يكون ارتباطه بقضية الإسناد وثيقا ولهذا نذكره . فهم يحذفون الحال . ولا يختلف علماء اللغة على ذلك . فقد نقل الزركشى عن أبى على قوله : « لا خلاف بين سيبويه وأبى العباس فى الحال المحذوف الذى المصدر منصوب به ، وإنما الخلاف بينهما فى القياس ، فسيبويه يذهب إلى السماع ولا يقيس ، والأخفش والمبرد يقيسان » وقد قال ابن أبى الربيع : « اعلم أن العرب قد تحذف الحال إذا كانت بالفعل لدلالة مصدر الفعل عليه . وذلك كقوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ أى قائلين سلام عليكم .

---

(١) إعراب القرآن جـ٢ ٤١٣ .

To: www.al-mostafa.com

الحذف فى أجزاء الشرط :

ومما يقع الحذف فيه أسلوب الشرط . وقد يأتى الحذف فى الجواب على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[1] . وقد قدر البغوى المحذوف : « من المحق منا ومن المبطل » وقدره غيره : « أفلستم ظالمين » بدليل التعقيب بقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

ولاحظ بعضهم كثرة حذف جواب الشرط إذا كان « لو » . وقد جاء على ذلك أمثلة كثيرة فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾[2] وقوله : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾[3] . وقوله : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ﴾[4] وغير ذلك من الآيات . ويمكن أن يكون التقدير فى مثل هذا : « لرأيت عجبا » لرأيت سوء منقلبهم ، أو سوء حالهم ، أو لرأيت خزيهم وحسرتهم .

ويعلل صاحب « البرهان للحذف فى مثل تلك المواقف بتعليل لا يخلو من الطرافة ويدخل فى بلاغة الأسلوب وما يكون عليه من التماسك والانسجام، والبعد عن الترهل والتزيد . يقول الزركشى : « والسر فى حذفه فى هذه المواضع أنها لما ربطت إحدى الجملتين بالأخرى حتى صارا جملة واحدة ، أوجب لها ذلك فضلا

---

(١) الأحقاف : ١٠ .
(٢) الأنعام : ٢٧ .
(٣) الأنعام : ٣٠ .
(٤) سبأ : ٣١ .

وطولا ، فخفف بالحذف خصوصا مع الدلالة على ذلك »[1] والقول بصيرورة جملتى الشرط كأنهما جملة واحدة بعد دخول الأداة عليها مما أشار إلى مثله عبد القاهر الجرجانى ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فجعل جملتى الشرط كأنهما كلمة واحدة فى قوة ما بينهما من الربط . ولعل المهم فى ذلك أن الحذف فى جواب الشرط حين يدل عليه دليل مما يتفق ومنطق هذه اللغة التى تنأى عن الهذر والزيادة التى لا تكون لها فائدة واضحة .

ويضيف « الزركشى » فائدة أخرى لحذف الجواب فى الشرط لها من غير شك دخل فى بلاغة الأسلوب وقوة بنائه . يقول : « قالوا : وحذف الجواب يقع فى مواقع التفخيم والتعظيم ، ويجوز حذفه لعلم المخاطب به ، وإنما يحذف لقصد المبالغة ، لأن السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب ، ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به فلا يكون له ذلك الوقع » وقد ضرب مثلا على هذا التخيل الذى تذهب فيه النفس كل مذهب عند الحذف ، وتقدر المحذوف على أنحاء مختلفة مما قال به النحويون فى قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴾[2] فذهب بعضهم إلى أن التقدير « لكان هذا القرآن » لكن بعضهم الآخر نظر إلى ما سبق هذه الآية من الأسلوب ، وإلى ما جاء بعدها ، كما نظر إلى الغرض الذى سيقت الآية لبيانه ، وعلى ضوء هذا كان التقدير مختلفا . لقد بين هذا الفريق أن الآية لم تسق لبيان فضل القرآن ، وإنما كان سياقها لذم الكفار . والدليل على ذلك ما جاء قبلها : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ وما جاء بعدها : ﴿ أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى

---

(1) البرهان : جـ ٣ ١٨٣ .

(2) الرعد : ٣٠ ، ٣١ .

الناس جميعًا ﴾ ويرى هذا الفريق أن التقدير لو كان : « لما آمنوا به » لكان أشد وذهب بعضهم إلى غير هذا وذاك . ولا شك أن فى هذا ثراء للأسلوب وتهيئة للنفس للتفكير فى نواح مختلفة .

وقد مثل « الزركشى » لهذا الغرض بأكثر من آية من آى الذكر الحكيم ، ، ويمكن الرجوع إليها للوقوف على ما جاء به[٣] .

ولعل ما يرتبط ارتباطا وثيقا بالبلاغة ، وكان محل اهتمام البلاغيين هو ذلك الحذف الذى ذكروه فى باب الإيجاز . وأغلب الظن أن كثيرا من ألوان الحذف التى ذكرت ، كحذف المعطوف عليه مع بقاء المعطوف ، أو حذف جواب القسم أو غير ذلك مما هو مذكور يعود إلى ما أطلق عليه البلاغيون الإيجاز بالحذف . يقول الخطيب : « الإيجاز ضربان ، أحدهما إيجاز القصر ! وذلك ما لا حذف فيه ، لكن الألفاظ فيه على قلتها تكون ثرية وتعطى معانى كثيرة . ومثل هذا يشير إليه الجاحظ فى كلام رسول الله ﷺ ، إذ يقول كلامه ﷺ هو الكلام الذى قل لفظه ، وكثر معناه » .

وورد عنه ﷺ أنه قال : « أوتيت جوامع الكلم » . ويمثل البلاغيون لهذا النوع من الإيجاز بقوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ﴾ فالمعانى التى تكمن وراء هذه الألفاظ القليلة كثيرة . وقد أفاض العلماء الحديث حولها ، وقارنوا بينها وبين قول العرب : « القتل أنفى للقتل » . وليس يخفى علينا ما تضمنته الآية من معنى ، هو أن من يريد القتل إذا علم أن القصاص واقع عليه ، وأنه سوف يقتل ، سيكون ذلك رادعًا له عن ارتكاب تلك الجريمة النكراء ، فتحفظ بذلك الدماء التى حرمها الله وتصان .

---

(٣) البرهان : ٣ ، ١٨٤ ، وما بعدها .

والقسم الثانى من الإيجاز وهو ما نحن بصدده ، هو ما أطلق عليه إيجاز الحذف . يقول الخطيب : « هو ما يكون بحذف ، والمحذوف إما جزء جملة أو جملة ، أو أكثر من جملة وهو يمثلون لما كان المحذوف فيه جزء جملة بقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ ويقولون إن المراد بذلك أهلها . وقد سبق لنا القول بأنه لا حذف فى هذه الآية والفعل واقع على القرية . أى أن السؤال يقع عليها جميعًا ، لأن ذلك هو الذى يمثل الموقف الذى وردت الآية للتعبير عنه – وهو نفى تهمة تحيط بأبناء يعقوب ، وتتضافر الأدلة والسوابق على إثباتها على الرغم من أنهم أبرياء منها . وقد فصلنا القول فى هذا فى موضع آخر[1] .

ومما حذف فيه بعض جملة قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ أى تناولها . وقوله تعالى : ﴿ حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ أى تناول طيبات أحل لهم تناولها . وقوله تعالى : ﴿ لمن كان يرجو الله ﴾ أى رحمة الله . وقوله : ﴿ يخافون ربهم ﴾ أى عذابه وقد يكون جزء الجملة هو الموصوف . كقول الشاعر :

أنا ابن جلا وطلاعُ الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفونى

إذ التقدير فيه أنا ابن رجل جلا .

وقد يكون المحذوف صفة بقى موصوفها . وذلك كقوله تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ فالتقدير يأخذ كل سفينة صالحة . وهذا ما دفع الرجل الصالح إلى خرق هذه السفينة ليكون فيها عيب يصرف الملك الطاغية عن الطمع فيها على نحو ما نعرف فى سورة الكهف .

---

(١) فنون التصوير البيانى .

وقد يكون المحذوف الشرط أو الجواب على نحو ما أسلفنا القول .

حذف الجملة أو الجمل :

ولا يتوقف الحذف فى العربية على تلك الأنواع التى ذكرناها ، بل يمتد الحذف إلى جملة كاملة أو إلى أكثر من جملة ، طالما كان هذا الحذف لا يؤدى إلى اللبس أو استغلاق العبارة ويمكن التوصل إلى المحذوف بأمر من الأمور التى توجد فى العبارة ، أو ببعض النظر العقلى . وقد اشتمل الأسلوب الرفيع على هذا الذى نتحدث فيه ، وربما كان من بعض أسباب رفعته وإعجازه مجيئه على تلك الصور التى ورد عليها .

والجملة المحذوفة : إما أن تكون مسببة عن المذكور ، أو تكون سببا فيه ، أو تكون أمرا آخر غير هذا وذاك .

فمن النوع الأول الذى تكون الجملة المحذوفة مسببة فيه عن المذكور قوله تعالى : ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾[1] فوجود اللام فى الفعل « ليحق » يقتضى أن يكون لها متعلق يكون سببا عن مدخول اللام ، فلما لم يوجد لها متعلق فى الظاهر ، وجب تقديره ضرورة فيقدر : فعل ما فعل ليحق الحق .

ومن النوع الثانى الذى تحذف فيه الجملة وتكون سببا فى المذكور قوله تعالى : ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴾[2] فإن الفاء ، إنما تدخل على شىء يكون مسببا عن شىء آخر ، ولما لم يكن ثمة مسبب من غير سبب . وهذا السبب غير موجود فى العبارة كان من اللازم تقديره . فيقدر : فضربه فانفجر .

---

(١) الأنفال : ٨ .

(٢) البقرة : ٦٠ .

والنوع الثالث : وهو الخارج عن أن يكون المذكور سببا أو مسببا للمحذوف . ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فنعم الماهدون ﴾[1] إذ التقدير نحن هم أو هم نحن .

وقد تكرر حذف الجملة فى القرآن الكريم . فى مثل قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾[2] فقد قيل إن المعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل فيها كذا وكذا . وهذا ما دفع الملائكة إلى السؤال الذى طرحوه . وإلا فمن أين توفر لهم العلم بأن آدم يفسد فى الأرض ويسفك الدماء .

ومن حذف الجملة أيضا قوله تعالى : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ﴾[3] فالمعنى . فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة .

وقد يكون المحذوف أكثر من جملة . على نحو ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ فمن الواضح أن التقدير فأرسلون إلى يوسف أستعبره الرؤيا ، وآتيكم بتفسيرها فأرسلوه إليه وعند وصوله له ، والتقائه به قال له يوسف .. الخ .

ومثل ذلك الحذف يتكرر فى سورة يوسف عليه السلام . ففى قوله تعالى : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى هذا

---

(١) الذاريات : ٤٨ .
(٢) البقرة : ٣٠ .
(٣) الحجرات : ١٢ .

غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يصنعون ﴾ فبين الجمل فى هذه الآية جملة متروكة ، ومواقف غير مذكورة ، ويمكن أن يكون التقدير — والله أعلم — وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ليحضر لهم الماء ، فلما ذهب إلى العين — وأدلى دلوه ليخرج الماء خرج مع الدلو غلام عليه سيما الجمال ففرح به ، وقال يا بشرى هذا غلام ، وذهب به فرحًا إلى رفاقه فسروا به ، وأسروه بضاعة وبعد هذه الآية وما يليها من آيات تطوى مواقف ومواقف ، ويغضى عن أحداث وأحداث يمكن لمن يرجع إلى السورة متدبرا أن يقف عليها ، ويعلم أن حذفها كان ضروريا من أجل أن تكون القصة محكمة لا مجال فيها لسرد الأحداث التى لا تفيد السياق ، ولا تعمق المجرى الأساسى للقصة[1] .

ومما جاء فيه حذف أكثر من جملة فى القرآن الكريم . قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ﴾[2] يقول الزركشى : حذف يطول تقديره : فلما ولد يحيى ونشأ وترعرع قلنا : يا يحيى خذ الكتاب بقوة .

ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم موسى : ﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى ﴾[3] فليس يخفى أن التقدير : فرجع موسى فوجدهم عاكفين على عبادة العجل . فغضب من هارون ووجه إليه اللوم قال : يا هارون ما منعك من

---

(١) انظر فى ذلك التصوير الفنى فى القرآن الكريم للعلامة سيد قطب . ومحاضرة للمؤلف « إعجاز القرآن : دراسة فى البناء اللغوى » .

(٢) مريم : ١٢ .

(٣) طه : ٩١-٩٣ .

التصدى لهم وتوجيههم إلى عبادة الله وحده إلى آخر ما يمكن أن يدل عليه السياق فى الآيات الكريمة .

ولعل تكرار مثل هذا الحذف فى القصص القرآنى يلفت إلى حقيقة فنية فى هذا القصص هو أن اللغة فيه محكمة ، وأن هذا القصص لا يذكر فيه من الكلام إلا ما ينمى الحدث ، كما أن هذا القصص ليس من جنس ما يأتى به البشر ، وأنه كما قال الله عنه : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ .

وأختم الحديث فى الحذف بما أشار إليه صاحب البرهان من ظاهرة كثر ورودها فى القرآن الكريم ، وهى حذف القول ، يقول الزركشى : « قد كثر فى القرآن العظيم حذف القول حتى إنه فى الإضمار بمنزلة الإظهار . وذلك كقوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] أى يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا . ومنه أيضا : ﴿ ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا ﴾[2] أى وقلنا كلوا . وقد ذكر الزركشى[3] عددا من الآيات التى حذف فيها القول . ويمكن الرجوع إليها .

ذكر المسند إليه :

بعد أن فرغنا من دراسة حذف المسند إليه ، وما يؤدى إليه من بلاغة فى العبارة نذكر الأحوال التى تقتضى ذكر المسند إليه ، إذ تكون البلاغة فى هذا الذكر ، ويلحظ المتحدث النكتة الفنية وراءه .

---

(١) الزمر : ٣ .
(٢) طه : ٨٠ - ٨١ .
(٣) البرهان فى علوم القرآن : جـ٣ ١٩٦-١٩٨ .

وحين نتحدث عن حالة من حالات المسند إليه ، ونرجع إليها البلاغة لا يعنى ذلك أن تلك البلاغة لازمة لها فى كل حال . لأن من المعلوم أن أحوال المتكلم ، وأحوال المخاطب وأحوال الخطاب لا تتفق دائما . وربما تكون البلاغة فى موقف من المواقف متوقفة على أمر مَّا . وتكون البلاغة فى موقف آخر متوقفة على نقيض هذا . ومن ثم تكون الأحوال والمقتضيات التى تذكر فى المناسبات المختلفة مجرد إشارات لا تغنى عن فطنة السامع وحسن إدراكه ، ومعرفته بالأحوال ومقتضياتها . وسوف نذكر ما جاء عن البلاغيين من تعليل لذكر المسند إليه وما جاء من هذه الأسباب :

١ — أنه الأصل ، وليس هناك ما يقتضى الحذف . كقولك هذا أخى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ﴾ .

٢ — أن يكون فى الذكر إشادة وتنبيه على شأنه : كقولك : العاقل من اتعظ بغيره . اللبيب من يفكر فى العاقبة . « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

وجاء عليه قوله تعالى : ﴿ أوْلئك على هدى من ربهم وأوْلئك هم المفلحون ﴾ .

٣ — أن يذكر فى مجال الفخر والاعتداد بالنفس . كقول المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

وقول البارودى :

أنا مصدرُ الكلِم البوَادِى ... بيْنَ المحاضِرِ والنَّوادِى
أنا فارسٌ أنا شـاعرٌ ... فى كلِّ ملحمة ونَادِى

والذكر قد يكون لدواعي النفس ، واستجابة لما تمتلىء به من أمور . والمقام هو الذى يكشف عن ذلك ويرشد إليه .

فذلك الشاعر الذى امتلأت نفسه بالفخر والاعتزاز بقومه يريد أن ينسب لهم كل شيء ، ويقرن اسمهم بكل ماجد عظيم لا نستغرب عليه أن يقول :

وقد علم القبائلُ من مَعَدٍّ إذا قُبَبٌ بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون إذا قَدَرْنا وأنا المهلكون إذا ابْتُلِينَا

وجاء من هذا القبيل قول الرسول ﷺ : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

ومن أسباب الذكر ما يجد المتحدث من اللذة فى ذكر أسماء أحبابه . وذلك على نحو ما نجد فى قول قيس :

ألا ليت لبنى لم تكن لى خلة ولم تلقنى لبنى ولم أدر ما هيا

ومنه قول الآخر :

مُنًى إن تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَعْظَمَ الْمُنَى وَإلَّا فقد عشنا بها زمنا رغدا
أمانىُّ مِنْ لَيْلى حِسَانٌ كأنما سقتك بها ليلى على ظَمَأٍ بَرْدَا

وتكرار الأسماء فى الغزل ، والتلذذ بذكرها مما يكثر وروده فى الشعر العربى ، وليس يخفى ما فيه من متعة يحس بها قائل الشعر ومنشده .. إن أسماء الحبيبات مما يدخل السعادة على نفس الشاعر ، بل ربما تعدى الأمر أسماء الحبيبة إلى ما أشبهه أو كان قريبا منه ، على حد قول الشاعر :

أحب من الأسماء ما وافق اسمها أو أشبهه أو كان منه مدانيا

وقد يكون الاسم لمكان، لكن ترتبط ذكريات الشاعر به، وربما كان المكان مما يثير الحزن ، لكن نفس الشاعر ترتبط به . ولتقرأ في هذا قول متمم بن نويرة وهو يبكي أخاه مالكا ، ويرى كل قبر تقع عليه عينه قبرا له .

وقالوا أتبكي كلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثوى بين اللوى والدَّكَادِكِ
فقلتُ لهم إنَّ الأسى يبعثُ الأَسَى دعوني فَهَذَا كلُّه قَبْرُ مَالِكِ

وقد يكون وجود المسند إليه ضروريا ليضاف إليه الخبر وينسب له ، وحتى يكون هذا الخبر له وليس لغيره . وذلك على نحو ما نجد في هذه المقطوعة التي يخاطب فيها عبد الله بن الدمينة صاحبته أميمة فهي تعاتبه قائلة :

وأنتَ الذى أَخْلَفْتَنِى مَا وَعَدْتَنِى وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ
وَأَبْرَزْتَنِى للناسِ ، ثم تركتني لهم غرضا أُرمى وأنت سليمُ
فلو أنَّ قولًا يَكْلُمُ الجسمَ . قَدْبَدَا بِجِسْمِيَ مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ كُلُومُ

فأجابها :

وأنتِ التى قطَّعْتِ قلبِى حَزَازَةً وَقَرَّفْتِ قَرْحَ القلبِ وهو كُلُومُ
وأنتِ التى كَلَّفْتِنِى دَلَجَ السُّرَى وَسِربُ الْقَطَا بالجُهْلتينِ جُثُومُ
وأنتِ التى أحفظتِ قومِى فكلهُمْ بَعَيْدَ الرِّضَا دَانِى الصُّدُودِ كَظِيمُ

وهذا الأسلوب يَرِدُ كثيرا في القرآن الكريم . وذلك كقوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(١) البقرة : ٥ .

ومن هذا الأسلوب الذى يذكر فيه المسند إليه ليسند إليه الحدث ويضاف إليه قول عمرو بن كلثوم :

وقد عَلمَ القبائلُ من معدٍّ إذا قببٌ بأبطها بُنِينَا
بأنّا العاصِمونَ إذا أطعنا وأنا الغارمون إذا عُصِينَا
وأنّا المنعمون إذا قَدَرْنَا وأنا المُهلِكُون إذا أُتِينا
وأنّا الحاكمون بما أردنا وأنّا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون لما سَخِطْنَا وأنّا الآخذون لما هَوينا
وأنا الطالبون إذا نقمنا وأنّا الضاربون إذا ابتلينا
وأنا النازلون بكل ثغر يخاف النازلونِ به المتونا

وقد يذكر المسند إليه حتى لا يتم اللجوء إلى الضمير بين جملتين ، وذلك يمكن استقلال الجملة الثانية . ويمكن اتخاذها مثلا ... وذلك كقوله تعالى : ﴿ ذلك بأ الله يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وأن الله سميع بصير . ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾[1] .

تعريف المسند إليه :

من الأمور التى تدخل فى بلاغة المسند إليه حالته فى التعريف والتنكير . ونذكر هنا تعريف المسند إليه .

ومن المعلوم أن التعريف يكون بالضمير ، أو العلمية ، أو الموصولية ، أو الإشارة ، أو بمجىء المعرف بالألف واللام أو الإضافة إلى معرفة .

---

(١) الحج : ٦١-٦٢ .

ولما كانت كل حالة من هذه الحالات تكون لها مواقف تقتضيها ، ولا يصلح فيها سواها نسوق كل حالة منها ...

أولا : تعريف المسند إليه بالضمير :

فالمسند إليه يأتى معرفا بالضمير لأن المقام مقام تكلم . على نحو ما سبقت الإشارة إليه فى قول المتنبى :

أنا الذى نَظَرَ الأَعمى إلى أَدَبِي وأسمعت كلماتى مَنْ بِهِ صَمَمُ

أو يكون المقام مقام خطاب على نحو ما نجد فى أبيات ابن الدمينة السابقة ، كما قد يكون الضمير للغائب ... ولعل البلاغة فى كل حالة تكون فى وقوعها الموقع الذى يقتضيه الكلام . لكن الضمير قد يخرج عن وظيفته المقررة ليراد به أمر آخر ، وفى تلك الحالة يشير الكلام إلى أمر بلاغى يكون جديرا بالنظر .

فالبلاغيون مثلا يقولون إن الأصل فى ضمير الخطاب أن يكون لمعين . كأن تقول لمحدثك : إذا زرتنى أكرمتك . لكن الخطاب قد يكون مرادا به العموم . وحينئذ يكتسب الكلام مزايا .

وقد تجاوز الخطاب المراد به إلى العموم فى قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ﴾ فليست الرؤية وقفا على من وجه إليهم الخطاب . بل تجاوزتهم إلى كل من تتأتى منهم الرؤية . وفى هذا الخطاب تنبيه إلى أن رؤية هؤلاء المجرمين أصبحت عامة لكل من يرى ، لأنها بلغت الغاية فى الظهور .

وحين يكون المسند إليه ضمير غيبة لابد أن يسبقه ما يعود عليه لفظا أو معنى ، وإلا صار الكلام إلى التعمية ، والتعقيد ، وخرج عن حيز الكلام

البليغ . فمثال ما كان العائد عليه الضمير لفظا قوله تعالى : ﴿ واصبر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ . وقول أبي تمام :

يُمنِ أبي إسحاق طَالَتْ يَدُ الْعُلَا   وقامت قناةُ الدِّينِ واشتدَّ كَاهِلُه
هُو البحرُ من أيِّ النواحي أتيته   فَلُجَّتُه المعروفُ والجودُ ساحِلُه

ومثال ما يعود إليه الضمير معنى قوله تعالى : ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي : الرجوع أزكى لكم ، وهو غير مذكور في الكلام ، لكنه يفهم من خلاله ويتم الوصول إليه دون عناء .

تعريف المسند إليه بالعلمية :

يشير البلاغيون إلى بعض الأمور التي تتحقق نتيجة تعريف المسند إليه بالعلمية ، ومن بين هذه الأمور :

إحضار المسند إليه في ذهن السامع باسمه الخاص به حتى يتميز عن سواه وذلك كقوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا ﴾ .

ومنه تعظيم المسند إليه إذا كان اسمه مما يذكر بالتعظيم لأعمال جليلة قام بها أو فضل له يذكر به . كقولنا : عمر بن الخطاب رفع راية العدل . وصلاح الدين قاهر الصليبيين .

ومنه التحقير إذا كان في الاسم ما يدل على ذلك . كقولنا : أبو لؤلؤة المجوسي اغتال عمر .

وقد يكون ذكر الاسم للتلذذ به . كقول قيس :

بالله يا ظبياتِ الْبَانِ قُلْنَ لَنَا   لَيْلايَ مِنْكُنَّ أم لَيْلى مِنَ البشر

كما يذكر المسند إليه باسمه إذا كان فى الاسم ما يدعو إلى التفاؤل كالأعلام التى تشير إلى ذلك مثل سعيد ، وفوز ، ونصر ونحو هذا . أو يكون الاسم مما يدعو إلى التطير والتشاؤم مثل السفاح .

وقد يكون ذكر العلم حتى يغلق عليه باب الإنكار . كأن تقول : إبراهيم هو الذى شهد بذلك ، ومحمد أخبرنا به أو نحو ذلك .

التعريف بالموصول :

الموصول من المعارف التى تحتاج إلى الصلة لتعرفها . ولهذا يجب أن تكون الصلة معلومة حتى تؤدى إلى تعريف الموصول وبيانه .

وإذا كان تعريف المسند إليه يتضمن إشارات بلاغية . فإن التعريف بالموصول مما تكثر فيه هذه الإشارات . وذلك عن طريق الصلة .

وأول ما نجد فى هذا الصدد ما تؤدى إليه الصلة من زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام . على نحو ما نلمس ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ﴾ .

فالغرض المسوق له الكلام هو بيان نزاهة يوسف عليه السلام وطهارته والصلة هنا تبين أنه كان فى بيت هذه المرأة التى وقعت منها المراودة ، فهو تحت سيطرتها وخاضع لإرادتها ، وهى تطارده برغبتها المحمومة فى كل وقت ، لكنه لا يرضخ لذلك ، ويستعصم . إن الغرض المسوق له الكلام لا يتقرر على هذا النحو لو ذكرت المرأة باسمها ، أو بضميرها .

ثانيا : قد يأتى المسند إليه موصولا . حتى لا يذكر صراحة لما يتضمنه التصريح من الهجنة . كأن يكون المسند إليه قبيحا ، أو مما تقزز النفس من ذكره .

وذلك كما يقول الفقهاء عند ذكرهم لنواقض الوضوء : « ينقض الوضوء ما يخرج من السبيلين » أو كما ذكر حسان بن ثابت فى خطابه لأم المؤمنين عائشة :

فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتمو فلا رفعت سوطى إلىّ يـدى

فإن حسان رضى الله عنه يشير إلى ما يعرف بحديث الإفك ، وهو لا يريد أن يعيد ذكره ، ولهذا يلجأ إلى تعريفه بالموصول والصلة ، وهى كما نرى تتكون من الفعل وفاعله ، مما يدل على أن ذلك لا يعدو أن يكون زعما ، ولا سند له من الحقيقة والواقع .

ثالثا : تومىء الصلة إلى وجه بناء الخبر ، وقد تشير إلى تحقيقه . فمما أشارت فيه الصلة إلى وجه بناء الخبر قوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ فمن الواضح أن قوله تعالى « يستكبرون عن عبادتى » لن يكون جزاؤهم إلا الخزى والنار . ومن هذا النوع أيضا وإن كانت إشارة الصلة إلى ما ينال المؤمنون . قوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾[1] فالصلة قد بينت أن هؤلاء المؤمنين سبقت لهم من ربهم الحسنى ، ومن كان هذا شأنه لا شك أنه بعيد عن النار ، لا تمس جسده ، ولا يناله شىء من عذابها . وفى هذه الآية أيضا لون آخر من البلاغة يتمثل فى اسم الإشارة « أولئك » الذى يدل على علو منزلتهم عند ربهم .

والقرآن الكريم يشتمل على أمثلة عديدة للموصول الذى تدل صلته وتشير إلى بناء الخبر . مثل قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل

---

(١) الأنبياء : ١٠١ .

عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ .

ويقول الخطيب : قال السكاكى : وربما جعل هذا النوع ذريعة لتحقيق الخبر . أى أن الإشارة التى تكون فى الصلة تؤدى إلى تحقيق الخبر ، وذلك حين تكون كالسبب له ، أو الدليل عليه[1] . وذلك مثل قول عبده بن الطبيب :

إن التى ضربت بيتا مُهَاجِرَةً   بكوفةِ الْجُنْدِ غَالَتْ وِدَّها غُولُ

والبيت يتحدث فيه الشاعر عن تلك المرأة التى تركت المكان الذى يقيم فيه من تحب ، واتخذت لها بيتا فى مكان آخر . وفى هذا إيماء إلى زوال حبها من قبله . هكذا فهم السكاكى من البيت . أما الخطيب فلا يجد فرقا بين الإيماء إلى وجه بناء الخبر وتحقيق الخبر . فالبيت الذى معنا لا يرى فيه إيماء إلى وجه بناء الخبر ، « بل لا يبعد أن يكون فيه إيماء إلى بناء نقيضه عليه » .

وربما كان هذا التفسير أمس رحما بالغزل إذ البعد بين الأحباب مما يولد الشوق ، ويزكى الصبابة .

وقد يكون فيه ما يشير إلى التعظيم : كقول الشاعر :

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول

رابعا : يفيد تعريف المسند إليه بالموصول « التفخيم والتهويل » وذلك لما فيه من الغموض والإبهام . على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾[2] فحين نستعيد الموقف ونلم بأطرافه نعلم أن ما غشيهم أمر عظيم لا نعرف كنهه ، ولا نحيط بخبره . ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾[3] . فما يغشى السدرة أمور عظيمة تدل على عظمة الله وجلاله .

---

(1) خصائص التراكيب : ١٥٠ .

(2) طه : ٧٨ .

(3) النجم : ١٦ .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

مَضَى بها مامَضَى مِنْ عقْلِ شارِبِها   وفى الزُّجَاجَةِ باقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي

ومنه أيضا قول كثير :

تجافيتِ عَنِّى حينَ لاَلِىَ حِيلَةٌ   وخَلَّفْتِ مَا خَلَّفْتِ بَيْنَ الْجَوانِحِ

خامساً : يكون تعريف المسند إليه بالموصول تنبيها للمخاطب على خطئه . وذلك كقول الشاعر :

إن الذين تُرَوْنَهُم إخوانكُـمْ   يَشْفِى غليلَ صُدُورِهِم أن تُصْرَعُوا

وقد يفيد تعريف المسند إليه بالموصول أمورا أخرى كأن لا يكون للمخاطب علم به إلا بالصلة كقولك : « الذى كان معنا أمس رجل فاضل » .

أو يكون فيه حث على التعظيم كقولك : « الذى علمك وأدبك » .

أو التهكم كقول الكفار لنبيهم : ﴿ يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾(1) .

تعريف المسند إليه بالإشارة :

لاحظ البلاغيون كثيرا من الأغراض التى يحققها تعريف المسند إليه بالإشارة ، وقد ذكروها ومثلوا عليها . لكن هذه الأمور قد تكون متناقضة، بمعنى أن يدل اسم الإشارة إلى أمر مّا فى إحدى العبارات . ويدل على نقيض هذا الأمر فى عبارة أخرى مما يدل على ضرورة مراعاة الغرض المسوق له الكلام ، والوسط أو النسق الذى ورد فيه اسم الإشارة .

---

(1) الحجر : ٦ .

وأول الأمور التي يلحظها البلاغيون : تمييز المشار إليه أكمل تمييز ، وذلك بوضعه تحت دائرة الحس ، حتى يظهر فى حس السامع . ويتحقق هذا حين يكون المقام مقام مدح . كقول الشاعر :

أوْلئك قوم إن بَنَوْا أحسنوا البِنَى وإنْ عاهَدُوا أوْفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

فالشاعر يمتدح هؤلاء القوم بأنهم إذا قاموا بعمل أكملوه وأتموه على أحسن ما يكون التمام ، ولا يتوقف الأمر بهم عند هذا . فعهودهم محل وفاء ، لا يدخلها خلل ، لا يصيبها نقص . وإن هم دخلوا ساحة الحرب والنزال بانت عزيمتهم ، وظهرت قوتهم ، وشدوا على أعدائهم وقد ميز اسم الإشارة « أولئك » تلك الجماعة من الناس . ومن هذا النوع أيضا قول ابن الرومى :

هذا أبو الصَّقْرِ فَرْدًا فى مَحَاسِنِهِ مِنْ نَسْلِ شَيْبَانَ بين الضَّالِّ والسَّلَمِ

وقول الشاعر يمدح بالكرم ونحر ناقته للأضياف السارين ليلا :

وإذا تأمَّلَ شَخْصَ ضَيفٍ مُقْبِلٍ مُتَسَرْبِلٍ سِرْبَالَ ليلٍ أغْبَرِ
أوْمَا إلى الكوماءِ هذا طارقٌ نَحَرَتْنِيَ الأعداءُ إن لم تنحرى

لكن تحديد المسند إليه وتمييزه بالإشارة لا يقف عند المدح ، بل يأتى أيضا حين يراد إسناد صفات ذم له . وذلك على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ فلولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا إفك مبين ﴾[1] فمجيء المسند إليه اسم إشارة هنا كان لتمييزه وتحديده ، وإسناد صفة الذم إليه .

وقد تكرر هذا فى قوله تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾[2] وفى هذه الآية الكريمة نوع من الأدب الذى يجب أن يكون عليه المسلم فليس كل أمر يكون للإنسان أن يخوض

---

(١) النور : ١٢ . (٢) النور : ١٦ .

ويلح - زيرغي ويزيد ، بل هناك من المسائل ما يقتضي من الإنسان الكامل الكف عن الكلام فيها . لأن الكلمة فيها تكون جارحة ، وقد يكون جرحها غير مندمل على نحو ما يقول الشاعر :

جراحاتُ السِّنَانِ لها الْتِـآمٌ   وَلَا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسُـانُ

فحين يسمع المسلم الخوض في الأعراض يترفع عن المشاركة ، وبخاصة إذا كان ذلك الخوض محصلة ظنون مريضة ، وأوهام حاقدة .

الأمر الثاني الذي يقتضي مجيء المسند إليه اسم إشارة « التعريض بغباوة السامع » وكأنه لا يعرف أو لا يميز إلا ما كان محسوساً مشاهدا ، وذلك لغياب الفطنة عنه على نحو ما نجد في قول الفرزدق يهجو جريرا :

أُولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جريرُ المَجَامِعُ

وبيت الفرزدق هذا وقد استخدم فيه اسم الإشارة الموضوع للإشارة إلى البعيد يسلمنا إلى استخدام بلاغي آخر لأسماء الإشارة . فقد تكون الإشارة بالقرب مثلا من أجل تحقير المشار إليه والحط من شأنه، لكنها -وكما أشرنا إلى ذلك فيما مضي- قد تأتي بالنقيض فتدل على التعظيم والتفخيم . ومثل هذا يقال في اسم الإشارة إذا كان للبعيد فقد يكون في هذا البعد تعظيم للمشار إليه . وقد يكون العكس .

وفي بيت الفرزدق السابق علاوة على ما فيه من التعريض بغباوة السامع كما ألمحنا نجد فيه تعظيما لآبائه ، وذلك من خلال اسم الإشارة « أولئك » .

ولكن الإشارة بالبعيد قد يكون فيها إبعاد للمشار إليه عن تقدير المتكلم واعتباره وتحقير لأمره . على نحو ما نجد في قوله تعالى : ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ .

ومما جاء التعظيم فيه بالبعد قوله تعالى : ﴿ آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فذلكن الذى لمتنني فيه ﴾ فهى لم تستخدم الإشارة للقريب مع أنه ماثل أمامها وأمامهن ، وذلك تعظيما لشأنه ، وإعلاء لقدره .

وكما يستخدم اسم الإشارة للبعيد فى التعظيم حينا ، والتحقير حينا يحدث ذلك فى اسم الإشارة الموضوع للقريب ، فإننا نجد فى بعض الأساليب هذا الاسم وقد قصد به التحقير على نحو ما جاء فى الذكر الحكيم على لسان قوم إبراهيم عليه السلام : ﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾ ورد إبراهيم عليه السلام عليهم هذا الاحتقار باحتقار هذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر واحتقار العقول التى لا تعى ما ينفعها أو يضرها : ﴿ فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

ومن بلاغة القرآن الكريم أن اسم الإشارة « هذا » يستخدم فى هذه الآية مرتين : مرة على لسانهم يسألون عمن حطم آلهتهم وهزأ بها وبهم . وهنا يفيد الاسم التعظيم والتهويل : ﴿ من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ ويكون الرد المحتقر المستهزىء بالعابدوالمعبود: ﴿ فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ فيدل اسم الإشارة إلى التحقير والاستهانة .

ومما ورد فى استعمال اسم الإشارة « هذا » دالا على التحقير تارة والتعظيم أخرى . ما ورد فى القصة التى وقعت بين الفرزدق ، ورجل من أهل الشام أراد أن يتجاهل على بن الحسين . فسأل هشاما : من هذا ؟ فأجاب الفرزدق بقوله :

هذا الذى تعرفُ البطحاءُ وَطْأَته ... والبيتُ يَعْرِفُهُ والحلُّ والحرمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلِّهــم ... هذا التَّقىُّ النَّقىُّ الطاهرُ العلَمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلهـا ... إلى مكارمِ هذا ينتهى الكـرمُ

يكادُ يمسكه عرفانَ راحتــه ركنُ الحطيم إذا ما راح يَستلِمُ
ما قالَ لَا قطّ إلا فى تَشهُّدِهِ لولا التشهدُ كانت لاؤه نَعَــمُ
يُغضِى حياءً ، ويُغضَى مِن مَهَابَتِهِ فما يُكَلَّمُ إلا حينَ يبْتَسِــمُ

وقد استخدم اسم الإشارة « هذا » الموضوع للإشارة للقريب ، والذى يحمل فى طياته نوعاً من الحط من شأن المشار إليه . وقد حدث هذا من السائل عندما قال : من هذا ؟ واستفز بذلك قريحة الشاعر الممتلىء بحب آل البيت ففاضت نفسه ، واستخدم نفس اسم الإشارة لكن ليشيد بالمشار إليه ويرفعه . وقد كرر هذا الاسم ، وأضفى التكرار لونا من القوة والتماسك على هذه القصيدة .

ومما يلفت النظر فى هذه القصيدة غير هذا الاستخدام الموفق لاسم الإشارة ، والذى ميز المشار إليه أكمل تمييز ، وأضاف إليه هذه الصفات العظيمة التى تجعل المدح فى أعلى درجاته أن الشاعر قد تغلب على التكرار فى كلمة لا تعد من الكلمات الشعرية هى « هذا » ولولا قوة شاعريته وما كان يمتلىء به من حب آل البيت ما استطاع أن يحقق مثل هذا النجاح .

ونلاحظ من صفات الممدح التى أطلقها الشاعر على زين العابدين هذا الاشهار الذى لم يقف عند ناحية دون أخرى . فالبطحاء تعرفه ، ومعرفتها له عن طريق شجاعته وقوة بأسه والبيت يعرفه ... ومعرفته تتمايز عن معرفة البطحاء . لأن البيت يعرفه عابدا زاهدا طائعا مؤديا شعائره ، ومعظما حرماته .

وقريش تعرفه ... وهى ذروة العرب ، وموطن السيادة فيهم ، أى أن السادة يعرفونه ، ومعرفتهم له ، أنه الغاية التى تنتهى إليها كل سيادة ... فهو ابن خير عباد الله كلهم ، وإلى مكارمه ينتهى الكرم ، وعند سيادة قومه تتضاءل كل سيادة .

وهو كريم يعرفه أصحاب الحاجات ... وكرمه عم كل شيء . حتى إن ركن الحطيم يكاد يمسكه إذا ما جاء يستلمه عرفانا بكرمه ، وإقرارا بسخائه ... وفى هذا البيت نقف أمام نقطتين بلاغيتين بارزتين أولاهما استخدام الفعل « يكاد » وهو يفيد القرب الشديد لتحقق الفعل ، وإن لم يتحقق ، وقد استخدمه الشاعر الاستخدام الصحيح فلم يقترن جوابه « بأن » .

والنقطة الثانية : تقديم متعلقات الفعل على الفاعل « يكاد يمسكه عرفانَ راحته ركن الحطيم .. إلخ » . فقد قدم « عرفان راحته » على الفاعل « ركن الحطيم » . وفى هذا توجيه الاهتمام إلى كرمه وسخائه .

ومما جاءت الإشارة بالقريب فيه للاستخفاف والتحقير ، والتقليل من القيمة ما يقوله الذهلول بن كعب العنبرى على لسان امرأته :

تقولُ – وَدَقَّت صَدْرَها بِيَمينها–   أَبَعْلِيَ هَذَا بالرَّحَى المتقاعِسُ

فالمرأة ترى زوجها فى منزلة دنيا ، يقوم بالأعمال التى لا تليق بالعلية والسادة من القوم وأنه قد فجأها ، وأثار دهشتها وعجبها من حالته التى هو عليها . ولا يظهر الجمال فى البيت ما لم نتخيل تلك الحركة التى قامت بها المرأة حين رأته – ودقت صدرها بيمينها – وما أعقبها من التساؤل الذى يصور الدهشة الشديدة ، ويجسد الغرابة . ولما كان هذا شأن المرأة وموقفها منه ، وصورته عندها . أراد أن يبين لها قيمته ، وأنه ليس كما ترى . فقال :

فقلتُ لها لا تعجَبِى وتبيَّنِى   بَلَائِى إذا التفت علىّ الفوارسُ

ومن خصوصيات التعبير باسم الإشارة تشخيص المعنويات وتجسيدها ، ووضعها تحت دائرة الحس وقد جاء هذا فى القرآن الكريم ، وفى جيد الشعر ، فمما جاء منه فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ قالوا أئذا متنا وكنا ترابا

وعظاما أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾[1]. فقد أشاروا إلى البعث وهو من الأمور المعنوية ،وأدى ذلك إلى تمثيله ، وكأنه منظور .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ يقلب الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾[2] .

ومما جاء منه فى الشعر قول عبد الله بن الدمينة :

أبينى أفى يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِني فأفرحَ أم صَيَّرتِنى فى شِمَالِـكِ
أبيت كأنى بين شقَّيْنِ مِنْ عَصًا حَذَارَ الرَّدَى أو خيفةً من زِيَالِكِ
تَعَالَلْتِ كَىْ أُشْجَى وَمَا بِكِ عِلَّةٌ تُرِيدِينَ قتْلِى !! قَدْ ظَفِرْتِ بِذَلِكِ

ومن الأغراض التى يذكرها البلاغيون لاسم الإشارة أن يذكر قبل المسند إليه اسم ، ثم يتلى بأوصاف على أن ما يرد بعد اسم الإشارة يجعله جديرا بهذه الأوصاف . وذلك كما نجد فى قوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المهتدون ﴾[4] .

ففى الآية الأولى ذكر الاسم الموصول « الذى » وهو المسند إليه . ثم أتبع بعدد من الصفات هى أن الذين تتحدث عنهم الآية وهم اليهود .. ينقضون العهود

(١) المؤمنون : ٨٢،٨٣ .
(٢) النور : ٤٤ .
(٣) البقرة : ٢٧ .
(٤) البقرة : ١ – ٤ .

بعد ان يكونوا قد أوثقوها ، وابرموا عقدها ... ويحنثون فى أيمانهم التى أكدوها ... ويقطعون الصلات التى أمر الله أن يصلها الإنسان ، كما أنهم يسيرون فى الأرض بغير ما أراد الله ، فقد أراد الله الصلاح فى الأرض لكنهم يفسدون فيها ، ثم بعد ذكر هذه الصفات جاء اسم الإشارة ليبين أنهم يستحقون ما حل بهم ، وما ينتظرهم .

وفى الآية الثانية حديث عن المتقين الذين يخافون ربهم ويخشونه ، ويسيرون فى الأرض بمنهجه وهو منهج التقوى والصلاح – لهذا يكون مآلهم غير مآل هؤلاء اليهود ، وما يستحقونه من الجزاء هو من جنس ما قاموا به من الأعمال ... فهؤلاء المتقون – يؤمنون بالغيب . وهذا أقوى إيمان ، ويقومون بما يجب عليهم القيام به– فهم يؤدون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويعلمون أن المال مال الله هو الذى أنعم به وهو صاحبه ، ولهذا ينفقون هذا المال فى سبيل الله . ثم يأتى اسم الإشارة بعد هذه الصفات « أولئك » ليبين أنهم يستحقون ما يأتى بعده من أنهم على هدى من ربهم ، وأنهم المفلحون ... وإذا كان اسم الإشارة قد جاء فى الآيتين واحدا [أولئك] فإنه فى الآية الأولى دليل على بعدهم من رحمة الله ومغفرته وفضله . وفى الآية الثانية دليل على بعد منزلتهم وعلوها .

ومن الأمثلة التى يأتى بها البلاغيون ليمثلوا بها على هذه الحالة . أعنى بها ذكر اسم تعقبه صفات ثم يأتى بعد هذه الصفات اسم الإشارة ليدل على أن هذا الاسم استحق ما جاء بعد اسم الإشارة من تعقيب لاتصافه بالصفات السابقة . قول أحد الصعاليك :

وللهِ صُعْلُوكٌ يُساوِرُ هَمَّـهُ   وَيَمْضِى على الأَحداثِ والدَّهْرِ مُقْدِما
فَتَى طلباتٍ لا يرى الخمص تَرْحَةً   ولا شَبْعَةً إنْ نالَها عَدَّ مَغْنَما
إذا ما رأى يوما مَكَارِمَ أَعْرضَتْ   تيمَّمَ كِبراهنَّ ثُمَّتَ صَمَّمَا

يرى رُمْحَهُ أو نَبْلَهُ وَمِجَنَّهُ وَذَا شُطبٍ عَضْبِ الضريبةِ مِخذمَا
وأحناءَ سَرجٍ فاترٍ ولجامـه عتاد أخى هيجا وطرفا مُسوَّمَا
فذلك إنْ يَهْلك فحسنى ثناؤه وإن عاشَ لم يَقْعُد ضعيفاً مُذَمَّمَا

فقد ذكر أولا الاسم « الصعلوك » فقال : ولله صعلوك . ثم أخذ فى عدّ صفات له ، وأولها أنه يتخطى همومه ويشب عليها ، ويساوره همه من المعانى المجازية ، كما أنه يمضى على الأحداث . وما أكثر الهموم التى يتحملها الصعلوك وتتجمع عليه ، إنها لكثيرة ، وليس كل واحد بقادر على تحملها ، فما بالك بتجاوزها ومثل ذلك يقال فى الأحداث التى تصادفه ، أو التى يخلقها خلقا .

إن من بين همومه الكثيرة مطالبه العظيمة فى الحياة ، تلك التى يلح فى طلبها ولا يتنازل عنها ، إنه حين تعرض له المكارم لا يقنع بغير كبراهن يولى وجهه شطرها ، ويصمم على أن ينالها ، وهو متوازن السلوك ، لا يبطره الغنى – ولا يقعده الجوع ، كما أنه لا ينظر للحياة بوصفها مجرد مطعم إن حصل عليه فقد حقق مراده . وهكذا يمضى فى الأوصاف فهو يرى سلاحه المتمثل فى رمحه ونبله وسيفه ومجنه ، وفرسه وعتاده وعدته . وبعد أن ينتهى من هذه الأوصاف يعقب باسم الإشارة « فذلك » ليبين أن من يتصف بهذه الأوصاف التى أشار إليها يستحق ما يشير إليه بعد ذلك من الصفات .

يقول الخطيب القزوينى فى تعقيبه على هذه الأبيات : « فقدّم له كما ترى خصالا فاضلة من المضاء على الأحداث مقدما ، والصبر على ألم الجوع ، والأنفة من عدّ الشبع مغنما ، وتيمم كبرى المكرمات ، والتأهب للحرب بأدواتها ، ثم عقب بقوله : فذلك ، فأفاد أنه جدير باتصافه بما ذكر بعده »[1] .

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة . ط دار الجيل ٢٦ .

التعريف باللام :

يطيل البلاغيون الحديث فى المعرف باللام ، أو بالأحرى يطيلون الحديث فى ال وعما إذا كان للعهد أو الاستغراق ، ولو اقتصروا على ذلك لهان الأمر ، ولكان هناك ما يدعو لذكرها فى الإسناد لأن لهذا الذكر دخل فى بلاغتها . لكن إطالة الحديث جعلهم يخلطون البلاغة بالفلسفة ، بالأصول ولم نجد واحدا منهم ذكر أحد الأمثلة التى عرف فيها المسند بالألف واللام وأوقفنا على نكتة بلاغية حدثت بسببه .

وسوف أحاول تبسيط هذه النقطة ، وتقريبها بقدر المستطاع .

وأول ما نجد فى هذه الوسيلة من وسائل التعريف أنها قد تأتى للإشارة إلى المعهود بين المتكلم والمخاطب . كأن يقول لك قائل : جاءنى رجل من قبيلة كذا ، فتقول له : ما فعل الرجل . « فأل » فى الرجل أشارت إلى هذا الذى بينك وبين محدثك عهد فيه .

وهم يقسمون العهد إلى ثلاثة أقسام : العهد الصريحى ، هو أن يتقدم اسم صريح ، ثم يأتى بعد ذلك وقد دخلت عليه اللام كالمثال الذى سبق ... فقد قال إلك محدثك : جاءنى رجل من قبيلة كذا . ثم أعدت ذكره باللام فقالت : ما فعل الرجل . ومن هذا النوع من العهد الصريحى قوله تعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ﴾[1] فقد ذكر المصباح والزجاج منكرين ثم أعيدا معرفين باللام .

الثانى : العهد الكنائى : وهو أن يتقدم ذكرها مبهما فلا يصرح به ، ولكن يشتمل الكلام على نوع من القرنية تبينه . وذلك كقوله تعالى : ﴿ وليس الذكر

(١) النور : ٣٥ .

كالأنثى ﴾(1) فلم يتقدم الذكر صراحة فى الكلام لكن دلت عليه [ما] فى قوله تعالى : ﴿ رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا ﴾ فقد أرادت أن تقف ما فى بطنها على خدمة بيت المقدس . وذلك لم يكن متحققا إلا للذكور . ويدل على ذلك ما تشعر به الآية من الأسف فى قولها : ﴿ إنى وضعتها أنثى ﴾ .

الثالث : العهد العلمى : وهو ما يكون ما دخلت عليه معلوما عند المخاطب . سواء كان حاضرا أم لا . وذلك نحو قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾(2) فالشجرة معلومة عند المخاطب بالآية . ونحو قوله تعالى : ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار ﴾(3) فالغار معروف معلوم عند المخاطب أيضا .

وقد يشار بها إلى الحقيقة . وهى أنواع أيضا :

أولا : لام الحقيقة : وهى ما يشار بها إلى الحقيقة دون نظر إلى عمومها أو خصوصها . وتسمى بلام الجنس وهم يمثلون لها بقولهم : « أهلك الناس الدينار والدرهم » وشربت الماء . فالمعنى أهلك الناس جنس الدينار والدرهم ، وشربت جنس الماء .

ثانيا : لام الحقيقة فى ضمن فرد مبهم إذا قامت القرينة على ذلك . يقول الخطيب : « والمعرف باللام قد يأتى لواحد باعتبار عهديته فى الذهن لمطابقته الحقيقة كقولك : أدخل السوق ، وليس بينك وبين مخاطبك سوق معهود فى الخارج . وقوله تعالى : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ . ومدخولها كالنكرة ، ولهذا يعامل معاملتها فيوصف بالجملة كما توصف النكرة .

---

(1) آل عمران : 36 .
(2) الفتح : 18 .
(3) التوبة : 40 .

كقول الشاعر :

ولقد أمرُّ على اللئيم يَسُبُّني فمضيت ثمت قلت لا يَعْنِيني

فجملة « يسبني » صفة للمعرف بأل . وليست حالا ، وذلك لأن هذا المعرف كما قلنا يقرب من النكرة ، ويعامل معاملتها .

ثالثا : لام الحقيقة فى ضمن جميع الأفراد التى يتناولها اللفظ بحسب معناه اللغوى . وتسمى لام الاستغراق الحقيقى أو الشمول . وأما دليل الشمول فهو :

(أ) قرينة حالية : نحو قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى كل غيب وكل شهادة .

(ب) قرينة مقالية : نحو : ﴿ إن الإنسان لفى خسر ﴾ أى كل إنسان . والدليل على ذلك الاستثناء الذى يعقبها : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ .

رابعا : لام الحقيقة فى ضمن جميع الأفراد التى يتناولها اللفظ بحسب متفاهم العرف . كأن تقول : جمع الأمير العلماء . فالعرف يحدد العلماء بأنهم الموجودون فى دولته ، وليس كل العلماء فى الأرض .

ومما يتعلق بالتعريف باللام ما ورد عنهم من قولهم : (استغراق المفرد أشمل من استغراق غيره) أى أن أداة الاستغراق كاللام ، أو النفى إذا دخل على اسم الجنس المفرد كان الاستغراق أو النفى أشمل من المثنى أو الجمع إذا دخلت عليهما تلك الأداة . وذلك لأن المفرد يتناول كل واحد من الأفراد ، والمثنى يتناول كل اثنين اثنين ، والجمع يتناول كل جماعة جماعة . ولذا يصح : لا رجال فى الدار إذا كان فيها رجل أو رجلان . وعدم صحة قولك لا رجل إذا كان فيهاواحد أو اثنان من هذا الجنس .

التعريف بالإضافة :

يذكر البلاغيون للتعريف بالإضافة بعض المزايا التى تحدث فى الكلام . ومن بين هذه المزايا :

١ – ألا يكون للمتكلم طريق أخصر فى إحضاره من هذا الطريق ، والمقام يقتضى الاختصار وذلك كقول علبة بن جعفر الحارثى وكان مسجونا بمكة ، ووردت عليه صاحبته فى ركب ثم مضوا سريعاً :

هواى مع الركبِ اليمانين مُصْعِدٌ ... جنيبٌ وجثمانى بمكةَ مُوثَقُ

فقوله : « هواى » أخصر من الذى أهواه . ومقامه فى الحبس لا يتسع لإفاضة القول .

٢ – أن تغنى الإضافة عن تفصيل يتعذر القيام به . كقول الشاعر :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها فى غيل خفان أشبل

فقد أراد بقوله « بنو مطر » قومه . وحين يريد ذكرهم يتعذر عليه الأمر .

ومنه قول حسان بن ثابت :

أولادُ جفنةَ حولَ قبرِ أبيهم ... قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المفضلِ

وقد يكون التعذر راجعاً إلى الكثرة . كأن تقول : سكان القاهرة ، أو سكان الدوحة يفعلون كذا وكذا .

أو يكون التعذر فى التفصيل راجعاً إلى صعوبة تقديم أحد على الآخر ، كأن تقول : أساتذة الجامعة يقومون بهذا الأمر .

٣ – أن يكون فى الإضافة تعظيم لشأن المضاف أو المضاف إليه . وذلك كقول الله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾[١] فقد شرف المضاف بإضافته إلى الخالق سبحانه. ومثل قوله تعالى: ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾[٢].

وقد تكون للتحقير كقولك : « عبد السوء جاء » .

٤ – أن يكون الإضافة حثا على الاهتمام وتحريضًا عليه . نحو قولك : « صديقك عندك » .

٥ – أن تكون تحريضا على الإذلال . نحو : « عدوك عندك » .

٦ – أن تكون للاستهزاء . على نحو ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾[٣] .

تنكير المسند إليه :

بعد أن فرغنا من تعريف المسند إليه ، وما يكسبه هذا التعريف من مزايا تعود على الأسلوب وتكون أوقع فى التعبير عن الموقف الذى تساق فيه . نأتى إلى التنكير وما يكسبه للكلام إذا اقتضاه الموقف .

وقد تحدث عبد القاهر الجرجانى عن بعض المواقف التى أكسبها التنكير قوة ، وأضفى فيها على القول جمالا وروعة . على نحو ما فعل فى قوله تعالى : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾[٤] يقول : « إذا راجعت نفسك ، وأذكيت حسك ، وجدت لهذا التنكير ، وأن قيل (على حياة) ولم يقل على

---

(١) الجن : ١٩ .
(٢) الحجر : ٤٢ .
(٣) الشعراء : ٢٥ .
(٤) البقرة : ٩٦ .

الحياة حسنا وروعة ، ولطف موقع لا يقادر قدره ، وتجدك تعدم هذا مع التعريف وتخرج من الأريحية والأنس إلى خلافها »[1] .

كما يحدثنا عما أضفاه التنكير من الجمال في قول الشاعر :

فلو إذ بنا دهرٌ وأنكر صاحبٌ   وسلَّطَ أعداءٌ وغابَ نَصيرُ

وللتنكير معنيان أساسيان : الأول : إفادة معنى النكرة أي النوعية . والثاني : الإفراد ، فإذا ما أطلقت النكرة ولم يكن في الحال أو الكلام ما يصرفها إلى أحد المعنيين دلت عليهما . وذلك على نحو ما نجد في قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾[1] فلفظ « دابة » يصلح للإفراد أو النوعية فيكون المعنى خلق كل نوع من أنواع الدواب ، وجنس من أجناسه من نوع من أنواع المياه وجنس من أجناسه[2] .

لكن قد يأتي في الكلام أو يدل الحال على تخصيص النكرة بمعنى من المعنيين . وذلك كما نجد في قوله تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾[3] فلفظ « اثنين » بين أن المراد هنا العدد وليس النوع .

وللزمخشري توضيح لهذا[4] . فهو يبين أن جمع العدد والمعدود في غير الواحد والاثنين إنما جاء لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص . لكن الواحد والاثنين يأتي فيهما المعدود بلفظه ، فيقال : رجل ورجلان . فما وجه الجمع بينهما في قوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ وهو يجيب على هذا التساؤل بأن الاسم الحامل لمعنى الإفراد أو التثنية دالّ على الجنسية والعدد

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٨٢ .

(١) النور : ٤٥ .

(٢) خصائص التراكيب : ١٦٤ .

(٣) النحل : ٥١ .

(٤) الكشاف : جـ ٢ ، ٤١٣ .

المخصوص . فإذا أردت الدلالة على أن المعنى به عنهما والذى يساق له الحديث هو العدد شفع ذلك بما يؤكده . وهذا ما حدث فى الآية الكريمة . لأن التنكير فى إلهين صالح لإرادة العدد ، وصالح لبيان النوعية ، فلما أراد به العدد وصفه باثنين .

وحين يكون المراد بالتنكير النوع أى الجنس ، يؤتى بعد النكرة بوصف يدل على ذلك كقوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾[1] فقد وصفت « دابة » بالجار والمجرور بعدها ، ووصف « طائر » بالجملة الفعلية « يطير » فدل ذلك على أن المراد بالنكرة هنا النوع والجنس ، وليس العدد .

وقد لا يأتى بعد النكرة وصف يوجه المقصود بها إلى بيان الإفراد أو النوع ، ولكن يدل المقام على ذلك. فعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ نجد المقام يحدد لنا أن المراد واحد من جنس الرجال ، وفرد من هؤلاء الأشخاص . ويبدو الأمر على خلاف ذلك حين نقرأ قول الله سبحانه : ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ فإن المرادة بالنكرة « غشاوة » لابد أن يكون نوعًا من الغطاء . يقول الخطيب تعليقا على هذه الآية : « أى نوع من الأغطية غير ما يتعارفه الناس وهو غطاء التعامى عن آيات الله »[2] .

ويتفرع عن المعنيين الأساسيين اللذين ذكرا للتنكير أمور أخرى سواء كانت النكرة مسندا إليه أو مسندا ، أو وقعت غير هذا وذاك . وربما كان من المناسب أن نستجلى الأمر حول التنكير بصفة عامة . لكن يدفعنا إلى غير ذلك الخشية من الانسياق وراء الإحاطة بالموضوع فى الوقت الذى خصصنا فيه المسند إليه بالحديث . لكن غالبا ما يذكر البلاغيون بعض الأسباب فى المسند .

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

(٢) الإيضاح : ٢٩ .

ومن الأمور التي يذكرها البلاغيون لتنكير المسند إليه . ما تدل عليه النكرة من التعظيم أو التحقير . وقد اجتمعا في قول أبي السمط :

له حاجبٌ في كلِّ أمرٍ يَشينُهُ ... وليس له عن طالبِ العرفِ حاجبُ

فقد تكررت كلمة « حاجب » منكرة في شطري البيت . وهي في الشطر الأول تدل على التعظيم فالحاجب الذي يحول بينه وبين الصغائر التي تحط من قدره ، وتقلل من قيمته لابد أن يكون حاجبا عظيما لا يسمح بأن ينفذ إليه شأن منها مهما صغر . لكنها في الشطر الثاني تدل على التحقير ذلك لأنه يبين من خلال هذه النكرة أن أصحاب الحاجات يجدون طريقهم إليه ، لا يحول بينهم وبينه حاجب مهما كان صغيرا أو حقيرا . ولقد حدد السياق ما تدل عليه النكرة في كل من شطري البيت .

ويأتي المسند إليه نكرة ليدل على أن موضوع الحديث منكور مجهول . وذلك على نحو ما ورد في قول إبراهيم بن العباس الصولي ، يمدح محمد بن عبد الملك الزيات. وكانت قد تغيرت حاله ، وتنكر له أصحابه على ما عُهِدَ في الناس حين يصاب امرؤ بالمحنة ، فينصرف عنه الذين كانوا يتقربون إليه . على نحو ما يمثل قول الشاعر :

والناسُ مَنْ يلقَ خيرا قائلون له ... ما يَشْتَهِي ولأُمِّ المخطيءِ الهَبَلُ

وهذا جانب من جوانب النقص البشري عبر عنه البحتري في سينيته عندما قال :

ولقد رابني نُبُوُّ ابنُ عَمِّي ... بَعْدَ لينٍ مِنْ جانبيه وَأُنْسِ

يقول إبراهيم بن العباس :

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسلط أعداءٌ وغاب نَصيرُ

تكون من الأهواز داري بنجوة ولكنْ مقادير جرت وأمورُ
وإني لأرجو بعد هذا محمـــدا لأفضل ما يرجـى أخٌ ووزيـرُ

وقد ذكر عبد القاهر الجرجانى هذه الأبيات ، واستدل بها على نظريته فى النظم ، حيث أرجع حسن الشعر وجماله ورونقه إلى نظم الأبيات ومجيئها على النحو الذى وردت عليه . ومن ذلك تقدم الظرف على عامله ، ومجىء الفعل مضارعًا وليس ماضيا « تكون » وتنكير الدهر ، وإتباع هذا التنكير بالتنكير فى غيره .

وأضيف إلى ما ذكره فى تنكير الدهر . من أنه يفيد أن هذا دهر منكور ليس كما كان يعرفه حين كانت الدنيا مقبلة عليه – وأما تنكير صاحبه ، وقد أراد بها أن يقول : « وأنكرت صاحبا » أى لم يعد هذا الصاحب أيضا كما كان . فقد تغير حاله معى ، وتبدلت معاملته ، ولم يضفه إلى نفسه حتى لا يسند إلى نفسه الإنكار .

كذلك وردت عدة ألفاظ فى الأبيات منكرة ، ولكل منها شأن من خلال هذا التنكير ، فالأعداء ، تفيد النكرة فيه التكثير ، وغياب النصير ، تفيد التقليل ، أى وغاب النصير ، على قلته وندرته . وكذلك القول فى مقادير .. فهى مقادير مهولة ، وأمور عظيمة تلك التى مرت عليه وبدلت حاله من العز إلى البؤس والشقاء .

ويأتى التنكير دالا على التكثير . وذلك كقوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسلٌ من قبلك ﴾[1] كما يفيد معنى التقليل فى مثل قوله تعالى :

---

(١) آل عمران : ١٨٤ .

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾[1] . ففى الآية يشير تنكير الرسل إلى أن كثيرا من الرسل حدث لهم ما حدث لرسول الله ﷺ من تكذيب أقوامهم لهم . وهذا يكون فيه تسلية لرسول الله ﷺ .

ويفيد التنكير فى الآية الثانية التقليل أى أن شيئا قليلا من رضوان الله سبحانه أكبر من كل نعيم يتمثل فى الأمور التى تضمنتها الآية .

وإفادة النكرة للتعظيم أو التحقير ، أو التكثير والتقليل ، يكشف عنه السياق ويبينه ، ويهتدى إليه الحس المدرب الذى صقلته الأساليب الجيدة ، وعرف مسالك القول فيها وليس يخفى على صاحب الحس الدقيق أن التنكير فى قوله تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾[2] . ما تدل عليه من القلة والندرة ، وهى على الرغم من قلتها وندرتها تصيبهم بالهلع ، وتجعلهم يجأرون بالخوف ويصيحون : يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين .

---

(١) التوبة : ٧٢ .
(٢) الأنبياء : ٤٦ .

القول فى التقديم والتأخير

قدمنا ما ذكره ابن جنى فى شجاعة العربية ، حيث قلنا إنه أرجع شجاعة هذه اللغة إلى عدة أمور هى : الحذف ، والزيادة ، التقديم والتأخير ، والحمل على المعنى والتحريف .

وقد سبق الحديث على الحذف . ونتناول هنا هذا الباب الذى يعد من الجوانب المهمة فى دراسة الأسلوب فى هذه اللغة .

والحق أن الوقوف على أهمية هذا الباب ، والكشف عن بلاغته مما لا يتسنى لكثير من الدارسين ذلك لأن هؤلاء آثروا السلامة - كما هو شأنهم - ولم يحاولوا إماطة اللثام عن روعة هذا الأمر وما يكون له من شأن . وقد أدرك عبد القاهر الجرجانى ذلك فقال : « وقد وقع فى ظنون الناس أنه يكفى أن يقال : إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ، ولم كان أهم ، ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير فى نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه - حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف ، ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه » .

ولم يكن شأن هذه الطائفة من الناس يقف عند هذا الباب ، فقد امتد إلى غيره من الأبواب وذهب بهم ذلك إلى عدم معرفة البلاغة - كما يقول عبد

القاهر – ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها ، وصد وجههم عن الجهة التى هى فيها ، والشق الذى يحويها »[1]

وَيَعُدُّ عبد القاهر تلك الآفة من أعظم الآفات التى تدخل على أهل العلم وتحول بينهم وبين المعرفة الصحيحة . وذلك على كثرة هذه الآفات .

ويقرر « عبد القاهر » أن هذا الباب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعة ، ويفضى بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شىء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان »[2] .

ولما كان هذا شأن التقديم والتأخير فقد أولاه عبد القاهر عنايته ، وفصل القول فيه . وقد بدأ الحديث فيه ببيان أنواع التقديم وما تكون عليه ، ورأى أن التقديم على نوعين . نوع يكون التقديم فيه على نية التأخير ... أى أن هذا التقديم لا يخرجه عن بابه ، ولا يحوله عن أصله . وذلك كأن تقدم الخبر على المبتدأ مثلا فقلت فوق الشجرة طائر ، أو قدمت المفعول على الفاعل فقلت قطف الزهرة على ، فقد بقى المبتدأ مبتدأ والخبر خبرا فى المثال الأول . وبقى الفاعل فاعلا والمفعول مفعولا فى المثال الثانى أما النوع الثانى من التقديم فهو ما يخرج فيه المقدم عن أصله ويحول عن بابه » ، ويأخذ حكما جديدا . وذلك فى الخبر المعرفة . نحو قولك : زيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، فحين قدمنا الخبر لم يعد خبرا وإنما صار مبتدأ ، وصار زيد الذى كان مبتدأ خبرا . ومثل تقديم المفعول فى قولنا ضربت زيدا .. فإننا حين نقدم فنقول : زيد ضربته . يتحول المفعول إلى مبتدأ خبره الجملة الفعلية بعده ويعمل الفعل فى ضميره .

(١) دلائل الإعجاز : ١٢٩ .
(٢) السابق : ١٢٧ .

الأصل فى التقديم :

البلاغيون بصفة خاصة ، وأهل اللغة بصفة عامة يقرون فى هذا الباب ما يشبه الأصل . ويجعلون ما يأتى بعد ذلك متفرعًا عليه . ويحدد عبد القاهر الجرجانى هذا الأصل بما أطلق عليه « العناية والاهتمام » فالمقدم عندهم هو ما كان موضع الاهتمام ، وما كانت العناية به أشد . يقول : « واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا شيئا يجرى مجرى الأصل غير العناية والاهتمام . قال صاحب الكتاب[1] . وهو يذكر الفاعل والمفعول : « كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعنَى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم »[2] لكن عبد القاهر لم يكتف بهذا القول الذى يتصف بالعموم ، ورأى ضرورة أن يُعَرف من أين تأتى العناية ، ولم كان الاهتمام . ذلك لأن الوقوف عند القول بالعناية والاهتمام دون اتصال المعرفة بما وراء ذلك دفعهم إلى التهوين من شأن العلم وقدره . وهو لهذا السبب يفصل القول فى التقديم والتأخير ويجعل من الخطأ النظر إلى الأمر نظرتين مختلفتين ، فتارة تكون للتقديم فائدة مذكورة ومنصوص عليها ، وأخرى غير موجودة . إنهم يعللون التقديم مرة بالعناية ، لكنهم فى أخرى يجعلونه مجرد توسعة على الشاعر والكاتب . حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذلك سجعه « ومن البعيد — عنده — أن يكون فى جملة النظم ما يدل تارة ، ولا يدل أخرى . فمتى ثبت من تقديم المفعول مثلا على الفعل فى كثير من الكلام أنه قد اختص بفائدة لا تكون مع التأخر . فقد وجب أن تكون تلك قضية فى كل شىء وكل حال . ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء أن يدعى أنه كذلك فى عموم الأحوال ، فأما أن

(١) يشير إلى سيبويه .
(٢) دلائل الإعجاز : ١٣٨ .

يجعله بَيْنَ بَين ، فيزعم أنه للفائدة فى بعضها ، وللتصرف فى اللفظ من غير معنى فى بعض فمما ينبغى أن يرغب عن القول به »[٣] .

ويأخذ بعد هذا فى التدليل على ما ذهب إليه ويذكر بعض المسائل التى لا يمكن التسوية فيها بين ما يتم التقديم فيه وتأخيره .

ومن أول المسائل التى يقدمها الاستفهام بالهمزة . والفرق الواضح حين يليها الاسم وحين يليها الفعل .

فهمزة الاستفهام حين يليها الفعل فتقول : « أفعلت » يكون الشك فى الفعل نفسه ويكون الغرض من الاستفهام معرفة ما إذا كان هذا الفعل قد وقع أم لا .

لكن حين يليها الاسم ، فتقول : « أأنت فعلت » يكون الشك فى الفاعل من هو ، ويكون التردد فيه . ويترتب على ذلك أن وضع إحدى الطريقتين مكان الأخرى يؤدى إلى الخطأ وليس يخفى الفساد فى القول مثلا لآخر : « أأنت قلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله » ذلك لأن الشعر فى هذا الكلام موجود . ومثله فى الفساد أكتبت هذا الكتاب ؟ إذ أن مجىء الفعل بعد الهمزة شكٌّ فى وقوعه . والإشارة إليه تأكيد لوجوده . وفى هذا ما فيه من الفساد[٤] وبعد أن يفرغ من توضيح التقديم والتأخير مع همزة الاستفهام التى للتقرير . يأخذ فى بيان التقديم مع النفى . فيبين أنك حين تقدم الفعل وتجعله تاليا للنفى فتقول . ما فعلت تكون قد نفيت فعلا لم يثبت أنه مفعول . وإذا قلت ما أنا فعلت . تكون قد نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول .

---

(٣) السابق : ١٤٠ .

معنى هذا أن الفعل حين يلى أداة النفى ويتقدم يكون الشك فى حدوثه أو عدم حدوثه فإذا قلت ما ضربت زيدا . كنت قد نفيت عنك ضربه ، ولم يجب أن يكون الضرب قد وقع أصلا وإذا قلت ما أنا ضربت زيدا يكون الضرب قد وقع على زيد ، وأنت تنفيه عن نفسك فقط . ولهذا يصح أن تقول ما قلت شعرا قط ، وما رأيت أحدا من الناس . ولم يصلح فى الوجه الثانى . فلا يصح أن تقول ما أنا قلت شعرا قط ، وما أنا أكلت شيئا ، ونحو ذلك . ومما يدل على أن تقديم الاسم يقتضى وجود الفعل قول المتنبى :

وما أنا أسْقَمتُ جِسْمى بِهِ ولا أنا أضْرَمتُ فى القلبِ ناراَ

فمن الواضح أن السقم ثابت فى الجسم مستقر به ، والضرم فى القلب ، وكل ما قام به الشاعر أن ينفى أن يكون له دخل فى هذا أو ذاك . وكأنه يبين أن ما يحدث له حدث عن طريق غيره ، ودون أن يتسبب هو فيه . وناله ما يناله من السقم والألم .

وبعد أن يفرغ من تقدم المسند إليه مع الاستفهام والنفى ، ويبين كيف تتوقف صحة المعنى فى بعض الصور على ملاحظة المتقدم . ينتقل إلى الحديث عن التقديم والتأخير فى الخبر المثبت . ويبين أن ما ظهر من فائدة للتقديم فى الأمرين السابقين . قائم مثله فى الخبر المثبت .

فعندما يعمد المتكلم إلى تقديم المسند إليه . ويحدّث عنه بالفعل . كأن تقول : « زيد فعله » وأنا قد فعلت ، فإن ذلك يقتضى أن يكون القصد إلى الفاعل « إلا أن المعنى فى هذا القصد ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : يراد فيه تخصيص هذا الفعل بالاسم ، وقصره عليه ، بأن يكون فاعلا له دون غيره . أو حسب عبارة عبد القاهر « أحدها جلىّ لا

يشكل . وهو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له ، وتزعم أنه فاعله دون كل أحد » وهم يمثلون لهذا النوع بقولهم : « أتعلمنى بضبٌ أنا حرشته » وهو مثل يضرب لمن يريد أن يعلم غيره شيئا هو من صنعه وحرش الضب : صاده بالحيلة . وموضع الشاهد فى قوله : « أنا حرشته » فقد تقدم المسند إليه ووليه الفعل ، وقد أفاد القصر على هذا الفاعل .. أى أن أحدا لم يفعله سواه .

والقسم الثانى : لا يقصد به قصر الفاعل على هذا الفعل ، لكن وقوع الفعل منه على التحقيق ودفع أى شك فى أنه منه . ومثاله قولنا : هو يعطى الجزيل ، وهو يحب الثناء . فليس المقصود أنه يفعل ذلك دون غيره . لكن أن ذلك حدث منه . مع تمكين ذلك فى قلب السامع . ومما جاء من الشعر من هذا النوع قول المعذل الليثى :

هم يفرشون اللبد كل طمرةٍ وأجردَ سباحٍ يبذُّ المغاليـا

فهو يصف القوم « بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل ، وأنهم يقتعدون الجياد منها ، وهذا دأبهم »[1] لكنه لا يريد أن ينفى ذلك عن غيرهم ، أو يقصره عليهم . وقد بدأ بذكرهم لينبه السامع ويثير تشوفه إلى ما سوف يتضمنه الخبر ، وبهذا يؤكده فى نفسه ، ويمنع عنه أى شك أو تردد فى قبوله .

ومنه قول الآخر :

هُمُ يضربون الكبشَ يبرقُ بيضُـه على وَجْهِهِ مِنَ الدِّمَاءِ سَبَائِـبُ

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٥٧ .

فهو يمدح قومه ، ويصفهم بالقوة . فهم يضربون رئيس القوم المتحصن فى خوذته ، ويسيلون دمه حتى يتخذ له طرائق على وجه هذا السيد . لكنه لم يزعم أن مثل هذا الضرب لا يكون إلا منهم . لكنه أراد أن يؤكد الأمر ويحققه .

ومن البين فيه . قول عروة بن أذنية :

سليمى أزمعت بَيْنًا فأَيْنَ تَقُولُهَا أَيْنــا

فليس عزمها على أن البعد مما تختص به دون غيرها . لكنه أراد أن يبين أن عزمها على هذا البعد قوى ومؤكد ولا يحتمل الشك .

ومن الأمثلة التى جاءت عليه أيضا قول الآخر :

هما يلبسان المجدَ أحسن لِبْسةٍ شحيحان ما استطاعا عليه كِلَاهُمَا

لقد أراد الشاعر أن يؤكد أنهما ما جدان ، يحيط بهما المجد كما يحيط اللباس بلابسه، وهما يزينان المجد ، وليس أحدهما بأفضل من الآخر فيه . وقد تقدم المسند إليه ، وجاء بعده الفعل لا ليجعله بقيد القصر عليهما . لكن لينبه لهما قبل الحديث عنهما .

ومما جاء من هذا النوع الذى هو للتنبيه والبيان والتقوية قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر ، وهم قد خرجوا به ﴾[2] .

ولا يكتفى عبد القاهر ببيان هذين القسمين ، بل يمضى فى بيان سر التأكيد فى تقديم الاسم على الفعل فيقول : « فإن قلت : فمن أين وجب أن يكون تقديم المحدث

---

(1) الفرقان : ٣ .
(2) المائدة : ٦١ .

عنه بالفعل آكد لإثبات ذلك الفعل له ، وأن يكون قوله : « هما يلبسان المجد » أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال : يلبسان المجد ؟ » .

ويجيب عن هذا التساؤل . بأن الاسم حين يأتي معرى من العوامل يكون ذلك لحديث قد نوى إسناده إليه . ويكون في تقديمه توطئة وتهيئة للذهن لتلقي هذا الحديث ، فإذا ما جاء ثبت في النفس واستقر فيها . فمما لا شك فيه أن الأمر حين يساق بغتة يختلف عنه إذا هيىء له الذهن وقدم له . أو كما يقول عبد القاهر : « وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة ، مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه ، والتقدمة له ، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام ، في التأكيد والإحكام »[1] .

وهذا ما أرجعوا إليه حسن الكلام وفخامته عندما يأتي مضمرا ، ثم يفسر بعد ذلك . على نحو ما نجد في ضمير الشأن . ففي قوله تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾[2] من الفخامة والشرف مالا يوجد حين تأتي بدون الضمير كأن يقال فإن الأبصار لا تعمى . ويلحظ عبد القاهر تحقق هذه الفخامة في كل كلام يسبق فيه الفعل بضمير الشأن . وهو يقارن بين ما يشتمل عليه ، وما يسقط منه الضمير فقوله تعالى : ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾[3] يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ما لا يفيده الكلام لو قيل : إن الكافرين لا يفلحون » .

ويدل على صحة الأقوال السابقة ، وعلى ما يؤديه تقديم المسند إليه والإخبار عنه بالفعل من التوكيد أن ذلك يأتي في بعض المواضع التي تحتاج إلى تقوية الكلام . وذلك يتمثل في مواضع . منها أن يأتي بعد ما سبق فيه إنكار من منكر . وقد علمنا في الحديث عن الخبر أن الإنكار يقتضي توكيد الكلام . فحين

---

(1) دلائل الإعجاز : ١٥٩ .
(2) الحج : ٤٦ .
(3) المؤمنون : ١١٦ .

يأتى من يقول لنا ليس لى علم بالأمر ، يكون الرد عليه مؤكدا فنقول أنت تعلم الأمر ولكنك تميل إلى المراوغة . ومنه قوله تعالى : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ « فهذا أبين شيء ، وذاك أن الكاذب لا سيما فى الدين لا يعترف بأنه كاذب » .

ثانيا : أن يجيء الكلام فيما اعترض فيه الشك . فيؤكد الكلام بتقدم المسند إليه على الصورة التى عرفناها حتى يزيل هذا الشك ، ويثبت الخبر . وذلك على نحو أن يقول لك قائل كأنك لا تعلم ما حدث . فتجيبه : أنا أعلمه ولكنى لا أتكلم .

ثالثا : أن يجيء فى تكذيب مدع . كقوله تعالى : ﴿ وإذا جاؤوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ﴾(1) .

وهذه الآية تتحدث عن حال المنافقين الذين يزعمون الإيمان وقلوبهم ونفوسهم تمتلىء بالكفر وهى تصور هؤلاء المنافقين حين يدخلون على المؤمنين ، أو حين يأتون إليهم فيقولون بأفواههم آمنا ، وهو قول ضعيف واهن لا يتجاوز ألسنتهم ، وتبين الآية أنهم قد دخلوا بالكفر ، فالكفر مستقر فى قلوبهم ولهذا سبق الفعل الماضى « بقد » التى للتحقيق . وهم حين خرجوا من عند المسلمين ازدادوا كفرا ، كما يكشف عن ذلك التوكيد الشديد « بقد التى للتحقيق والبدء بالمسند إليه ﴿ وهم قد خرجوا به ﴾ » .

رابعًا : تأتى هذه التقوية فيما لا يكون القياس فى مثله كقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾(2) وذلك أن

---

(1) المائدة : ٦١ .

(2) الفرقان :

عبادتهم لها تقتضى ألا تكون مخلوقة : فالمعبود لا يكون مخلوقا . ولهذا كأنهم ينكرون مخلوقتيها . فمجيء المسند إليه على هذه الصورة ليرد هذا الإنكار .

خامسًا : يحسن هذا النوع من التوكيد فى سياق الوعد والضمان ، وذلك أن من شأن المرء حين يُوعَدُ بشيء ينتابه بعض الشك ، ويميل إلى عدم التصديق ، فيساق له الكلام على هذا النحو ليثبت فى نفسه ويقوى . كأن تقول : « أنا أتعهد لك بذلك ، وأنا أقوم به » ومنه قوله تعالى : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾[1] .

سادسًا : فيما يستغرب من الأمور ، إذ الأمور الغريبة تدعو إلى الشك ، ويميل المرء معها إلى عدم التصديق ، ولهذا تحتاج إلى مثل هذه التقوية . كأن تقول تصدى للأسد ، وهو يخاف من الهر . ويجود بالكثير وهو يبخل بالقليل ، ونحو ذلك .

سابعًا : فى مجال المدح والفخر . فهذا المجال مما يقتضى تقوية الكلام ، والتأكيد عليه . كقولك ، أنت تحظى بالاحترام والتقدير ، وقول الشاعر :

نحن فى المشتاةِ ندعـو الْجَفَلَـى

ويعلل عبد القاهر لهذه التقوية فى المديح بأن « من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح به ، ويباعدهم من الشبهة ، وكذلك المفتخر » .

فإذا كان الفعل مما لا يشك فيه ، ولا يتأتى إليه الإنكار بحال من الأحوال لم يحتج إلى أن يأتى مبنيا على تلك الصورة التى مضى القول عليها . « فإذا تحدثت بالخروج مثلا عن رجل من عادته أن يخرج كل غداة ، قلت : خرج ، ولم يكن هناك حاجة لأن تقول : « هو قد خرج ، لأن الكلام حينئذ لا يحسن ، ولا

(١) يوسف : ٤٥ .

يتمشى مع الذوق السليم ، ولا ما عرف من وجوب مراعاة الكلام لمقتضيات الأحوال . ولكن إذا وضع الكلام فى سياق آخر فإنه يحسن . كأن تأتى به فى صلة كلام وتضمه بعد واو الحال . فتقول جئته وهو قد ركب . « لأن مثل ذلك الحكم يتغير إذا صارت الجملة فى مثل هذا الموضع ، ويصير الأمر بمعرض الشك . وهكذا يفرق عبد القاهر بين الأساليب وما يحسن فيها وما لا يحسن . فثمة فرق فى قوة الكلام بين قولك جئته وقد ركب ، وجئته وهو قد ركب . وينتهى إلى أن الكلام البليغ هو ما يبدأ عند الشك بالاسم ويبنى الفعل عليه كقوله :

قد أغتدى والطيرُ لَـمْ تكلـم

« فإذا كان الفعل بعد واو الحال مضارعا لم يصلح إلا مبنيا على اسم كقولك : رأيته وهو يكتب ، ودخلت عليه وهو يملى الحديث . وكقول النابغة الجعدى :

تَمزَّزتُها والديكُ يدعو صَبَاحَهُ   إذا مَا بَنُو نعشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا

والنابغة الجعدى يتحدث عن شرابه ليلا ، ويصف هذا الشراب بأنه شراب تلذذ ، فهو يمص الخمر مصا . وهو يظل على هذا ليله حتى يؤذن الديك بالصباح ، وبنو نعش وبنات نعش مجموعة من الكواكب على هيئة خاصة . والاستشهاد بالبيت لبيان أن الأسلوب لا يصلح فى مثل تلك الحالة التى يأتى فيها الفعل المضارع بعد واو الحال ما لم يكن مبنيا على الاسم . فلو قال قائل : رأيته ويكتب . وتمززتها ويدعو الديك صباحه ، كان الكلام خاليا من أى حسن ، أو كما قال عبد القاهر الجرجانى ، لم يكن شيئا[1] .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٦٢ – ١٦٣ .

ومما ورد على الأسلوب الرائق الرفيع . وبنى الفعل فيه على الاسم قوله تعالى : ﴿ إن وليّىَ الله الذين نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ . وليس يخفى على من عنده ذوق سليم ، وحس بالعربية أن الكلام لو لم يبن على الاسم ما كان له هذا الوقع على النفس . ولنجرب القول مثلا . وليى الله الذى نزل الكتاب ويتولى الصالحين . أو اكتتبها وتملى عليه بكرة وأصيلا ، أو حشر لسليمان جنوده فيوزعون . إن اللفظ فيها – كما يقول عبد القاهر – ينبو عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته التى كانت له[1] .

التقديم فى مثل وغير :

ومما هو مركوز فى الطباع ، وتتطلبه الأساليب البليغة ، تقديم كلمتى « مثل ، وغير » على الفعل . وهذا التقديم يتم فى الكلمتين إذا أريد بهما الكفاية دون تعريض . يقول عبد القاهر « ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم (مثل) (وغير) . فى نحو قوله :

مثلك يثنى المزن عن صوبه ويستردُ الدمعَ من غَرْبِهِ

وقول الناس : « مثلك رعى الحق والحرمة » .

فأنت تكنى عن المخاطب حيث لم تذكره ، وإنما ذكرت لازما يستدعيه . فما دام هذا الأمر يأتى من كل من كان على شاكلته ، ويتخلق بخلقه ، فهو يتأتى منه . بل إن إتيانه منه أولى على نحو ما هو معروف فى إثبات المعنى عن طريق

(١) دلائل الإعجاز : ١٦٢ – ١٦٣ .

الكناية . وليس فى هذا الكلام حين يعير المخاطب . فلا يشير المتحدث من طرف خفي بأن غير المخاطب لا يكون منه ذلك .

وقد جاء على هذا النحو قول رجل للحجاج بن يوسف ، حين توعده الأخير قائلا : لأحملنك على الأدهم . (يريد القيد) فتجاهل الرجل ذلك ورد عليه – على سبيل المغالطة :

مثلك يحمل على الأدهم الأشهب . والأدهم والأشهب من الخيول . وهذا القول مما يستشهد به على حسن التخلص ، والتجاهل ، وقلب الكلام عن وجهه وصرفه إلى وجه آخر فبينا الحجاج يتوعد الرجل بالحبس والقيد إذا بالرجل يخرج الكلام عن هذا الغرض ويحيله إلى وعد بالعطاء والتكريم .

وهذا الحكم الذى تقرر لكلمة « مثل » ينسحب على كلمة [غير] وذلك كقول المتنبى :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخـدع

فهو يكنى عن نفسه – لكنه لا يعرض بغيره « وذاك أنه معلوم أنه لم يرد أن يعرض بواحد كان هناك فيستنقصه ، ويصفه بأنه يُغَرُّ ويُخْدَع » وكل ما أراده « أنه ليس ممن ينخدع ويغتر .

ومما جاء على هذا النحو أيضا قول أبى تمام :

وغيرى يأكُلُ المعروفَ سحتـا وتَشْحَبُ عنده بيضُ الأيادِى

فأبو تمام ينفى عن نفسه أن يكون ممن يضيع عنده المعروف ، ويتنكر لمن أحسن إليه وأسدى إليه معروفا . ويحسن الشاعر حين تعريض عن نسيان المعروف بأنه آكل له عن طريق السحت ، فلم يستحقه آكله ،

وإنما حصل عليه عن طريق الخبث والخداع ، كما أحسن الشاعر عندما جعل نسيان النعم شحوبا للأيادى ، وإذا كانت اليد مجازا فى النعم — كما علمنا فى المجاز المرسل ، والعلاقة فيه السببية ، فهنا يركب أبو تمام مجازا على مجاز ، فيجعل هذه الأيادى شاحبة ، وتلك من عادات هذا الشاعر العظيم تركيب صور المجاز وتعقيدها فنيا . وقد أخذ عليه الغموض فى بعضها لكن هذه الصورة مساغة ، وربما كان ذلك لكثرة استخدام اليد فى النعمة حتى صارت قريبة من الحقيقة فيها ، وجاز للشاعر أن يبنى عليها صورة أخرى من صور المجاز. والمهم أن أبا تمام استخدم كلمة « غير » مقدمة وبنى عليها الفعل ، وهو لم يرد التعريض بأحد ، وكل ما أراده أن ينفى عن نفسه تلك الصورة من الجحود ونكران النعمة .

وهناك أمور أخرى يسوقها البلاغيون فى تقديم المسند إليه على المسند . منها :

أن التقديم هو الأصل ، ولا يوجد مقتضى للتأخير نحو قولنا : العدل أساس الملك ، العقل السليم فى الجسم السليم .

ومنها أن يتقدم المسند إليه ليتمكن الخبر فى ذهن السامع ، لأن فى المبتدأ تشويقا إليه كقوله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ . وقول أبى العلاء :

والذى حارت البريةُ فيه حيوانٌ مُستحدثٌ من جَمَادِ

فالشاعر حين جاء بالمسند إليه موصوفا بقوله حارت البرية فيه ، حرك شوق المستمع إلى الخبر ليعرف ما حكم به على هذا الذى سبب الحيرة للناس منذ بدء الخليقة .

وقد يكون التقديم فى المسند إليه لتعجيل المسرة إذا كان الاسم مما يحمل معنى التفاؤل نحو قولك : سعيد بن سعد فى دارى . وقد يكون التطير كقولك سفاك بن الجراح فى داره ، أو إظهار التبرك نحو قول اسم الله اهتديت به .

وهناك مسألة يلحقها البلاغيون بباب التقديم والتأخير وهى تقديم حرف النفى على لفظ العموم أو تأخير حرف النفى عن هذه الألفاظ . وألفاظ العموم التى يشيرون إليها هى لفظ كل وجميع . ونحوهما .

ولا شك أن الدلالة تختلف حين يتقدم لفظ العموم على حرف النفى ، لأن دلالة النفى هنا ستكون مستغرقة تشمل كل الجنس ، شريطة ألا يكون هذا اللفظ معمولا للفعل . أما إذا جاء لفظ العموم بعد حرف النفى يتوجه هذا النفى إلى نفى العموم . ويتضح الأمر فى قولنا : « لم أكتب كل ما سمعت » تقدم حرف النفى على لفظ العموم ، فنفى أن يكون قد كتب كل ما سمعه لكن ذلك لا ينفى أن يكون قد كتب بعضه . لكن إذا قلنا : كلُّ ما سمعت لم أكتب . دلّ ذلك على أنه لم يكتب شيئا مما سمعه مهما قلّ . ومن الواضح أن ذلك حدث حين جاء لفظ العموم مرفوعًا لأنه فى هذه الحالة سيكون مبتدأ ولا عمل للفعل فيه . لكنه إذا نصب وأصبح الفعل مسلطا عليه حتى مع تأخره كان النفى متوجها إلى العموم كالحالة الأولى .

وعلى ذلك يكون قول الشاعر :

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركُـهُ تأتى الرياحُ بِمَا لَا تَشْتَهِى السُّفُنَ

المعنى فيه أن الإنسان لا يدرك كل أمانيه لكنه قد يدرك بعضها . ومثله :

ما كلُّ رأى الفتى يدعو إلى رشد .

وقد يتأخر حرف النفى على لفظ العموم لكنه يدل على نفس هذا المعنى ، وذلك إذا جاء لفظ العموم منصوبا كقولنا : كلَّ الدراهم لم أنفق . بنصب كل ، إذ المعنى أنفقت بعضها أما إذا تقدم لفظ العموم على النفى ورفع كان النفى مستغرقا . وعلى ذلك جاء قول أبى النجم :

قد أصبحت أمُّ الخيار تدعى عليَّ ذنبا كلُّه لم أصنع

وهذا وحده يتمشى مع غرض الشاعر الذى يريد أن يبرِّىء نفسه من تهم ظالمة أصبحت المرأة تنسبها إليه . وهو بريء منها ، ولم يدفعها إلى اتهامه غير تقدمه فى السن .

تقديم المسند :

تجدر الإشارة هنا إلى أننا حين نتكلم عن تقديم المسند على المسند إليه ، نتكلم إليه فى حالة ما إذا قدّم وبنى على حكمة لم يتغير عنه . وقد سبقت الإشارة إلى شيء من هذا عند تناولنا لما جاء عن عبد القاهر الجرجانى فى هذا الشأن ، فذلك لأن تقديم المسند ، وخروجه عن حالته ، واكتسابه حكما جديدا يخرجه عما نحن بصدده .

والبلاغيون من خلال استقرائهم للأقوال البليغة ، وجدوا بعضا منها يرجع الحسن فيه إلى أن المسند – وبخاصة إذا كان خبرا – تقدم على المسند إليه .

وأول ما ذكروه فى ذلك .

تخصيصه بالمسند إليه , أى قصره عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره . وذلك كقوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾[1] فالمسند وهو الجار والمجرور تقدم على

---

(1) الكافرون : ٦ .

المبتدأ دينكم . وقد أفاد هذا التقديم أن دينكم لكم لا يتعداكم إلى غيركم، ولا يتجاوزكم إلى سواكم . كما تقدم المسند ولى . على المسند إليه « دين » وقد أفاد ذلك التخصيص أيضا. لكن الآية تضمنت نكتة لطيفة هى تنكير « دين » وهذا التنكير يدلّ على أنه دين عظيم الشأن أى أنه دين وأى دين - إنه ليس كدينكم الذى يمتلىء بالزيف والأكاذيب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لله ملك السماوات والأرض ﴾[1] فقد أفاد تقديم الخبر « لله » على المبتدأ ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ قصر ملك السماوات والأرض على الله سبحانه وتعالى ، أى هو ما لكها لا يتعدى ملكها إلى أحد سواه .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق، فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا . بل كنا ظالمين ﴾[2] .

والآية تصور الكفار ، وقد مثل أمام أعينهم ما كانوا يجحدونه ، ويكذبون الرسل فيه ، وحين رأوه أمامهم أصيبوا بالذهول . وتقديم الخبر على المبتدأ قصر أبصارهم على الشخوص كأنها لا تتعداه إلى غيره من الحيرة ، أو الأزورار أو غيرها من الأمور التى يمكن أن تتصف بها الأبصار . وفى الآية الكريمة نلحظ حذف الفعل « قالوا ياويلنا » وحذف القول من الأمور المألوفة فى القرآن الكريم لكن حذفه هنا يدل على شدة الحال التى أضحوا عليها ، كما تدل الآية على ما أصابهم من الهلع والذعر وما صاروا عليه من التلاوم على غفلتهم التى ارتضوا بها فى حياتهم الدنيا ، أو على ظلمهم لأنفسهم أولا بتكذيبهم الرسل ، وعدم إجابتهم دعوة الحق

---

(١) الشورى : ٤٩ .

(٢) الأنبياء : ٩٧ .

حين جاءتهم على ألسنة رسلهم . ومن هذا النوع فى القرآن الكريم أيضا قوله تعالى : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ .

ثانيا : ذكر البلاغيون من أسباب تقدم المسند على المسند إليه التنبيه من أول الأمر أن المقدم خبر لا صفة . وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فتقدم الجار والمجرور فى الآية يدفع أى توهم فى كونه نعتا .

ومثله قول الشاعر :

له هِمَمٌ لا منتهى لِكِبَارِهَا ... وهِمَّتُهُ الصُّغْرى أَجَلُّ من الدَّهْرِ
له راحةٌ لو أن مِعْشَارَ جُودِهَا ... على البَرِّ كان البرُّ أندى من البَحْرِ

فإنه لو قال : همم له لأوهم أن كلمة « له » صفة ، لأن النكرة تحتاج إلى الصفة أكثر من الخبر .

ثالثا : يتقدم المسند على المسند إليه ليفيد التشويق للمسند إليه . وذلك كقول الشاعر :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

فإنه لما قال ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها تشوقت النفس إلى معرفتها ، وذلك لما أشعر به المسند من عظمتها وعلو شأنها . وحين جاء المسند إليه وقع مستقرا فى نفس المستمع وارتاحت له نفسه . ويكثر هذا فى باب المدح .

رابعًا : يقدم المسند فى باب الوعظ . لما يحتاج إليه من تثبيت وتقوية . وذلك كقول أبى العلاء .

وكالنارِ الحياةُ فمن رمادٍ ... أواخرها وَأَوَّلُهَا دُخَانُ

ثالثا : تقديم متعلقات الفعل :

من الأمور التى تدخل فى بلاغة العبارة تقديم متعلقات الفعل ، وهذه المتعلقات تشمل المفعول به ، والجار والمجرور والظرف والحال . وهذا التقديم على نوعين : تقديم على الفعل نفسه أو تقديم لبعض المتعلقات على بعض . ولا يكون هذا التقديم أو ذاك . ما لم يكن ثمة غرض فى المقام يستدعيه ، ونكتة فى العبارة تتطلبه . إذ الأصل أن يأتى الكلام على الترتيب ، فيقدم الفاعل على المفعول ، ويقدم المبتدأ على الخبر . وحين يأتى ترتيب الكلام على غير هذا لابد أن يكون منظورا فيه لغرض بلاغى .

ولعل أول ما يشير إليه البلاغيون فى تقديم أحد المتعلقات على الفعل ، أو تقديم أحد المتعلقات على بعضها الآخر أن يكون ذلك للاختصاص والحصر . وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ﴾[1] فتقديم المفعول به (ضمير الفصل) أفاد أن العبادة تكون لله وحده ، أى يخصون الله بالعبادة ، كما لا يستعينون بسواه . ومنه قوله تعالى : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أى إن كنتم تقصرون العبادة عليه ، فلا تعبدون سواه . وفى هذه الآية قدم المفعول به أيضا على الفعل . ومثال ما قدم فيه الجار والمجرور قوله تعالى : ﴿ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾[3] أى تحشرون إلى الله وحده .

ولعل ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن التقديم يرتبط بالموقف ، وما يراد منه ، ودلالات الكلام عليه ، أننا نجد بعض المتعلقات تتقدم فى مواقف ، وتتأخر فى أخرى ، وقد يظن من لا بصر له بالكلام ، ومن حرم الحس المرهف أنه لا فرق

---

(١) الفاتحة : ٥ .
(٢) البقرة : ١٧٢ .
(٣) آل عمران : ١٥٨ .

بين هذا وذاك ، وربما أرجع ذلك إلى عيب فى الكلام ، وحقيقة الأمر أن العيب فى حسه وذوقه ، وقصوره فى معرفة اللغة ، والوقوف على جانب من خَفِيِّ أسرارها . ولنقرأ فى هذا قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا . لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه[1] الخ » ففى الآية جاء قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ كما جاء فيها ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ فانظر إلى الجار والمجرور ﴿ على الناس ﴾ وعليكم تجده أولا تأخر على شبه الفعل ﴿ شهداء ﴾ وتقدم عليها ثانيا . وكان سبب تقدمه أولا إثبات شهادة هذه الأمة على غيرها من الأمم . وليس فيها معنى الاختصاص . أما فى الثانية فقد تقدم الجار والمجرور ليفيد الاختصاص ، لأن محمدا ﷺ سيكون عليهم شهيدا أى أنهم يختصون بشهادته ﷺ[2] .

وقد يجعلون التقديم لمجرد الاهتمام دون أن يفيد التخصيص . يقول الطيبى فى تقديم بعض المعمولات على بعض: « وذلك للاهتمام دون التخصيص كما إذا قيل لك : عرفت شركاء لله يقف شعرك . وتقول: لله شركاء !! أى أعرفت من شركاء الله . وعليه قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾[3] . ولما كانت الآية مسوقة للإنكار العائد إلى نسبة أحدهما للآخر . كان هذا التقديم للاهتمام . والطيبى ينقل ما نقله غيره عن سيبويه من قول بأنهم — أى العرب كانوا يقدمون الذى بيانه أهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا مما يهمانهم »[4] .

ومما جاء فى القرآن الكريم لبيان الاهتمام لا للاختصاص قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾[5] ففى هذه الآية لم يقل

(١) البقرة : ١٤٣ .
(٢) خصائص التراكيب : ٢٩١ .
(٣) النساء : ٦٩ .
(٤) التبيان : ٩٠-٩١ .
(٥) الروم : ٢٧ .

وهو عليه أهون . ذلك لأن الأمر – كما يقول الزمخشرى قد جاء على ما يعقلون من أن إعادة الشيء أهون من خلقه ابتداء . وليس الأمر على ذلك فى قوله تعالى : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ، قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾[1] إذ الأمر هنا فى التقديم للاختصاص . قال الزمخشرى : « الأمر هنا للاختصاص وهو عزه . فقيل هو علىّ هين وإن كان مستصعبا عليكم أن يولد بين هرم وعاقر » ويؤيد كلام جار الله ما ظهر على نبى الله حين بشر بأن الله سيرزقه بغلام . فقال أنى يكون لى غلام . وفى هذا تقديم للخبر على المبتدأ ، إذ الغرابة أن يكون له هذا الغلام وقد أصبح شيخا هرما ، وامرأته عاقر . والمرء يعجب وتصيبه الدهشة مما يقال له مما جرت العادة بخلافه .

وقد يكون تأخير أحد المتعلقات مؤديا إلى اللبس ، فيتم التقديم تجنبا لذلك ، أو كما يقول الطيبى للاحتياط ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ فقدم قوله : من آل فرعون ، ولو تأخر فقيل : «وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون !! لأوهم أن الجار والمجرور متعلق بالفعل « يكتم » وهو أصلا صفة لرجل .

وقد يكون تقديم أحد متعلقات الفعل على آخر منظورا فيه إلى الأسبقية والفضل ، على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ﴾[2] فقد تقدم الحال « رجالا » على الجار والمجرور

---

(١) مريم : ٨ ، ٩ .
(٢) الحج : .

« على كل ضامر » وذلك لما يلحظ فيه من أفضلية الحج لأولئك الذين يؤدون الفريضة راجلين فتكون المشقة أكثر ، والجزاء يكون على قدر العمل وعظمه . وقد كان بعض الصحابة يود لو أنه حج راجلا لما فى ذلك من جزيل الثواب . وجاء فى الأخبار أن هارون الرشيد كان يحج عاما ويغزو عاما ، وأنه كان لا يحج إلا ماشيا .

وقد يكون التقديم للسبق على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ﴾[1] فالأزواج أسبق من البنات . ومنه قوله تعالى : ﴿ هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾[2]

ومن أسباب تقديم بعض المتعلقات على بعض ترتيبـها منازلها فى النفس ، أى بحسب أقدار معانيها وذلك على نحو ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ﴾[3] فقد قالوا إن الحلّاف قدم لأنها أفظعها منزلة لأن الحلف الكاذب إجتراء على الله ، وتطاول على اسمه الكريم – ومن يكثر من الحلف والأيمان الكاذبة يقسو قلبه ويسود ، ويصبح غير قابل لداعى الإيمان ، أولا تؤثر فيه دعوة الحق . ويلى ذلك فى الجرم من يمشى بين الناس بالنميمة يريد أن يفسد علاقاتهم ، ويدخل العداوة إلى قلوبهم وقد لوحظ إقتران الهمز بالمشى فى الآية الكريمة لأن النمام يسعى ، وكأن فساده لا يتوقف عند المكان الذى يوجد فيه . بل يمشى بنميمته ، وينتقل بها بين الناس ، ليقطع ما بينهم من صلات ويأتى بعد النمام من يمنع الخير . إنه لا يحدث فسادا كما كان من سبقه يفعل ، ولكن نفعه لا يتعداه وهو يمنع الخير أن يصيب غيره . ثم ختمت الآية بوصفه بالعتل الزنيم ... إن الآية الكريمة

(١) الأحزاب : ٥٩ .
(٢) الفرقان : ٧٤ .
(٣) القلم : ١٠ – ١٣ .

تتحدث عن هذه الصفات وتأتى بها متدرجة من حيث القوة والعظم وعموم الضرر .

وقد أحصى علماء التفسير ألوانا شتى من التقديم، ووقفوا على لطائف كثيرة أدى إليها ، وكذلك فعل علماء البيان والمهتمون بالنظر فى الكلام ، والكشف عن مواطن الحسن فيه .

ومما ذكروه فى تقديم بعض هذه الأمور على بعض تقديم السبب على المسبب . ومثل له ابن الأثير[1] بقوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ « فإنه إنما قدم العبادة للاستعانة ، لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب ، وأسرع لوقوع الإجابة . ولو قال : إياك نستعين ونعبد ، لكان جائزا؛ إلا أنه لا يسد ذلك المسد ، ولا يقع ذلك الموقع » وعلى هذا النحو أيضا جاء قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسىّ كثيرا ﴾[2] فقدم سبحانه إحياء الأرض والأنعام على إحياء الناس ، وإن كان الناس أشرف - لأن حياة الأرض سبب فى حياة الأنعام والناس ، وحياة الانعام تدخل بين الأسباب التى يحيا بها الإنسان .

وقد يقدم الأكثر على الأقل . كقوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله[3] .

---

(١) المثل السائر : ٢/٢٢٣ .
(٢) الفرقان : ٤٨ - ٤٩ .
(٣) فاطر : ٣٢ .

يقول ابن الأثير(١) : « وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرته ، وأن معظم الخلق عليه ، ثم أتى بعده بالمقتصدين ، لأنهم قليل بالإضافة إليه ، ثم أتى بالسابقين ، وهم أقل من القليل – أعني المقتصدين – فقدم الأكثر ، وبعده الأوسط ، ثم ذكر الأقل آخرا » .

ويبين ابن الأثير أن هذا الترتيب لو أنه جاء معكوسًا بمعنى أن يذكر الأقل ثم الأوسط ثم الأكثر لكان له وجه . وهو يضع ما يشبه القاعدة فى تقديم بعض المعمولات على بعض فيقول : « اعلم أنه إذا كان الشيئان كل واحد منهما مختص بصفة فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت فى الذكر ، كهذه الآية ، فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل ، والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة ، فقس على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله .

وقد يكون التقديم من باب تقديم الأعجب فالأعجب . كقوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ﴾ . ويذهب ابن الأثير فى تعليل هذا الترتيب . إلى أنه تعالى قدم الماشى على بطنه لأنه أدل على القدرة لأنه يمشى بغير آلة المشى ، ويليه فى ذلك من يمشى على رجلين لقلة الآلات بخلاف الماشى على أربع .

وتكثر الوجوه واللطائف فى هذا التقديم كما سبقت الإشارة ، ومحاولة استقصائها تؤدى إلى التطويل . ولكنا نشير فى ختام هذا القول إلى ما قرره البلاغيون والمفسرون من أن التقديم فى بعض المعمولات يكون لمراعاة النظم فى

---

(١) المثل السائر : ٢/٢٢٤ .
(٢) السابق : ٢/٢٢٥ .

الشعر ، أو مراعاة أواخر الآيات فى القرآن الكريم وقد اهتم ابن الأثير بهذا الجانب الذى أطلق عليه حسن النظم السجعى . وقد حاول فى بعض المواضع أن يغمز على الزمخشرى . فقد ذهب الأخير إلى أن قول الله سبحانه فى سورة الفاتحة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ إنما قدم فيه المفعول لإفادة الاختصاص . لكن ابن الأثير ذهب إلى غير ذلك قائلا : « وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن التقديم فى هذا الموضع قصد به الاختصاص ، وإنما قدم لمكان نظم الكلام ، لأنه لو قال : نعبدك ونستعينك ، لم يكن له من الحسن ما لقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴾ فجاء بعد ذلك قوله إياك نعبد وإياك نستعين ، وذلك لمراعاة حسن النظم السجعى الذى هو على حرف النون ، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة ، وزال ذلك الحسن ، وهذا غير خاف على أحد من الناس ، فضلا عن أرباب علم البيان » انتهى كلام ابن الأثير[1] وعلى الرغم من الغاية الجمالية التى أهتم بها القرآن الكريم وراعى فيها التناسب بين رؤوس الآيات وأهمية تلك الغاية فى جمال النظم القرآنى ، وما يكون له من تأثير فى نفس متلقيه ، وقد سبق أن أشرت إلى هذا الأمر ، وأرجعته إلى مصدره الجمالى ، وبينت أن القرآن الكريم قد يتخلى عن المشهور من القاعدة النحوية ، ويتجاوزها إلى غيرها تحقيقا لهذا التناسب[2] لكن ذلك لا يمنع من أن يكون المراد فى الآية الكريمة أيضا الاختصاص . فالآية بالنسق الذى جاءت عليه تقصر العبادة عليه سبحانه ، وتقصر الاستعانة عليه أيضا . ومعناها لا نعبد غيرك ، ولا نستعين إلا بك . وإذا كان التناسب بين رؤوس الآيات يستدعى تجاوز بعض الأمور

---

(١) السابق : ٢/٢١٢ .

(٢) الفصاحة مفهومها م تحقق .

(٣) الزخرف : ٩ .

الشكلية ، أو يلجيء إلى بعض الأمور دون بعض ، فإنه لا يتم على حساب المعنى .

ولم يكن ثمة حاجة هنا إلى خلق خلاف شكلي . فالآية الكريمة تشتمل على الأمرين ، أى أنها تجمع بين إفادة الاختصاص ، وتحقيق التناسب بين رؤوس الآيات .

وأما ما روعى فيه حسن النظم فقول الشاعر :

سريعٌ إلى ابن العم يلطم خدَّه وليس إلى داعى الندى بسريع
حريصٌ على الدنيا مضيعٌ لدينه وليس لما فى بيته بِمُضيع

أحوال المسند :

ذكرنا فيما مضى بعض أحوال المسند ، فقد تقدم الكلام على حذف المسند عند الكلام عن الحذف ، كما تقدم الكلام على تقديم المسند عند الكلام على التقديم والتأخير ، واستكمالا للحديث عن الأحوال التى ذكرها البلاغيون للمسند نتحدث عن أمرين آخرين هما : ذكر المسند ، وتعريف المسند .

أولا : ذكر المسند :

قلنا إن بلاغة الكلام تكمن فى تعبيره عن المواقف ، واستجابته للدوافع والاعتبارات ، وهذه الدوافع والاعتبارات قد تقتضى الحذف وقد تقتضى الذكر . وأول ما جاء عن البلاغيين فيما يتعلق بذكر المسند :

أن الذكر هو الأصل ، وليس هناك داع يقتضى الحذف . أى أنه لا توجد مزية بلاغية تكون مبررا لهذا الحذف .

قد يذكر المسند ، وفى الكلام قرينة يمكن أن تدل على المحذوف ، لكنها قرينة ضعيفة لا يعول عليها فى هذا الأمر كثيرا . وحين تكون القرينة ضعيفة لا تكشف عن المحذوف بجلاء يكون اللجوء إلى ذكر المسند أولى . وقد عللوا للذكر بقولهم للاحتياط مع ضعف التعويل على القرينة . كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾[1] فقد ذكر المسند « خلقهن » مع دلالة السؤال عليه للاحتياط لضعف التعويل على القرينة . وقد يرد على هذا ما جاء فى الآية الأخرى من عدم ذكر المسند . حيث قال الله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس

(١) الزخرف : ٩ .

والقمر ليقولن الله ﴾[1] من أن السؤال فيها كالسؤال فى الآية الأولى ، والمسئول هنا هو المسئول هناك . فكيف تكون القرينة ضعيفة فى إحداها وغير ضعيفة فى الأخرى . ومن ثم يكون الأولى فى التعليل لذكر المسند فى الآية الأولى أنه لزيادة التقرير والإيضاح . ولعل الأولى فى الذكر لضعف القرينة الرد على من سأل من أشجع العرب . ومن أجودهم . عنترة أشجع العرب ، وحاتم أجودهم[2] وقد يكون ذكر المسند التعريض بغباوة السامع نحو قوله تعالى : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ بعد قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم عليه السلام : ﴿ من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾[3] . وهذا النوع من التعريض إما أن يكون حقيقة ، كأن يكون المخاطب بطىء الفهم . لا يقف على المعنى دون أن ينص له عليه . أو تكون حالته تدعو إلى أن يساق له القول على هذا النحو ، كما نجد فى خطاب هؤلاء الكفار الذين أغمضوا أعينهم عن الحق ، وراحوا يهيمون فى الضلال ، ويعبدون حجارة لا تدفع عن نفسها الأذى ، فكيف غفل هؤلاء الحمقى عن تلك الحقيقة ، وراحوا يخلعون عليها من صفات التعظيم والتقديس مالا يستحقه غير اللطيف الخبير الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

ذكر المسند لزيادة التقرير والإيضاح :

من الأغراض الأساسية التى يذكر المسند من أجلها . زيادة التقرير والإيضاح . فقد يكون الكلام فى حاجة إلى أن يتقرر فى ذهن السامع ويثبت . وقد مضت الإشارة إلى هذا فى قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ فلو أنهم قالوا فى الجواب : العزيز العليم ، وحذف المسند لدل عليه السؤال على نحو ما جاء فى

(١) العنكبوت : ٦١ .

(٢) انظر دلالة التراكيب : ٢٢٧ . (٣) الأنبياء : ٦٣ .

آيات أخرى – كما سبق أن أشرنا – لكنه ذكر فى الآية ليزيد من تقرير خلق الله للسماوات والأرض .

ويذهب أحد الباحثين المحدثين[1] – ونحن معه – إلى أن هذا الغرض من أهم الغرض . والأساليب الأدبية تحتاج إليه لأنها تحتاج إلى التوكيد وتقوية الكلام ليكون لها التأثير المطلوب فى النفس . ولعل هذا ما يدفع الأدباء إلى التكرار فى بعض المقاطع وترديدها . وكأنهم يريدون لها أن تتأكد فى الشعور وتلتحم به ، وتتجاوب معه ، أو يتجاوب معها . وذلك ما نجده فى قصيدة الأعمى الشاعر التى سبقت الإشارة إليها . لقد كرر الشاعر فى المقاطع الثلاثة الأولى قوله :

أجل أعمى ... ولكن فى دمى المِوار أضواء
وبين جوانحى فجر من التحنان وضاء الخ

وفى المقطع الثانى :

أجل أعمى ... إذا ما ضل فى الطرقات أوتاها
ومدّ عصاه قبل خطاه ثم ارتاد مجراها الخ

وفى المقطع الثالث :

أجل أعمى كما قالت .. وأعمى لا يرى السحرا
وكيف يحس هذا الحسن إن ناداه أو أغرا

---

(1) دلالة التراكيب : ٢٢٧ .

وليس يصعب علينا أن نشير إلى ما أدى إليه هذا التكرار من تقوية . وكأنه يريد أن يحفر كلمة أعمى فى وجدان السامع ، لأنها أساس المأساة كلها .

ولما لهذا التكرار من قيمة بلاغية فى تأكيد الغرض وتقويته نجده يكثر فى الذكر الحكيم . على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ﴾ فالله تعالى يكرر الوعد باليسر ليدخل على النفوس التى أصابتها الشدة نوعًا من الطمأنينة والأمل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ التكرار هنا ليس لما سبقت له الآية السابقة من إدخال الهدوء إلى النفس ، بل لتمتلىء بالخوف مما سوف يصيبها فى مستقبل أيامها ، لأنها اختارت الكفر ، ورضيت به ، وارتكنت إليه .

ومما ذكر فيه المسند ، مع أن حذفه لم يكن ليخفى على السامع ، أو يلبس فى الأسلوب لأنه مذكور قبل ذلك ومعروف . ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ﴾[1] .

ومما جاء فى الحديث الشريف ذكر المسند فيه لزيادة التقرير والإيضاح قوله ﷺ : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وهذا الغرض يكثر فى الشعر . على نحو ما نجد فى شعر هذه المرأة التى ترثى زوجها ، وتتحدث عن صفاته وأخلاقه وفروسيته . فتقول :

وحدَّثَنِى أصحابُـهُ أنَّ مَالِكًا ... أَقَامَ ونَادَى صَحْبَـهُ بِرَحِيـلِ

---

(١) الأعراف : ٩٧ – ٩٩ .

وحدثني أصحابه أن مالكـا ضروبٌ بنصل السيف غير نَكُوَلِ
وحدثني أصحابُه أن مالكـا صروم كما ضي الشفرتين صقيل

لعلنا لا نخطيء تكرار قولها وحدثني أصحابه . وكان يكفي أن تقولها في المرة الأولى وتعطف عليها ... لكن هذا التكرار يثبت المعنى ويقرره . وفيه نحس بنفسية هذه المرأة الثكلى فهي ترتاح للحديث عنه ، وبخاصة إذا كان حديث الفروسية والقوة والعزم ، إنها تعيد تلك اللحظة التي نقلها إليها رفاقه الذين شاهدوه يضرب بسيفه ، ويقطع به رقاب العدو ، كما شاهدوه حين بقي وحيدا في أرض المعركة بينما رحل الآخرون . ومن يتتبع مثل هذه المواقف يجد ما يعمد إليه الشعراء من تكرار بعض الألفاظ ، أو المقاطع لما لها من دلالة خاصة في بيان الغرض الذى يتحدثون عنه .

مجيء المسند فعلا ، أو اسما :

تحدثنا عن أهم الأغراض التى تؤدى إلى ذكر المسند ، وبخاصة في المواطن التى يكون فيها دليل قائم يرشد عليه عند حذفه . وهنا نتحدث عن مجيء المسند تارة فعلا ، سواء كان مضارعا أو ماضيا ، أو مجيئه اسما ، ثم نبحث عن دلالة ذلك في الغرض الذى سيق له الكلام .

ويحدثنا الإمام عبد القاهر عن فروق في الخبر ، أى في الكلام الذى له الخارج يمكن الحكم عليه ، وهو ما يقابل الإنشاء .

وهو حين يتحدث عن هذا الخبر يقسمه إلى قسمين . القسم الأول : يكون جزءا من جملة لا تصح إلا به . وهو خبر المبتدأ المفرد كقولك محمد قائم ، والفعل في قولك قام محمد أو يقوم فكل واحد من الفعل ، وخبر المبتدأ ، هو جزء من الخبر أى من جملة الخبر لا تصح إلا به ، وهو الأصل في الفائدة .

القسم الثانى : هو ما ليس بجزء من جملة ، لكنه زيادة فى خبر آخر سابق له، وهو الحال . وذلك كقولك جاء محمد راكبًا . فهو يعد الحال خبرًا لأنه حكم أو كما يقول :

أو كما يقول : « لأن الحال خبر فى الحقيقة من حيث إنك تثبت بها المعنى لذى الحال كما تثبته بخبر المبتدأ للمبتدأ ، وبالفعل للفاعل ، ألا تراك تثبت الركوب فى قولك : جاء محمد راكبا لمحمد كما أثبت له المجىء بالفعل ، والقيام بالاسم . إلا أن الفرق بين الإخبار بالاسم أو الفعل ، والإخبار بالحال ، أن الإخبار بالحال زيادة فى المعنى وهو يأتى على سبيل التبع للمجىء ، وبشرط أن يكون فى صلته . وليس الأمر كذلك فى الخبر بالاسم أو الفعل . وحتى يمكن التفريق بين الخبر بالاسم والخبر بالفعل ، ويتضح ما يناسب الموقف من هذا أو ذاك ، يبين لنا عبد القاهر أن الإثبات بالاسم يختلف عن الإثبات بالفعل . يقول : « وإذ قد عرفت هذا الفرق – أى بين الخبر الذى هو جزء من جملة ، والخبر الذى ليس كذلك – فالذى يليه من فروق الخبر ، هو الفرق بين الإثبات بالاسم ، وبينه إذا كان بالفعل ، وهو فرق لطيف تمس الحاجة فى علم البلاغة إليه »[1] أما هذا الفرق فهو أن الاسم موضوع على أن يثبت الخبر على طريق الثبوت ، أما الفعل فهو موضوع لإثبات الخبر على جهة التجدد والحدوث . « فموضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشىء من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شىء ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شىء »[2] يضاف إلى هذا فرقٌ آخر ، وهو أن الفعل يفيد تقييد المسند بأحد الأزمنة التى يدل الفعل عليها . ماضيا كان أو مضارعا . ويظهر الفرق بين إثبات الخبر عن طريق الاسم وإثباته عن طريق الفعل حين تقرأ قول الشاعر :

(١) دلائل الإعجاز : ١٩٣ .
(٢) السابق

لا يألفُ الدرهمُ المضروبُ صرّتَنَا   لكن يَمُرُّ عليها وهو مُنْطَلِقُ

فالشاعر يفتخر بكرم قومه وسخائهم ويذكر أنهم لا يمسكون المال فى أيديهم ، أو يضعونه فى خزائنهم بل ينفقونه على طالبى العطاء ، وحتى يبين أن ذلك الأمر وتلك العادة ثابتة عندهم يأتى بالخبر اسما « وهو منطلق » فالدراهم لم تألف صرة القوم ، لكنها تمر عليها وهى منطلقة ذاهبة إلى غيرهم ، إنها ثابتة الانطلاق . وعبد القاهر يعلق على هذا الخبر الذى صادف موضعه بقوله : « هذا هو الحسن اللائق بالمعنى ، ولو قلته بالفعل : لكن يمر عليها وهو ينطلق لم يحسن »[1] ووضع الفعل فى الموضع الذى يتطلب الاسم ، أو وضع الاسم فى الموضع الذى يتطلب الحدوث والتجدد يفسد البلاغة ، ويذهب بحسن الكلام ورونقه . ومما جاء بالاسم فى موضعه قوله تعالى : ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو أطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا ﴾ فالآية الكريمة تفيد أن الكلب كان على هيئة ثابتة لا تتغير ، كما تقول هو طويل مثلا أو قصير . وتلك الصورة مقصودة فى ثباتها وجمودها حتى تخلع على الفتية فى الكهف جوا من المهابة والخوف . ولا يصح فى هذا الموضع أن يعبر بالفعل فيقال وكلبهم يبسط ذراعيه . لأن الغرض أن تثبت الهيئة التى كان عليها .

وينص عبد القاهر على أن الفعل لا يصلح فى موضع الاسم ، كما لا يصلح الاسم فى موضع الفعل ويبين أن ذلك يظهر بجلاء إذا نظر إلى الحال فى الصفات المشبهة ، إذ يكون الفرق ظاهرا بينا يقول : « ومتى اعتبرت الحال فى الصفات المشبهة وجدت الفرق ظاهرا بينا ، ولم يعترضك الشك فى أن أحدهما لا يصلح فى موضع صاحبه ، فإذا قلت : زيد طويل ، وعمرو قصير لم يصلح مكانه يطول

---

(1) السابق .

(2) الكهف : ١٨ — ١٩ .

ويقصر ، وإنما يطول ويقصر ، إذا كان الحديث عن شيء يزيد وينمو وإذا كنا قد وجدنا الخبر فى الأمثلة السابقة وقع اسما ، وأن الفعل لا يصلح فى موضعه ، فالأمر كذلك إذا حدث العكس . ويتضح هذا من قول الأعشى :

لعمرى لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نار فى يفاع تحرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرورينَ يَصْطَلِيَانِهـا ... وبات على النَّار الندى والمُحَلَّقُ

فالغرض هنا حديث عن الكرم ، والنار تشبُّ ليلاً ليراها السائرون فى هذا الوقت وتهديهم إلى صاحبها حيث يجدون عنده القرى . وهى نار فى مكان مرتفع لتكون أظهر وأوضح . وصاحب هذه النار يريدها متجددة . يتجدد لهيبها ويعلو ضوءها شيئا فشيئا حتى يراها السارون . وليس غرضه أنها نار متحرقة ثابتة . ولهذا يعلق عبد القاهر على قول الأعشى بقولة : « معلوم أنه لو قيل : إلى ضوء نار متحرقة لَنَبَا عنه الطبع ، وأنكرته النفس ، ثم لا يكون ذلك النَّبوّ وذاك الإنكار من أجل القافية – وأنها تفسد به ، بل من جهة أنه لا يشبه الغرض ، ولا يليق بالحال »[1] ومما جاء فيه الخبر فعلا ليفيد التجدد والحدوث قول طريف بن تميم العنبرى :

أو كلما وردت عكاظ قبيلـة ... بعثوا إلىّ عريفَهـم يتوسَّـمُ

فالشاعر يتحدث عن بسالته ، وما أحدثه فى القبائل حتى أصبح لكل منها ثأرا عنده ، ولهذا كلما ورد قبيلة من تلك القبائل سوق عكاظ ، حيث يجتمع القوم للتجارة. بعثوا من بينهم من يتفحص الوجوه يبحث عنه حتى ينالوا منه ثأرهم ، وينتقموا منه لقتلاهم . ولو أنه جاء بالخبر اسما لأفاد الثبوت ، وهو يريد أن يبين أن بحثهم يتجدد ، وطلبهم له لا يتوقف . يقول عبد القاهر تعليقا على

(١) دلائل الإعجاز : ١٩٥ .

To: www.al-mostafa.com

مجيء الخبر فعلا » وذلك لأن المعنى على توسم وتأمل ونظر يتجدد من العريف حالا فحالا ، وتصفح منه للوجوه واحدا بعد واحد . ولو قيل : بعثوا إلى عريفهم متوسما لم يفد ذلك حق الإفادة »[1] .

ومن هذا النمط أيضا قوله تعالى : ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾ فلو قيل : هل من خالق غير الله رازق لكم . لكان المعنى غير ما أريد » . لأن الله تعالى يريد أن يبين لهم أنه لا يوجد غير الله سبحانه وتعالى يجدد لهم الرزق يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر . فالرزق متجدد ، وصواب الدلالة عليه تكون بالفعل الذى يدل على هذا التجدد والحدوث .

مجيء المسند جملة :

وكما يأتى المسند فعلا أو اسما يأتى كذلك جملة فعلية أو اسمية ، والفرق بين المسند حين يكون فعلا ، أو اسما مفردا ومجيئه جملة أن الجملة تفيد تقوية الحكم .

وقد يقال هل يختلف الأمر حين يكون المسند جملة ؟ أو بعبارة أخرى هل يكون هناك فروق غير ما تفيده الجملة من تقوية الحكم ؟ والجواب على ذلك أن الجملة الفعلية تفيد ما كان يفيده الفعل من التجدد والحدوث . والجملة الاسمية تفيد ما كان يفيده الاسم من الثبات والدوام ويتضح ذلك عندما ننظر إلى قوله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون ﴾ فهؤلاء المنافقون حين عبروا عن خطاب المؤمنين عبروا بقوله : ﴿ آمنا ﴾ ومعنى ذلك أن إيمانهم حادث ومتجدد ، ولم يكن قبل دخولهم لكنهم عندما رجعوا إلى إخوانهم ، وخاطبوهم كان هذا الخطاب

---

(1) السابق .

بالجملة الاسمية ﴿ إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون ﴾ وهذا يفيد استمرارهم وثباتهم .

تعريف المسند وتنكيره :

بينا من قبل أن التعريف قد يأتى فى المسند إليه لغرض ، وقد يأتى التنكير أيضا لغرض ، وكما يدخل التعريف والتنكير على المسند إليه يكونان فى المسند ، لكل منهما فيه وجوه تحدث عنها البلاغيون . ولعل أول ما ساقوه فى هذا الصدد أن تعريف المسند يفيد تخصيصه بالمسند إليه ، وأنه حدث منه دون سواه . والفرق يظهر عندما نمثل للخبر « المسند » نكرة ، ونمثل له وقد جاء معرفه . فحين تقول : « زيد منطلق » تفيد المخاطب أن انطلاقا حدث من زيد ، ولم يكن المخاطب يعلم شيئا عن هذا الانطلاق أصلا . لكن حين تقول : « زيد المنطلق » تخاطب سامعًا يعلم أن انطلاقا حدث . لكنه لا يعرف ممن حدث . فمجىء المسند إليه بهذه الصورة يبين أن هذا الانطلاق كان من زيد ولم يكن من غيره . يقول عبد القاهر فى التفريق بين الصورتين : « والنكتة أنك تثبت فى الأول الذى هو قولك : زيد منطلق . فعلا لم يعلم السامع أصله أنه كان ، وتثبت فى الثانى الذى هو « زيد المنطلق » فعلا قد علم السامع أنه كان ولكنه لم يعلمه لزيد فأفدته ذلك »[1] ويضيف عبد القاهر فرقا آخر بين الخبر المنكر وغير المنكر ، وهو أن الخبر المنكر يمكن أن تأتى بمبتدأ ثان وتشركه مع الأول بالعطف . فتقول زيد منطلق وعمرو ، أى وعمرو منطلق أيضا ، ولا يصح مثل هذا مع التعريف لأن التعريف فى المسند كما سبق يقصره على المسند إليه ، والعطف يجعله مشاركا له ، وفى هذا ما نرى من الاستحالة .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٩٦ .

ويتضح هذا حين نقول : شوقى هو القائل :

وطنى لو شغلتُ بالخلدِ عنه نازعتنى إليه فى الخلدِ نفسى

فلو حاولنا أن نشرك معه غيره كأن قلنا شوقى هو القائل هذا البيت وحافظ ، حاولنا مستحيلا .

ومن الأمور التى يفيدها تعريف المسند بالألف واللام غير ما مضى . ما نص عليه عبد القاهر صراحة فى قوله : « واعلم أنك تجد الألف واللام فى الخبر على معنى الجنس ثم ترى له فى ذلك وجوها » ثم يأخذ فى بيان هذه الوجوه ، وما يكون بينها من الفروق الدقيقة التى لا يتوصل إليها بغير اللطف ، ورهف الحس .

وأول هذه الوجوه : قصر معنى الجنس على المخبر عنه لقصد المبالغة . وذلك نحو قولنا زيد هو الجواد ، وعمرو هو الشجاع . فالمراد من هذا أن نخرج الكلام على أن الجود لا يتوهم أن يكون من غير زيد ، والشجاعة لا تكون من غير عمرو ، وذلك لعدم الاعتداد بما يكون عند غيرهما لأنه لا يبلغ الدرجة التى يبلغها عندهم . إنه نوع من القصر الادعائى . الذى لا يراد به غير المبالغة . ومن الواضح أنه يختلف عن ذلك النوع من التخصيص الذى سبق الحديث عنه لكن هذا النوع يشترك مع النوع الأول فى امتناع العطف عليه للاشتراك . فلا يصح زيد هو الجواد وعمرو . وإذا أردنا الجمع بينهما قلنا زيد وعمرو الجوادان .

الثانى : قصر جنس المعنى على المخبر عنه لا على المبالغة وترك الاعتداد بوجوده فى غيره . بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه . ولا يتحقق ذلك إلا إذا قيدت المعنى بشىء يخصصه ويجعله فى حكم نوع خاص ، قائم بذاته . كأن يقيد بالوقت أو الحال . مثل قولنا : « هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيرا » فقد

قيدنا الوفاء منه بأنه فى الوقت الذى لا يفى فيه أحد من الناس نوعا من الوفاء.

ومثله قول الأعشى :

هو الواهبُ المائةَ المصطفـاةَ إمّا مَخاضـًا وإمّـا عِشـارَا

فالخبر فى البيت : « الواهب » مما يتعدى . وقد اشترط له مفعولا مخصوصا . والمعنى فى البيت أنه لا يهب هذه الهبة غير الممدوح . « وليست اللام » فى المائة المصطفاة كاللام أو بمنزلتها فى نحو « زيد المنطلق » من حيث كان القصد إلى هبة مخصوصة كما كان القصد إلى انطلاق مخصـوص لأن القصد هنا إلى جنس من الهبة مخصوص . لا إلى هبة مخصوصة بعينها .

والوجه الثالث : أن تقر الخبر عنه على صفة من الصفات ، وتجعلها ظاهرة فيه متعارفة بحيث لا تنكر ولا تجهل . وذلك على نحو ما جاء فى بيت الخنساء :

إذا قبحَ البكاءُ على قتيـلٍ رأيتُ بكاءَكَ الحسـنَ الْجَميـلَا

فهى لم ترد أن ما عدا البكاء عليه ليس بحسن ولا جميل ، ولم تقيد الحسن بشىء فيتصور أن يقصر على البكاء كما قصر الأعشى هبة المائة المصطفاة على الممدوح . ولكنها أرادت أن تقره فى جنس ما حسنه الحسن الظاهر الذى لا ينكره أحد ، ولا يشك فيه شاك »[1] .

وقد جاء من هذا النوع أيضا قول حسان :

وإنّ سِنَامَ المجدِ مِنْ آلِ هَاشِـمٍ بَنُو بِنْتِ مخزومٍ وَوَالِدُكَ العبـدُ

فقد أراد أن يثبت له العبودية ، ويجعلها من الظهور فيه بحيث لا تنكر ، ولا يتأتى ذلك مع التنكير .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٩٩ .

ومنه أيضا قول الآخر :

أسودٌ إذا ما أبدت الحربُ نابَها وفى سَائِر الدهرِ الغيوثُ المواطرُ

وقد يكون تعريف المسند إشارة إلى بلوغ المسند إليه فى الصفة مبلغ الكمال . وذلك حين يتوهم شيئا ، ويجريه فى خاطره مجرى المعلوم المعهود . ويقول عبد القاهر عن هذا النوع من تعريف المسند : « وله مسلك ثم دقيق ، ولمحة كالخلس يكون المتأمل عنده كما يقال : يعرف وينكر ، وذلك فى مثل قولك :

« هو البطل الحامى ، وهو المتقى المرتجى » وأنت لا تقصد شيئا مما مضى ، بل تريد أن تقول لسامعك : هل سمعت بالبطل الحامى ؟ وهل حصلت معنى الصفة ؟ وكيف ينبغى أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك فيه ؟ إن كنت قد عرفت ذلك . فهذا ضالتك المنشودة .

ويزداد وضوح هذا المعنى حين تكون الصفة التى يراد الإخبار بها عن المبتدأ مجراة على موصوف كقول ابن الرومى :

هو الرجل المشروكُ فى جُلِّ مَالِهِ ولكنه بالمجدِ والحمدِ مُفْرَدُ

ويعلق عبد القاهر على هذا البيت بقوله : « كأنه يقول للسامع : فكر فى رجل لا يتميز عفاته وجيرانه ومعارفه عنه فى ماله ، وأخذ ما شاءوا منه ، فإذا حصلت صورته فى نفسك ، فاعلم أنه ذلك الرجل » ثم يضيف فى بيان قيمة هذه النوع : « وهذا فن عجيب الشأن ، وله مكان من الفخامة والنبل ، وهو من سحر البيان الذى تقصر العبارة عن تأدية حقه ، والمعول فيه على مراجعة النفس ، واستقصاء التأمل »[1] .

(١) دلائل الإعجاز : ٢٠٠ — ٢٠١ .

ويبدو أن جمال هذا النوع من تعريف المسند ، وما يضفيه على العبارة من سحر مما يروق عبد القاهر ولهذا يكثر من التمثيل عليه ، فإن أردت – كما يقول – أن تسمع فى هذا المعنى ما تسكن النفس إليه سكون الصادى إلى برد الماء فاسمع قوله :

أنا الرجل المدعو عاشق فقره　　إذا لم تكارمنى صروف زمانى

وإن أردت أعجب من ذلك فقوله :

أهدى إلى أبو الحسين يَدَاً　　أرجو الثوابَ بها لديه غَدَا
وكذاك عاداتُ الكريم إذا　　أَوْلَى يدا حُسِبَتْ عليه يَدَا
إن كان يحسد نفسه أحدٌ　　فلأزعمنك ذلك الأحدا

فكل هذه الأمور التى مضت ، إنما تكون بتقدير شيء فى الوهم ، وتصوره فى الخيال ، وترديده فى الخاطر فإذا ما أحضرت صورة هذا الشيء أجرى مجرى العلم . يقول عبد القاهر : « فهذا كله على معنى الوهم والتقدير ، وأن يصور فى خاطره شيئا لم يره ، ولم يعلمه ، ثم يجريه مجرى ما علم وعهد » ويرى عبد القاهر أن هذا الضرب الموهوم أكثر ما يكون إذا جاء المسند موصولا : « وليس أغلب على هذا الضرب الموهوم من « الذى » فإنه يجيء كثيرا على أنك تقدر شيئا فى وهمك ثم تعبر عنه بالذى . مثال ذلك قوله :

أخوك الذى إنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ
يُجِبْكَ وإنْ تَغْضَبْ إلى السيف يَغْضَبِ

وقول الآخر :

أخوك الذى إن رِبْتَه قال إنما
أَرَبْتَ وإن عاتبته لانَ جَانِبُه

ومما تجدر الإشارة إليه أن الموصول إذا وقع مسندا أو مسندا إليه ، تكون فيه لطائف وإيماءات وأنه يضفي على المواقف نوعًا من الإيحاء جعلت عبد القاهر يعقد له فصلا خاصا يبدأه بقوله : اعلم أن لك في « الذي » علما وأسرارا جمة ، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها ، اطلعت على فوائد تؤنس النفس ، وتثلج الصدر ، بما يفضي بك إليه من اليقين ، ويؤديه إليك من حسن التبيين ، والوجه في ذلك أن تتأمل عبارات لهم فيه : لم وضع ، ولأي غرض اجتلب ؟ وأشياء وصفوه بها »[1] .

أحوال متعلقات الفعل :

يقصد بمتعلقات الفعل ما يرتبط به من الأمور التي تأتي في الكلام،وذلك كالفاعل، والمفعول به والظرف والجار والمجرور والحال والمفعول المطلق والمفعول لأجله وغير ذلك من الأشياء التي تتصل به من ملابسات وتأتي هذه المتعلقات بعد المسند وما يكون عليه من أحوال ، لأن المسند يكون فعلا . ويكون الحديث في هذه المتعلقات بمثابة التكملة للحديث في المسند .

والحديث في أحوال متعلقات الفعل يشتمل على ثلاثة أمور :

هي : ١ – أغراض تقييد الفعل ٢ – حذف المتعلقات وذكرها

٣ – التقديم والتأخير فيها .

ولما كان الحديث في حذف المتعلقات ، وتقديم المتعلقات وما يكون لها من أحوال في البلاغة مما سبق الحديث فيه فإننا نحيل القارىء إليه خشية الوقوع في التكرار[2]. ويبقى أغراض تقييد الفعل . ونخصها بالحديث في هذه السطور .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢١٣ .

(٢) انظر : التقديم والتأخير ، والذكر والحذف .

لقد ذكر البلاغيون أغراض تقييد الفعل على وجه الاجمال بقولهم : « وأما تقييد الفعل بمفعول ونحوه فلتربية الفائدة . ومعنى تربية الفائدة تكثيرها . وكأننا حين نذكر أحد هذه المتعلقات نكثر الفائدة فى الجملة . فقولنا أكل محمد يفيد وقوع الأكل منه . لكننا حين نقول : أكل محمد التفاحة . نكثر الفائدة من حيث نكشف عن نوع المأكول وأنه تفاحة وليست برتقالة أو غيرها . وحين نضيف كلمة صباحًا نكثر الجملة لأننا نبين الوقت الذى تم فيه الحدث . وهكذا فى كل المتعلقات .

لكن تكثير الفائدة يفيدنا أمورا أخرى يساعد السياق فى بيانها والكشف عنها . ولنقرأ قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾[1] فنحن حين نقرأ الآية نعرف أن السقف حين يخرُّ سيكون من فوقهم . لكن ذكر الجار والمجرور لم يكن عبثا على العبارة بل جاء ليؤكد الفعل ويقوى الحدث .

ومثل ذلك فى إفادة التقرير والتقوية قوله تعالى : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾[2] فقد جاء الجار والمجرور تقييدا للفعل ، ولو لم تذكر لفهم المعنى . فالقول لا يكون إلا بالأفواه . لكن ذكرها أكد الفعل .

ومما يأتى لمثل هذا الغرض قولنا . سمعته بأذنى ، ورأيته بعينى ، ووضعته بيدى ، ونحو ذلك من الأمثلة .

ويتصل بأحوال متعلقات الفعل الحديث عن معانى الحروف الجارة حين تتعلق بهذه الأفعال ، ونجد للبلاغيين والمفسرين لفتات ممتازة تكشف عن معانى

---

(١) النحل : ٢٦ . (٢) الأحزاب : ٤ .

هذه الحروف ، وارتباطها بالمواقف التى جاءت لتعبر عنها . ونشير إلى جهود الزمخشرى فى هذا الصدد . فهو[1] حين يتناول قوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾[2] يقول : « فإن قلت : فما معنى اللام فى قوله : أكان للناس عجبا ؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك أكان عند الناس عجبا ؟ قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها - وتضبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم وليس فى « عند الناس » هذا المعنى .

ومجيء الجر باللام فى قوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾[4] كان مناسبا لسبق منافع لهم ، لكن الأمر يختلف حين يكون التقييد « بعلى » فى قوله تعالى : « وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن » لأنها تفيد معنى القهر والاستعلاء .

تقييد الفعل بالشرط :

ومما عنى به أهل البلاغة تقييد الفعل بالشرط ، واهتموا من بين أدوات الشرط بإذا وإن ولو . وكأنهم لحظوا أن هذه الأدوات الثلاثة لم تأخذ ما يجب من العناية ، أو أن فيها ما يمكن أن يقال بعد الجهود الطيبة للنحاة فيما يتعلق بأدوات الشرط .

ولقد كان عبد القاهر - كما عرف عنه - لماحًا . فقد أدخل الحروف فى النظم ، وجعلها جزءا منه ، فليست مجرد أدوات ربط ، أو كما عرفها النحاة لا

(١) الكشاف : جـ ٢ ، ٢٢٤ .
(٢) يونس : ٢ .
(٣) الأنبياء : ١٠١ .
(٤) الصافات : ١٧١ .

يظهر لها معنى إلا مع غيرها . إن معرفة الحروف ، وما يشترك فيه بعضها من المعاني ، وما يختلف فيه من الأمور التي يجب النظر إليها في حسن النظم وبلاغته فيجب « أن ينظر في الحروف التي تشترك في معنى ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه » ومن بين هذه الحروف إذا وإن والمعنى الذي تأتي فيه « إن هو ما يترجح أن يكون أو لا يكون ، أما إذا فتأتي فيما علم أنه كائن »[1] وحين تحدثوا عن أغراض تقييد الفعل بالشرط ذكروا أن ذلك يكون لاعتبارات لا تظهر إلا عندما تعرف الفروق بين أدواته . وقد اكتفى علماء البلاغة بما ذكر النحاة في الأدوات ما عدا إن ، وإذا ولو . وقد تابع البلاغيون عبد القاهر فبينوا أن إذا وإن للشرط في الاستقبال ، لكنهما يفترقان في شيء وهو أن الأصل في « إن » ألا يكون الشرط بها مقطوعا بوقوعه . كأن تقول لصاحبك : إن تكرمني أكرمك – وأنت لا تقطع بأنه يكرمك .

لكن الأصل في « إذا » أن يكون الشرط بها مقطوعًا بوقوعه . كأن تقول : إذا زالت الشمس آتيك » .

وقد لاحظوا من خلال ذلك أن الحكم النادر يكون موقعا « لأن » لأنه غير مقطوع بوقوعه في غالب الأمر . كما لاحظوا غلبة لفظ الماضي مع « إذا » لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع نظرا إلى اللفظ . قال تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾[2] ففي جانب الحسنة جاءت « إذا » لأن الحسنة مقطوع بها ، ولم يحدث هذا في جانب السيئة . إذ جاءت « إن » لأن السيئة نادرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة – ولذا نكرت »[3] .

---

(١) دلائل الإعجاز .
(٢) الأعراف : ١٣١ .
(٣) بغية الإيضاح : ١٨٨ .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾[1] ففى جانب الرحمة جاءت « إذا » إشارة إلى أن إصابة الناس شيئا من الرحمة من الأمور المقطوع بها . وللسكاكى رأى فى تنكير الرحمة . فقد جعله للنوعية نظرا إلى لفظ الإذاقة ، « وجَعْلُهُ للتقليل نظرا إلى لفظ الإذاقة كما قال أقرب »[2] .

وقد يعترض بأن « إذا » جاءت مع الضر فى قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الناس ضر ﴾[3] . وذلك لا يتسق مع الآيتين السابقتين . كما جاء على هذا قوله تعالى : ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾[4] وقد أجيب عن الآية الأولى : بأن المسّ إنما هو شيء قليل . يفيد ذلك تنكيره . وأنه يصيب بعض الناس المستحقين لذلك . ومساس شيء قليل من الضر لأمثال هؤلاء فى حكم المقطوع به . ومثل ذلك يقال فى الآية الثانية . إذ جاءت فى أعقاب قوله تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ إن الآية فى صدرها تتحدث عن أناس جحدوا نعمة الله عليهم، وأصابتهم النعمة بالصلف والغرور ، ولم يذكروا حق المنعم عليهم ، وحق هؤلاء أن يصيبهم مسّ من الشر . لتعود لهم أحلامهم الضالة ، وترجع إليهم عقولهم المغيّبة ، ويذكروا نعمة المنعم عليهم ، إن مسّ الضر لهؤلاء فى حكم المقطوع به ولهذا ناسب التعبير عنه « بإذا » لقد أدرك علماء البلاغة دقة التعبير « بإن ، وإذا » وما يناسب المواقف من هاتين الأداتين فقصّلوا القول فيهما . كما أشاروا إلى ما يقع فيه البعض من الخطأ لجهله بمواقعهما . يقول الزمخشرى « وللجهل بموقع — إن

(1) الروم : ٣٦ .
(2) بغية الإيضاح : ١٨٨ .
(3) الروم : ٣٣ .
(4) فصلت : ٥١ .

وإذا — يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون ، ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع فى قوله يخاطب بعض الولاة ، وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فقضاها :

ذُمِمْتَ ولم تُحْمَدْ، وأدركتُ حَاجَتِي	تَوَلَّى سواكم أجْرَها واصطناعهـا
أَبَى لك كسْبَ الحمد رأيٌ مُقَصِّرٌ	ونفس أضاق الله بالخير باعهـا
إذا هى حثته على الخير مرة	عصاها ، وإن همت بشرٌّ أطاعها

والرجل يهجو ، ولا يناسب مواقف الهجاء أن يكون للمهجو نفس تحثه على الخير ، أى أن يكون ذلك منها فى حكم المقطوع به ، وأن يكون همها بالشر فى حكم غير المقطوع به . ولهذا قالوا لو أنه عكس لأصاب .

وإذا كان هذا هو الأساس فى استعمال كل من — إذا وإن — فإنه قد تأتى إحداهما مكان الأخرى لغرض بلاغى ، ونكته فنية يدركها ذوو الحس المرهف . « فإن » قد تستعمل فى مقام القطع بوقوع الشرط لغرض من الأغراض يستدعيها المقام . كالتجاهل ، أو تنزيل العالم بالشىء منزلة الجاهل به لعدم جريه على موجب العلم . وذلك كقولك لمن يؤذى أباه : « إن كان أباك فلا تؤذه » أو التوبيخ على الشرط ، وتصوير أن المقام لاشتماله على ما يقلعه عن أصله لا يصلح إلا لفرضه كما يفرض المحال لغرض ، كقوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين ﴾ فى قراءة « إن » بالكسر .

أو يكون الغرض تغليب غير المتصف بالشرط على المتصف به . أى تغليب المشكوك فى اتصافه بالشرط على المجزوم باتصافه به . وذلك كقوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ فقد قالوا إن مجىء الشرط « إن » يحتمل أن يكون للتوبيخ على الريبة لوجود ما يقتلعها من أصلها ، ويحتمل أن

يكون لتغليب غير المرتابين من المخاطبين — على المرتابين منهم ، فإنه كان فيهم من يعرف الحق وينكره عنادا[1] .

وكما يقولون — لأدنى ملابسة ينتهز البلاغيون فرصة تفسير الآية السابقة على التغليب ، ويتحدثون فى هذا الفن — على الرغم من أنه يعد من فنون البديع . ويقولون : إن التغليب باب واسع ، يجرى فى فنون كثيرة . كقوله تعالى : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا ﴾ فلم يكن شعيب عليه السلام فى ملتهم أصلا ، لكنهم ذكروا عودته على التغليب ومثله قوله تعالى : ﴿ إن عدنا فى ملتكم ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ وكانت من القانتين ﴾ فقد غلب جمع المذكر .

ولما كانت إن وإذا لتعليق أمر بغيره ، أى تعليق الجواب بالشرط ، وهذا لا يأتى إلا فى الاستقبال . امتنع فى كل واحدة من جملتيهما الثبوت ، أى أن تكون الجملتان اسميتين لأن الاسم للثبوت . كما امتنع فى أفعالهما المُضىّ أى لا يصح أن يكون الفعلان ما ضيين لفظا ومعنى ، لأن ذلك ينافى كونهما للمستقبل . لكن هناك صور جاء فيها الشرط ماضيا لفظا ومعنى وقد حاول النحاة تخريجها .

لكن الأصل أن يقال : إن تكرمنى أكرمك . فإن قلت إن تكرمنى أكرمتك كان مجيء الجواب ما ضيا إشارة إلى الرغبة فى حصول الشرط .

وعلى الجملة إن كان الجواب ماضيا كان وراء مجيئه سر بلاغى . وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا ﴾ فإن الأصل إن يردن ، لكن مجيئه بلفظ الماضى للرغبة فى أن يكون ذلك واقعا . وقد يكون

---

(١) بغية الإيضاح : ١٩٠ — ١٩١ .

السبب فى ذلك التعريض كقوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا من الظالمين ﴾ .

وأما « لو » فهى للشرط فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط . فيلزم انتفاء الجواب . وقالوا إنها امتناع لامتناع . ويلزم كون جملتيها فعليتين ، وكون الفعل ماضيا . وما جاء من دخولها على المضارع إنما كان لسر بلاغى . وذلك كما نجد فى قوله تعالى : ﴿ لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ﴾ فقد عللوا لذلك بأنه لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتا فوقتا .

ودخولها على المضارع فى قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون موقوفون عند ربهم ﴾ إنه نزل منزلة الماضى لصدوره عمن لا خلاف فى إخباره . كما نزل « يود » فى قوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ منزلة « ود » .

وهكذا فى كل موضع وَلِىَ المضارع « لو » .

الفصل والوصل

يعد باب الفصل والوصل من أدق أبواب البلاغة لما يقتضيه من معارف أخرى فى اللغة وقد أشاد البلاغيون والأدباء بأهمية هذا الباب ، وعدوه عماد البلاغة ، ومما أثر عن الجاحظ وهو يتحدث عن البلاغة ، قال على لسان بعضهم « البلاغة معرفة الفصل من الوصل » أو معرفة الفصْل والوصل .

ويعده عبد القاهر الجرجانى من أسرار البلاغة ، ومن الأمور التى لا يتم الصواب فيها ، وإصابة الغرض إلا للخلص من العرب . أو كما يقول : « اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمجىء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتى تمام الصواب فيه إلا للأعراب الخلص ، والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد .

وعلى أية حال يتميز هذا الباب بلطف المدخل ، ودقة المسلك ، ومعرفة وجوه الكلام ، وما يكون عليه من الاتصال أو الانفصال .

تعريف الفصل والوصل :

يعرف البلاغيون الوصل بأنه عطف الجمل بعضها على بعض بالواو خاصة . ويكون الفصل هو ترك العطف .

وحتى يتم ضبط هذا الباب ، والتغلب على ما يكون فيه من دقة المسلك ، تلك التى أشار إليها البلاغيون يحسن أن نضع فى البداية بعض الأسس التى تساعد

فى التغلب على مشكلاته . وأول هذه الأسس : ما يقوم به العطف فى المفرد ، لأن ما يجرى على المفرد يجرى على بعض الجمل .

وما يؤديه العطف فى المفرد هو إشراك المعطوف فى الحكم الذى جرى على المعطوف عليه من حيث الإعراب . فحين تقول قدم محمد وعلى نحكم على المعطوف على بما كان عليه المعطوف عليه ، وهو محمد فى الحكم الإعرابى خاصة . ولما كان الأول مرفوعًا على الفاعلية ، فإن الثانى يكون مرفوعًا كذلك على الفاعلية .

وإذا قلنا رأيت زيدا وعمرا ، فقد أشركنا عمرا فى الحكم الإعرابى الذى كان لزيد وهو النصب على المفعولية .

ثانيا : أن من الجمل ما يكون له محل من الإعراب ، ومنها ما لا يكون له محل من الإعراب فالجمل التى لها محل من الإعراب . مثل جملة الصفة ، والخبر ، والحال ، وأنواع التوابع ، والجمل التى لا محل لها من الإعراب . كجملة الصلة ، والجمل الاعتراضية .

ثالثا : حروف العطف ليست كلها قاصرة على مجرد إشراك المعطوف فى الحكم الإعرابى للمعطوف عليه . فكل حرف من حروف العطف له معنى آخر إلا الواو ، فإن عملها قاصر على مجرد إشراك المعطوف فى حكم المعطوف عليه . [فالفاء] مثلا تفيد الترتيب والتعقيب ، [وثُمَّ] تفيد الترتيب مع التراخى ، وأو تفيد التخيير . ومن هنا يكون العطف بأى من هذه الحروف لفائدة . زائدة على مجرد الإشراك فى الإعراب فحين نقول : أعطانى فشكرته يكون الشكر تاليا للعطاء وفى عقبه ، وفى قوله تعالى : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ يكون فتح السماء تاليا للدعاء وطلب النصرة دون

أدنى تراخ بخلاف ثم التى تفيد الترتيب مع مهلة . كأن تقول زارنى الضيف ثم ذهب .

وبعد هذه المقدمات يمكننا أن نقرر أن العطف بأى من حروف العطف الأخرى غير الواو لا يَشْكُلُ الأمر فيه . وأن العطف على الجمل التى لها محل من الإعراب بالواو لا يشكل الأمر فيه كذلك ، لأن الحكم فى هذه الجمل كالحكم على المفرد فى العطف ، أى أننا نريد إشراك الجملة الثانية للأولى فى حكمها الإعرابى . لكن الضرب الذى يشكل الأمر فيه ، هو عطف جملة أخرى على الجمل العارية من الإعراب بالواو خاصة . كقولك : زيد قائم وعمرو قاعد والعلم حسن والجهل قبيح « فلا سبيل لنا إلى أن ندعى أن الواو أشركت الثانية فى إعراب وجب للأولى بوجه من الوجوه . وإذا كان كذلك فينبغى أن تعلم المطلوب من هذا العطف ، والمغزى منه ، ولِمَ لَمْ يستو الحال بين أن تعطف وأن تدع العطف ، فتقول : زيد قائم عمرو قاعد بعد أن لا يكون هنا أمر معقول يؤتى بالعاطف ليشرك بين الأولى والثانية فيه »[1] .

والأمور التى تسوغ عطف مثل الجملتين السابقتين بالواو أن بينهما سببا ، ذلك لأن المحدث عنهما فيهما وهما « زيد وعمرو » كالنظيرين والشريكين وإذا عرف السامع حال الأول منهما عناه أن يعرف حال الثانى . ويدل على ذلك أنهم يعيبون أن يتم عطف جملة على أخرى لا يوجد سبب بينهما . فلا يصح مثلا أن نقول : خرجنا من منزلنا والمتنبى هو قائل هذا البيت ، إذ لا علاقة بين خروجنا وبين أن يكون المتنبى هو قائل البيت . ومما وجدوه معيبا لهذا السبب قول أبى تمام :

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٣٠ – ٢٣١ .

لا والذى هو عالمٌ أن النـوى   صَبِرٌ وأن أبـا الحسين كريـمُ

« وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبى الحسين ، ومرارة النوى ، ولا تعلق لأحدهما بالآخر ، وليس يقتضى الحديث بهذا ذاك »[1] .

فأول المسوغات لعطف جملة على أخرى هو وجود سبب بين المحدث عنه فيهما على نحو ما كان بين زيد وعمرو من كونهما كالنظيرين أو الشريكين . بالإضافة إلى اتفاق الجملتين فى كونهما خبريتين . « ومن جهة أخرى ينبغى أن يكون الخبر عن الثانى لما يجرى مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر الأول » أى أن يكون بين الخبرين صلة مّا سواء كانت عن طريق التناظر أو التناقض ، أو مما جرت العادة بالجمع بينهما . فلا مجال للقول مثلا : زيد طويل القامة ومحمد شاعر . إذ لا صلة بين طول القامة عند هذا ، وصفة الشاعرية عند الآخر . والخلاصة أنه لا يصح عطف جملة على أخرى ما لم تكن بينهما مناسبة . أو كما يقول عبد القاهر : « وجملة الأمر أنها لا تجيء حتى يكون المعنى فى هذه الجملة لَفْقـاً لمعنى فى الأخرى ، ومضافا له ، مثل أن زيدا وعمرا إذا كانا أخوين أو نظيرين ، أو مشتبكى الأحوال على الجملة ، كانت الحال التى يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة فى النفس إلى الحال التى عليها الآخر من غير شك ، وكذا السبيل أبدا . والمعانى فى ذلك كالأشخاص ، فإنما قلت مثلا : العلم حسن والجهل قبيح . لأن كون العلم حسنا مضموم فى العقول إلى كون الجهل قبيحا »[2] .

---

(١) السابق : ٢٣٢ .

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٣٣ .

ومما يزيد الربط بين الجملتين بالواو قوة أن يكون الخبر عنه فيهما واحداً ، وذلك كقولنا : هو يعطي ويمنع . ولا يليق ترك الواو ، لأن تركها يوهم الرجوع عن الفعل الأولى . ويبين عبد القاهر أن وقوع الفعلين فى الصلة يزيد من الاشتباك والاقتران بينهما ، حتى لا يمكن تصور إفراد أحدهما عن الاخر . وذلك فى مثل قولك : العجب من أنى أحسن وتسيء، ويكفيك ما قلت وسمعت ، وأيحسن أن تنهى عن خلق وتأتى مثله . وذلك أنه لا يشتبه على عاقل أن المعنى على جعل الفعلين فى حكم واحد »[1] .

ومن الأمثلة التى يتضح فيها هذا الارتباط قول الشاعر :

لا تطمعوا أن تهينونا وَنُكْرِمَكُم   وأن نكفَّ الأذَى عنكم وَتُؤْذُونَا

فالمعنى فى البيت ، لا تطمعوا أن تروا منا إكراما مع إهانتكم لنا ، كما لا تطمعوا أن نكف أذانا عنكم ، وأذاكم لنا مستمر وموصول .

ومن الدقيق الذى يعبر به فى هذا المعنى قول أبى تمام :

لهانَ علينا أن تقولَ وتَفْعَـلَا   ونذكر بَعضَ الْفَضْلِ منك وتَفْضُلَا

وأبو تمام هنا يمدح . ويصف ممدوحه بأنه يفعل فى الوقت الذى يقولون فيه ، ويتفضل بالمنن والمكرمات ، وهم يذكرون له بعض هذه المنن والمكرمات .

وإذا كنا قد عرفنا أن العطف بين الجملتين يتأتى عندما يكون بينهما صلة من الصلات التى سبق القول فيها فإنه يحسن بيان المواضع التى يتم فيها الفصل .

---

(١) السابق .

وأول هذه المواضع أن يكون بين الجملتين اتصال تام بأن تكون الثانية فى موضع الصفة للأولى ، أو توكيد أو بيان لها . فحينئذ يجب الفصل بينهما لأن الوصل بالواو يكون كعطف الشىء على نفسه .

وإذا كانت الصفة فى المفرد لا تعطف على موصوفها ، والمؤكِّد لا يُعطف على المُؤَكَّد ، فالأمر كذلك فى الجمل أيضا .

ومما جاء من الجمل مفصولا لأن الجملة الثانية كانت تأكيدا للأولى قوله تعالى : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ فقوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ بيان وتحقيق وتوكيد لقوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾[1] وهى بمثابة التوكيد اللفظى الذى يكرر فيه اللفظ ، وكأنه قيل ذلك الكتاب ذلك الكتاب .

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم ﴾ .

ففى الآية الكريمة حدث الفصل فى جملتين الأولى « لا يؤمنون » التى كانت تأكيدا لقوله تعالى : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ والثانية : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ وهى تعد بمثابة توكيد آخر » .

ومن الأمثلة التى جاءت الجمل فيها بغير وصل لأن الجملة الثانية وقعت موقع التوكيد للأولى ، قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولىّ مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾ فلم يقل : « وكأن فى أذنيه » لأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقر ، هو نفس المقصود بالتشبيه بمن لم يسمع » فالمعنى

---

(١) البقرة : ١ ، ٢ .

فيهما نفى أن يكون لتلاوة الآيات فائدة ، أو تأثير . وكأن حالته قبل أن تتلى عليه ، مثل حالته بعد تلاوتها .

وقد ذكر عبد القاهر الجرجانى كثيرا من الأمثلة ، وبين الوجود التى اقتضت الفصل بين الجمل . ومن هذه الأمثلة ما وجد عدم الوصل فيه إما لأن الجملة الثانية تصلح لأن تكون توكيدا للأولى ، وتصلح أن تكون صفة لها . فهو يقول : ﴿ ومن اللطيف فى ذلك قوله تعالى: ﴿ ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . فالجملة الثانية ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ مشابه لقوله تعالى : ﴿ ما هذا بشرا ﴾ من ثلاثه أوجه— حسب قوله— وجهان هو فيهما شبيه بالتوكيد ، ووجه شبيه بالصفة .

أما الوجهان الشبيهان بالتوكيد ، فالأول أنه إذا كان ملكا لم يكن بشرا ، وإذا كان كذلك كان إثبات كونه ملكا تحقيقا لا محالة ، وتأكيدا لنفى أن يكون بشرا .

والوجه الثانى يفسره بحسب ما يجرى فى العرف والعادة من أنه إذا قيل : ما هذا بشرا ، وما هذا بآدمى ، والحال تعظيم وتعجب مما يشاهد فى الإنسان من حسن خُلُق أو خَلْق — أن يكون المراد من الكلام أن يقال إنه ملك ، وما دام ذلك مفهوما من اللفظ قبل أن يذكر ، يكون ذكره بمثابة التوكيد .

وأما الوجه الذى هو شبيه بالصفة ، فهو أنه إذا نفى أن يكون بشرا ، فقد أثبت له جنسا آخر ينتمى إليه ، لأنه من المستحيل أن يخرج الشىء من جنس ولا يدخل فى آخر . وما دام الأمر كذلك يكون ذكر هذا الجنس بمثابة التعيين والتبيين لهذا الجنس[1] . الذى أريد إدخاله فيه وهذا ما تقوم به الصفة .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٣٦ — ٢٣٧ .

ومما جاء مفصولاً بين الجملتين لوقوع الثانية موقع التوكيد من الأولى قول أبي العلاء :

كأن أذنيه أعطت قلبه خبرا   عن السماء بما يلقى من الغِيَر
يحس وطء الرزايا وهي نازلة   فينهبُ الجرى نفس الحادث المكر

ومما جاء كذلك لوقوع الثانية موقع البدل من الأولى . قوله تعالى : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا ﴾ فقد فصل جملة قالوا أئذا متنا ، لأنها بدل اشتمال من الجملة الأولى . ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ﴾ فجملة ﴿ أمدكم بأنعام ﴾ بدل بعض من جملة أمدكم بما تعلمون . ويحدث الفصل بين الجملتين إذا كانت الثانية في موقع بدل الاشتمال من الأولى مثل قوله تعالى : ﴿ اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾ فجملة اتبعوا من لا يسألكم أجرا بدل اشتمال من جملة اتبعوا المرسلين ، وهي أكثر بيانا في حمل المخاطبين على اتباع الرسل . وقد جاء من بدل الاشتمال في الفصل قول الشاعر :

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا   وإلا فكن في السر والجهر مسلما

فجملة لا تقيمن بدل اشتمال من جملة ارحل ، وهي أدل على الغرض ، وبخاصة لاشتمالها على التوكيد .

وإذا كان الاتصال التام مما يوجب الفصل بين الجملتين ، فإن الانقطاع التام يحتم الفصل أيضا ذلك لأن العطف يقتضي المشاركة ، والمشاركة لا تصح بين الأمور التي لا توجد بينها صلة على نحو ما أسلفنا القول .

ويتمثل الانقطاع التام بين الجملتين في أمور :

١ – اختلافهما فى الخبر والإنشاء ، بأن تكون إحداهما خبرا والأخرى إنشاء سواء كان ذلك فى اللفظ والمعنى . كقوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ . وقول الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلائقه   فى وجهه شاهد من الخبر

فمن الواضح الاختلاف بين الجملتين فى الخبر والإنشاء فى اللفظ والمعنى . وقد يكون الاختلاف بينهما فى الخبر والإنشاء فى المعنى فقط مثل قولنا : نجح فلان وفقه الله . ومنه قول الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوى من صديقى

٢ – ألا يكون بين الجملتين مناسبة ، كأن تقول : استيقظت مبكرا ومحمد شاعر أو قول الشاعر :

وإنما المرءُ بأصغريه   كلُّ امرىءٍ رهنٌ بما لديه

وقد سبقت الإشارة إلى أنهم عابوا قول الشاعر :

لا والذى هو عالم أن النوى   صبر وأن أبا الحسين كريم

وذلك لأنه وصل بين الجملتين وليس بين كرم أبى الحسين والنوى صلة أو مناسبة ، حسب قولهم .

٣ – ويمتنع الوصل بين الجملتين أيضا إذا كان بينهما شبه كمال اتصال . والضابط لهذا . أن تكون الجملة الأولى بمنزلة السؤال للثانية . ومن خلال تسمية هذا النوع يتضح أنه غير كمال الاتصال، لأن كمال الاتصال يكون الارتباط بين

الجملتين قويا والصلة بينهما جلية ، بل قد تكون الثانية عين الأولى . وليس الأمر على هذا الشكل هنا ، فمجرد ما بين الجملتين فى شبه كال الاتصال أن الجملة الثانية فيها نوع من الإبانة عما أثارته الأولى . وعبارة الخطيب تنبىء عن هذه الصلة فهو يقول : « وأما كونها بمنزلة المتصلة بها فلكونها جوابا عن سؤال اقتضته الأولى ، فتنزل منزلته فتنفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال »(١) . ويمتد السكاكى بالفكرة حيث يذكر لنا أن الجملة الأولى بفحواها كالمورد للسؤال . فتنزل منزلته فى الواقع ، أى تصبح كأنها سؤال فى الواقع . ويطلب بالثانى جواب لهذا السؤال . ومن هنا يقطع عن الكلام السابق . ويفصل . وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة السؤال فى الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة يبينها « السكاكى » وذلك حين يقول : « وتنزيل السؤال بالفحوة منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة » فيكون لتنبيه السامع إلى موقعه ، أو لإغنائه عن أن يسأل ، أو لئلا يُسْمَعَ منه شىء ، أولئلا ينقطع كلامك بكلامه ، أو للقصد على تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال »(٢) .

ولم تكن هذه الفكرة غائبة عن نظر الإمام عبد القاهر . فقد أوردها ، وأكثر من التمثيل عليها فمن خلال حديثه عن القطع فى الآية الكريمة : ﴿ الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ على الرغم مما يوهمه الظاهر من أنه يمكن الوصل حيث سبق ذكر الاستهزاء فى قولهم لقومهم : ﴿ إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ . وعبد القاهر يبين أن مواضع الفصل تلتبس بمواضع الوصل فى مثل ذلك وتدق على غير البصير العارف . يقول : « واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول إنه فيه خفى غامض ، ودقيق صعب ، إلا وعلم هذا الباب

(١) الإيضاح : ٩١ .
(٢) مفتاح العلوم : ١١٠ .

أغمض وأخفى وأدق وأصعب ، ثم بين أن منه « ما ترى الجملة وحالها مع التى قبلها حال ما يعطف ويقرن إلى ما قبله ، ثم تراها قد وجب فيها ترك العطف لأمر عرض فيها صارت به أجنبية عما قبلها »[1] ومن خلال بيانه لما استدعى أن يفصل بين جملة ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ ﴿ ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ بين تلك الحالة التى نتحدث عنها وهى احتمال الجملة الأولى ، وإثارتها للتساؤل وإذا كان وقوع الكلام بعد السؤال الصريح يقتضى الفصل بينه وبين السؤال ، فكذلك الأمر مع السؤال بالفحوى. يقول : « وإذا استقريت وجدت هذا الذى ذكرت لك من تنزيلهم الكلام إذا جاء بعقب ما يقتضى سؤالا منزلته إذا صرح بهذا السؤال كثيرا ، فمن لطيف ذلك قول :

زعم العواذلُ أننى فى غمـرةٍ صَدَقوا ولكن غمرتى لا تَنْجَلِى

فحين تحدث العواذل قائلين إنه فى غمرة ، وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأل فيقول : فما قولك فى ذلك ؟ وما جوابك عنه ؟ أخرج الكلام مُخْرَجَه إذا كان ذلك قد قيل له وصار كأنه يقول أرد عليهم بقولى : صدقوا ، فأنا كما قالوا . ولكن تلك الغمرة لا تنكشف عنى ولا تزول .

ومن الأمثلة التى يذكرها عبد القاهر على هذا النوع قول جندب بن عمار ابن نعيم الطائى :

زعم العواذلُ أن ناقةَ جُنْدُبٍ بجنوب خَبْتٍ عُرِّيَتْ وَأُجِمَّتْ
كذب العواذلُ لو رأين مُنَاخَنَا بالقادسية قلـن لَجَّ وذلَّـت

ولا يترك عبد القاهر الأمر دون أن يذكر إضافة إلى أمر القطع لإثارة الكلام الأول لسؤال فى ذهن المستمع . بل يضيف إليه فائدة أخرى وردت فى البيتين

(1) دلائل الإعجاز : ٢٣٧ - ٢٣٨ .

السابقين ، وهو أن الشاعر حين وضع الظاهر موضع المضمر فقال : كذب العواذل ، ولم يقل كذبوا ، زاد بهذا الأمر تأكيد الفصل .

ومما هو لطيف فى تحريك السؤال فى نفس السامع ، ومجىء الكلام مفصولا غير موصول قول اليزيدى :

مَلَّكْتُه حَبْلى ولكنَّـهُ   أَلْقَاهُ مِنْ زُهْدٍ عَلَى غَارِبِى
وقال إنِّى فى الهوى كاذبٌ   انتقم اللهُ مِنَ الكاذِبِ

فقد استأنف فى جملة « انتقم الله من الكاذب » لأن الجملة الأولى : [وقال إنى فى الهوى كاذب] حركت السؤال فى السامع وكأنه قال له . وماذا قلت له ؟ فأجاب قلت : انتقم الله من الكاذب .

ويذكر عبد القاهر أن من النادر قول الشاعر[1] :

قال لى كيف أنت .. قلت عليلٌ   سهرٌ دائمٌ وحزنٌ طويلُ

وهو يفسر ذلك ، ويكشف عن ندرته ، وموطن الحسن فيه ، بما جرى فى العادة من أنهم إذا قالوا للرجل : كيف أنت ؟ وقال : « عليل » أن يطرحوا عليه سؤالا يقول : وما علتك أو ما بك ؟ ولَمّا قدر أن ذلك يكون منهم أجاب عليه بقوله : سهر دائم ، وحزن طويل ، وكعادة « عبد القاهر » يكثر من الشاهد ، ويبين سبب الاستشهاد به ، وينتهز الفرصة ليكشف عن فائدة هنا أو هناك ، اقتضتها العادة ، أو دعا إليها العرف ، أو حتمتها طبيعة نسق الكلام على نحو تفريعه فى ذكر الفعل بعد السؤال الصريح والسؤال المقدر فهو حين يمثل بقول أبى الطيب :

---

(١) السابق : ٢٤٢ .

وما عفت الرياح له محلا عفاهُ من حدا بهم وساقا

يبين لماذا أثير السؤال. وأن الذى أثاره ذلك النفى . فمن العادة أنه إذا نفى الفعل عن واحد أن يقال فمن فعله . وحين نفى المتنبى أن تكون الرياح تسببت فى عفاء المحل فقيل إذا لم تكن الرياح هى التى فعلت ذلك ، فمن عساه يكون قد فعله . فكان الجواب على هذا السؤال المحتمل ، وقد جاء مفصولا .

ومنه أيضا قول الوليد بن يزيد :

عرفتُ المنزلَ الخالى عفا من بعد أحوالى
عفاهُ كُلُّ حَنَّانٍ عَسُوفِ الْوبْلِ هَطَّالِ

وبعد ذلك يبين الفرق فى ظهور الفعل بعد السؤال الصريح ، والسؤال المضمر . فيقول : « واعلم أن السؤال إذا كان ظاهرا مذكورا فى مثل هذا . كان الأكثر ألا يذكر الفعل فى الجواب ويقتصر على الاسم وحده ، أما مع الإضمار فلا يجوز إلا أن يذكر الفعل »[1] .

والذى دعا عبد القاهر إلى ذلك ذكر الفعل فى بيت المتنبى السابق ، وذكره فى بيتى الوليد لأن السؤال فيهما غير ظاهر ، وعدم ذكر الفعل لا يكون للعلم به سبيل . أما فى السؤال الظاهر فالفعل مذكور فيه ، وحين يذكر الاسم يكون منويا فى الجواب .

وينزل منزلة الذى يضمر فيه السؤال ما يأتى بلفظ قال . وأمثلته كثيرة فى القرآن الكريم ، وفيه يأتى لفظ قال مقطوعًا عما قبله لإثارة السابق للسؤال فى نفس السامع . يقول عبد القاهر : « واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ قال

(١) دلائل الإعجاز : ٢٤٣ .

معصولا غير معطوف . هذا هو التقدير فيه »[٢] ويمثل له بقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال : ألا تأكلون — فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ﴾ .

وقد فسّر تولد هذا السؤال بما يقع فى أنفس المخلوقين من السؤال : « فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم : دخل قوم على فلان فقالوا كذا : أن يقولوا : فما قال هو ؟ ويقول المجيب : قال كذا أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه » .

ولئن كان عبد القاهر ، قد أشار إلى الخواطر المنبعثة من الجملة الأولى ، وتأتى الجملة الثانية لتجيب عن هذا الهاتف الذى يتردد فى النفس . لئن كان عبد القاهر قد أومأ إلى هذا وأشار إليه فقد التقط متأخرو البلاغيين منه هذا الخيط ، وبينوا تلك الخواطر التى تنبعث من السؤال المضمن ، ووجدوها تكمن فى ثلاثة بواعث :

الأول : أن يكون هذا السؤال عن سبب عام للحكم . نحو قول الشاعر :

قال لى كيف أنت : قلت عليل ... سهر دائم وحزن طويل

أى ما بالك عليلا ، أوما سبب علتك ؟ وقول الشاعر (أبو العلاء) :

وقد غرضت من الدنيا فهل زمنى ... معط حياتى لغرّ بعدما غرضا
جرّبتُ دهرى ، وأهْلِيهِ ، فما تركت ... لى التجاربُ فى ودِّ امرىءٍ غَرَضاً

فأبو العلاء يصف فى البيت الأول ضيقه بالحياة وما يقع فيها مما يشقى ذوى العقول والألباب وهو لا يريد هذه الحياة ، ويتمنى أن يهب الدهر هذه الحياة لغرٍّ

جاهل لا يزال فى شوق إلى مزيد منها . وهذا القدر يثير خواطر تتطلع إلى معرفة سبب ذلك . فيأتى الشاعر بالجواب فى البيت الثانى . ويدل به على أن الذى دعاه إلى ذلك تجاربه مع الزمان وأهله ، وكيف جعلته التجارب لا يطمئن إلى ودّ إنسان كائن من كان .

والثانى أن يكون السؤال حول علة معينة، أو كما يقول الخطيب القزوينى : « عن سبب خاص له كقوله تعالى: ﴿ وما أبرىء نفسى إن النفس لأمّارة بالسوء ﴾ كأنه يقول : هل النفس أمارة بالسوء ؟ فقيل : إن النفس لأمّارة بالسوء » وهذا الضرب يقتضى تأكيد الحكم كما مرّ فى باب أحوال الإسناد .

والثالث : أن يكون السؤال عن شىء غير هذا وذاك . كقوله تعالى : ﴿ قالوا سلاما ، قال سلام ﴾ كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام ، فقيل : قال : سلام . ومن هذا النوع قول الشاعر :

زعم العواذلُ أننى فى غمرةٍ ... صدقوا ولكن غمرتى لا تنجلى

٤ — الموضع الرابع الذى يتعين فيه الفصل بين الجملتين أن يكون بينهما شبه كمال الانقطاع أو حسب عبارة الخطيب أن تكون الثانية بمنزلة المنقطعة من الأولى . والذى جعلها بمنزلة المنقطعة عنها أن عطفها عليها يوهم خلاف المقصود ، أو هو موهم عطفها على غيرها . ويسمى الفصل هنا قطعا . ومثاله قول الشاعر :

وتظنُّ سلمى أننى أبغى بها ... بَدَلًا أراها فى الضلال تهيم

فجملة « أراها » يمكن عطفها على جملة « تظن » لكن منع من ذلك توهم أن تكون معطوفة على جملة « أبغى بها بدلا » لقربها منها .

ويجعل السكاكي القطع على نوعين : الأول القطع للاحتياط وهو ما لم يكن لمانع من العطف كالبيت السابق . والثاني : القطع للوجوب . وهو ما كان لمانع . ومثله قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ قال : لأنه لو عطف سيعطف على جملة « قالوا » أو على جملة « إنا معكم » والعطف على أي منهما لا يصح[1] وقد تناول عبد القاهر الجرجاني هذه الآية وبين سبب الفصل فيها ، وأرجعه إلى المعنى المراد بها ، والموقف الذي تعبر عنه ، وقد تحدث عن شيء اعتبره أصلا في باب الفصل والوصل ، وهو أن المرء قد يرى الجملة وحالها حال ما يعطف من الجمل ، لكن يجب ترك العطف فيها « لأمر قد عرض فيها صارت به أجنبية عما قبلها » وعمق نظرة عبد القاهر أنه لا ينظر إلى العلاقات القائمة بين الجمل فحسب ، بل تمتد نظرته إلى ما يطرأ بين هذه الجمل من علاقات نتيجة لما يجد من المواقف والظروف والاعتبارات . وإذا كان الظاهر في قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ يقتضى أن يعطف على ما قبله من قوله : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ ، وذلك لأنه ليس بأجنبي عنه ، بل هو نظير ما جاء معطوفا من قوله تعالى : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ وقوله : « ومكروا ومكر الله » وما أشبه ذلك مما يُرَدُّ فيه العجز على الصدر . « فإنك تجده قد جاء غير معطوف وذلك لأمر أوجب ألا يعطف » أما هذا الأمر الذي منع العطف فينظر إليه عبد القاهر في اتجاهات الجملة التي وردت في الآية ويجد كلا منها له شأن يختلف عن شأن الأخرى . فقوله تعالى : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ حكاية عن هؤلاء المنافقين ، أي أنهم قالوا وليس بخبر عن الله تعالى . بخلاف قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ فإنها خبر عنه سبحانه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم . وذلك يمنع العطف « لاستحالة أن يكون الذي هو خبر من الله معطوفا على ما هو

(١) السابق : ٢٤٤ .

(٢) الإيضاح : ٩٠ — ٩١ .

حكاية عنهم » وقد يقال إن جملة « الله يستهزىء بهم » معطوفة على « قالوا » . وهنا يجيب عبد القاهر ومن خلال سير الكلام واتجاهه ، وما تومىء إليه التراكيب . فحين العطف على « قالوا » تدخل جملة الله يستهزىء بهم فيما دخل فيه المعطوف عليه ، لأنها جواب شرط : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ ومعنى ذلك أن استهزاء الله بهم لقولهم ، وليس ذلك المراد من الآية ، بل المراد أن الله يستهزىء بهم جزاء على استهزائهم أى فعلهم للاستهزاء وإرادتهم له فى قولهم « آمنا » لا على أنهم حدثوا عن أنفسهم بأنهم مستهزئون . والعطف على « قالوا » يقتضى أن يكون الجزاء على حديثهم عن أنفسهم بالاستهزاء ، لا عليه نفسه »[1] .

ودقة التوجيه فى الآية الكريمة نلحظها من خلال ما يفسره من العطف على جواب الشرط ، فهو يرى مثل هذا العطف على نوعين ... نوع يمكن فيه تصور وجود كل منهما دون الآخر ، ومثاله قولك: «إن تأتنى أكرمك، أطعمك وأكسك» فالكساء يمكن أن يتحقق دون تحقق العطاء ونوع يترتب وجود المعطوف على وجود المعطوف عليه ، ويكون الشرط سببا فى هذا المعطوف لأنه سبب فى وجود المعطوف عليه . كقولك : إذا رجع الأمير إلى الدار استأذنته وخرجت فالخروج لا يكون حتى يكون الاستئذان ، والاستئذان لا يتم ما لم يرجع الأمير والمعنى فى هذه الحالة يكون على كلامين نحو : إذا رجع الأمير استأذنت ، وإذا استأذنت خرجت وليس ذلك هو المانع الوحيد للعطف فى الآية . ففيها مانع آخر يتحدث عنه عبد القاهر ، وهو « أن الحكاية عنهم بأنهم قالوا كيت وكيت تحرك السامعين لأن يعلموا مصير أمرهم ، وما يصنع بهم ، وأتنزل بهم النقمة عاجلا أم لا تنزل

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٣٨ - ٢٤٠ .

ويجهلون وتوقع فى أنفسهم التمنى لأن يتبين ذلك . وإذا كان كذلك كان الكلام الذى هو قوله : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ فى معنى ما صدر جوابا عن هذا المقدر وقوعه فى أنفس السامعين، وإذا كان مامصدره كذلك كان حقه أن يؤتى به مبتدأ غير معطوف ليكون فى صورته إذا قيل : فإن سألتم قيل لكم : ﴿ الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾[1] ومعنى الكلام الذى ساقه عبد القاهر أن الكلام السابق على الجملة يحرك أنفس السامعين ويثير فى أنفسهم سؤالا ويكون الجواب على هذا السؤال المضمن مقطوعاً وبدون عطف كالسؤال الصريح تماما بتمام . وقد تحدث عبد القاهر عن هذه المسألة ، وأقام عليها كثيرا من الأدلة من خلال الشواهد المتعددة .

لكن إذا كان المانع من العطف هو ما يحركه الكلام السابق فى نفوس المتلقين من تساؤل يحتم القطع . فسوف تكون العلة فيه ما سبق أن ذكرناه من شبه كمال الاتصال . وقد يثير ذلك نوعاً من الصعوبة فى باب الفصل والوصل .

والحق أن عبد القاهر لم يكثر الأقسام . ولم يأخذ فى تشقيقها وتوليد بعضها من بعض ، وإنما أرجع قضايا الفصل والوصل إلى أمور ثلاثة هى : كمال الاتصال ، وكمال الانقطاع ، وما يكون بين هذا وذاك . وإن لم يذكر هذه التسميات . يقول عبد القاهر — بعد حديثه الطويل عن أمثلة الفصل والوصل وتخريجها —: « وإذ قد عرفت هذه الأصول والقوانين فى شأن فصل الجمل ووصلها ، فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب : جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف ، والتأكيد مع المؤكد ، فلا يكون فيها عطف ألبتة لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشىء على نفسه » .

---

(١) السابق : ٢٤٠ .

وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذى قبله إلا أنه يشاركه فى حكم ، ويدخل معه فى معنى ، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا ، أو مضافا إليه فيكون حقها العطف . وجملة ليست فى شيء من الحالين ، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه فى شيء فلا يكون إياه ، ولا يكون مشاركا له فى معنى ، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به ومن حق هذا ترك العطف البتة . فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية ، أو الانفصال إلى الغاية ، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين حالين ، فاعرفه »[1] .

وقد التقط متأخرو البلاغيين فكرة الشيخ وأصوله الثلاثة ، ووافقوه على عدم العطف فى حالتين هى كمال الاتصال وكمال الانقطاع ، وفرعوا عليهما حالتين : هما شبه كمال الاتصال ، وشبه كمال الانقطاع على نحو ما فصلنا . وبقيت حالة التوسط بين الكمالين ، وهى الحالة الخامسة التي يذكرونها لحالات الفصل .

ويجب أن يلاحظ أن حالة التوسط هذه تقرب من حالات التوصل من جهة ، وتقرب من حالة شبه كمال الانقطاع . بل نجدهم يمثلون لحالة شبه كمال الانقطاع بقوله تعالى : ﴿ اللهيستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم ﴾ كما يمثلون بها لحالة التوسط . بل أكثر من ذلك يمثلون بها لشبه كمال الاتصال . وقد أشار إلى ذلك أحد الباحثين المحدثين فقال : « وقد نبهوا إلى أن هذه الصور يمكن أن تكون من شبه كمال الاتصال ، وبذلك يبقى شبه كمال الانقطاع بابا فارغا من أى شاهد. وهذا الوجه الذى نرضاه »[2] .

---

(١) السابق : ٢٤٦ .

(٢) دلالة التراكيب : ٢٤١ .

وأرى أن الذى أوقعهم فى هذا الاضطراب حرصهم الشديد على التقسيم والتفريع . لكن المرحوم الأستاذ أحمد مصطفى المراغى يفرق بين حالة الوصل ، وحالة الفصل للتوسط بين الكمالين بأن حالة الوصل لا يوجد فيها مانع يمنع العطف ، بخلاف حالة التوسط التى يوجد فيها مانع فى الكلام السابق يمنع ذلك . كما يفرق بينها وبين حالة شبه كمال الانقطاع ، وإن كانا مما يفصل فيهما بين الجمل ، إلا أن القطع فى شبه كمال الانقطاع للاحتياط لأن الكلام الذى يسبق الجملة الثانية فيه ما يمنع العطف ، وفيه ما لا يمنع العطف . أما حالة التوسط فالقطع فيها واجب لأن الكلام السابق لا يشتمل إلا على ما يمنع العطف .

ويوقفنا عبد القاهر الجرجانى على دقائق فى الباب ، ويبين لنا أن الجمل قد تكثر وتتوالى ، وتجد الجملة منها قد وقعت معطوفة ، لكن هذا العطف لا يكون على سابقتها ، بل يتخلل جمل بين المعطوفة والجملة التى عطفت عليها . وفى ذلك ما فيه من الدقة ، لأنه يحتاج إلى تتبع خيوط المعنى ، هذه الخيوط التى تكون فى كثير من الأحيان ممتدة إلى أكثر من جملة ، وفى هذه الحال يكون العطف على مجموعها .

ولنستمع إليه وهو يحدثنا عن نوع من الفن دقيق . فيقول : « اعلم أن مما يقل نظر الناس فيه من أمر العطف أنه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها ، ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التى تعطف جملة أو جملتان ، مثال ذلك قول المتنبى :

تَوَلَّوْا بغتةً فكـأن بَيْنـاً ... تَهَيَّبَنى ففاجـأنى اغتيـالَا
فكان مسـيرُ عيسهم ذَمِيلًا ... وسيرُ الدمعِ إثرَهُـمُ انْهِمـالَا

فجملة « فكان مسير عيسهم » معطوفة على « تولوا بغتة » وقد تخللهما جملة « ففاجأني » ولم تعطف عليها ، لأن فى عطفه عليها إفساد للمعنى - حسب عبارة عبد القاهر - لأنه سيجعل مسير العيس متوهما وليس حقيقيا . لكن ليس معنى أن تكون جملة فكان « مسير عيسهم » معطوفة على الجملة الأولى ، أن الجملة المتوسطة زائدة أو مقحمة ، أو لا علاقة لها بالجملة السابقة واللاحقة. ذلك لأن عبد القاهر : يلحظ رابطة بين الكلام كله فالجملة الثانية ترتبط بالأولى والثانية ، هى أن الأولى كأنها سبب ، والثانية مسبب فالمعنى : « تولوا بغتة فتوهمت أن بينا تهيبنى » . ولا شك أن هذا التوهم كان بسبب أن كان التولى بغتة ، وإذا كان كذلك كانت مع الأولى كالشىء الواحد، وكانت منزلتها منها منزلة المفعول والظرف ، وسائر ما يجىء بعد تمام الجملة من معمولات الفعل مما لا يمكن إفراده على الجملة ، وأن يعتد كلاما على حدته »[1] .ولا يقف عبد القاهر عند هذا بل يذكر أن الربط يشمل الشعر كله .. هكذا يقتضى بيان الغرض والتعبير عنه ، فقد جاء البيتان للتعبير عن معنى ، وهذا المعنى لا يتم ما لم يتم الربط بين أولها وآخرها . وحين يقول إن العطف كان على الجملة الأولى لا يقصد أنها كانت معزولة عن غيرها . بل إن المعطف عليها مضموم إليها ما بعدها . يقول : « فنحن وإن كنا قلنا : إن العطف على « تولوا بغتة » فإننا لا نعنى أن العطف عليه وحده مقطوعا عما بعده . بل العطف عليه مضموما إليه ما بعده إلى آخره ، وإنما أردنا بقولنا : « إن العطف عليه أن نعلمك أنه الأصل والقاعدة ، وأن نصرفك عن أن تطرحه ، وتجعل العطف على ما يلى الذى تعطفه ، فتزعم أن قوله : « فكان مسير عيسهم » معطوف على « فاجأنى » فتقع فى الخطأ كالذى أريناك »[2] .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٤٧ .

(٢) السابق : ٢٤٨ .

ولما كان أمر « الواو » والعطف بها مما يلتبس أمره . كان لابد أن يتحدث عبد القاهر عن « الواو » التي لا تكون للعطف . وهي التي تدخل على جملة « الحال » . إن هذه الواو وإن لم تكن من باب الفصل والوصل ، لأنها ليست للعطف . قد تلتبس بها من جهة ومن جهة أخرى لهذه الواو دخل في بناء الأسلوب . وفي ذكرها وعدم ذكرها دخل بالبلاغة . فالجمل التي تقع « حالا » منها ما يأتي بالواو ، ومنها ما يأتي بغيرها ، وفي التمييز بين ما يجوز وما لا يجوز صعوبة تحسين الإشارة إليها .

ففي جملة الحال يتعين وجود الواو إذا كانت هذه الجملة من مبتدأ وخبر ، وكان الخبر فيها ضمير صاحب الحال . وذلك كأن تقول : جاء محمد وهو راكب ، وسمعت عليا وهو يخطب ، ففي مثل هذا الموضع لا تصلح الجملة بغير الواو ، فلا نقدر أن نقول سمعت عليا هو يخطب، أو جاء محمد هو راكب. فذلك مما ينبو عنه الذوق ، وتمجه النفس ، علاوة على ما يدخل في الكلام من اللبس .

وفي بعض الجمل يكثر أن تجيء الكلمة بالواو ، وذلك إذا كانت من مبتدأ وخبر ، لكن الخبر فيها ليس ضمير صاحب الحال كما هو في الحالة السابقة . كقولك : جاءني محمد وصديقه معه .

ومما يجيء بالواو في الغالب ، أو كما يقول عبد القاهر : « في الأكثر الأشيع » لكنه يأتي في مواضع بدونها فيلطف مكانه ، ويدل على البلاغة : الجملة قد دخلها [ليس] تقول : أتاني وليس عليه ثوب ، ورأيته وليس معه غيره »[1] هذا هو المستعمل . لكن جاء بغير الواو حسنا . قول الأعرابي :

لَنَا فَتًى وحبـذا الإِفْتَـاءُ تَعْرِفُهُ الأَرْسَـانُ والـدِّلَاءُ

إِذَا جَرَى في كَفِّـهِ الرِّشَـاءُ خَلِيُّ القليـبِ لَيْـسَ فِيهِ مَـاءُ

والرجل يمدح فتىً من فتيانه ، ويتحدث عن قوته وفتوته، وهمته في العمل ، فهو إذا أمسك بالحبال وراح إلى الآبار ينتح الماء منها لم يترك فيها شيئا .

وقد يتبادر إلى الذهن أن البلاغة تتحقق في مثل هذا الموضع إذا جاءت الجملة بالواو أو بدونها في كل وقت ، وباطراد . لكن الأمر ليس كذلك ، ومن ثم لابد أن يلفت عبد القاهر النظر إليه . فإن الحسن الذى يتحقق لبعض الجمل الحالية التي تجيء بغير الواو إنما يتحقق لها لمجيء أمر في الجملة كأن يكون حرفا ، أو لفظا مثلا . فقول الفرزدق :

فقلتُ عسى أن تُبصريني كأنما   بَنِيَّ حَوَالَيَّ الأسودُ الحواردُ

فقد كان الحسن في البيت بسبب مجيء [كأن] ولو رفعت من الجملة فقيل : عسى أن تبصريني بنيّ حواليّ كالأسود لرأيت أنه قد فقد ما كان فيه من الحسن .

ومما حسن لأن الشاعر قدم له بلفظ قول ابن الرومي :

والله يبقيك لنا سالما   برداك تبجيلٌ وتعظيمُ

فجملة : برداك تبجيل وتعظيم في موضع الحال . وقد جاءت بغير الواو . وهي من مبتدأ وخبر ، لكن حسنها جاء لأن الشاعر قدم لها بالحال المفرد [سالما] ولو رفع هذا اللفظ من الكلام فقيل : والله يبقيك لنا برداك تبجيل وتعظيم ، لم يكن له من الحسن ما كان له أولا .

ونستشف من حديث عبد القاهر الجرجاني في ذلك عنايته بالأسلوب بصفة عامة ، ونظره إلى كل ما يرد في الكلام من أمور قد تكون سببا في حسنه ، أو تكون سببا في تجرده من هذا الحسن . ويظهر ذلك بوضوح في المواضع التي

يستوى فيها مجىء الجملة بالواو أو بدونها ، ويتحقق لها فى هذه أو تلك لونٌ من الحسن – على نحو ما سيأتى –. ويكثر مجىء جملة الحال بالواو أيضا إذا كانت فعلية فعلها ماض . وهو لا يقع حالا إلا مع قد مظهرة أو مقدرة . كقولنا : أتانى وقد ظهر عليه التعب .

وقد جاء بدون الواو فى مواضع ولطف فيها . وذلك كقول الشاعر :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله　　　والليل قد مزقت عنه السرابيل

والشاعر يستعجل طلوع الصبح ، وانحسار الظلمة . وقد جاءت جملة الحال فيه على غير الأكثر بدون الواو . ومثله قول الشاعر :

فآبوا بالرماح مُكَسَّراتٍ　　　وأُبْنَا بالسُّيوفِ قَدْ انحنينا

وقول الآخر :

يَمْشُون قد كَسَرُوا الجفونَ إلى الْوَغَى　　　مُتَبَسِّمِينَ وفيهم اسْتِبْشَارُ

مجىء جملة الحال بغير « الواو » .

وتأتى جملة الحال بغير الواو إذا كانت جملة فعلية ، فعلها مضارع مثبت . سواء كان الفعل لذى الحال . كقولنا : جاءنى زيد يسرع ، أو لما هو من سببه كقولنا : جاءنى القائد يسعى جنده بين يديه . وقد جاء هذا النوع كثيرا فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

ومما جاء من ذلك فى الشعر قول علقمة بن عبدة . يصف رحلته فى يوم قائظ :

وقد علوتُ قتـودَ الرحلِ يَسْفَعُني ... يومٌ قديديمـة الجوزاءِ مَسْمُومُ

وعلقمة يحدثنا عن متاعبه التى صادفها فى رحلته ، فقد كان يركب على خشب الرحل والقيظ يسفعه فى هذا اليوم الذى كانت الشمس فيه قريبة ، والرياح سموم . ومنه أيضا قول أبى دؤاد الإيادى :

وقد أغتـدى يدافـعُ ركـنى ... أحـوذىٌ ذوميعةٍ إضريـجُ

ومما يوهم أنه جاء على خلاف ذلك قولهم :

فلما خشيـتُ أظَافِيرَهُـم ... نجـوتُ وَأَرْهَنُهم مَالِكَـا

وما كان على شاكلته من قولهم : « قمت وأصك وجهه » فليست الواو فيه واو الحال بل هى واو عطف . وجاء المضارع هنا حكاية للماضى . والدليل على ذلك مجىء الفاء مكان الواو .

مجىء الواو وتركها حسن :

قدمت فى المواضع السابقة ما يكون فيه وجود الواو لازما أو غالبا ، وما يكون عدم وجودها غالبا ، وبقى موضع يستوى فيه وجودها وتركها . ويحسن فى كلا الأمرين وذلك الموضع إذا كانت جملة الحال من فعل وفاعل ، والفعل فيها مضارع منفى . فمما جاء بالواو قول « مسكين الدارمى » :

أكسبتـه الورِقُ البيـضُ أبـا ... ولقد كان ولا يدعـى لِأَبِ

وقول مالك بن رفيع ، وكان جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير :

أتانـى مصعـبٌ وبَنُـو أبيـه ... فَأَيْـنَ أَحِيـدُ منهم لا أَحِيـدُ

أقادوا من دمى وتوعـدونى ... وكنـت وما ينهنهـنى الوعيـد

والشاعر يتحدث عن الخوف المحيط به لأن ابن الزبير قد أباح دمه قصاصا منه على جنايته التى ارتكبها ، وهو لا يجد له ملجأ يلجأ إليه ، لقد أصبح خائفا بعد أن كان آمنا ومحل الاستشهاد فى البيت هو مجى جملة : « وما ينهنهنى الوعيد » فى موضع الحال ، وجاء فيها المضارع منفيا فحسن فيه إيراد الواو . وقد يقال إن الجملة ليست حالا ، وإنما خبر كان ويجيب على ذلك عبد القاهر بأن هذه « كان » التامة .

ومما جاء مع المضارع المنفى حالا بدون الواو وحَسُنَ أيضا قول الشاعر :

مَضَوْا لا يريدون الرواحَ وَغَالَهم ... من الدهرِ أسبابٌ جرينَ على قدرِ

فجملة الحال « لا يريدون » جاءت حسنة بغير الواو . ومن هذا النوع أيضا قول أرطاة بن سهية . وهو لطيف حسن :

إنْ تلقنى لا ترى غيرى بناظـرةٍ ... تُنسَ السِّلاحَ وتعرف جبهةَ الأَسَدِ

فليس يخفى الحسن فى جملة الحال التى جاءت بالواو لأنها فعلية فيها الفعل المضارع المنفى .

ويسوق عبد القاهر الجرجانى أمثلة متعددة لهذا النوع الذى يجيء بغير الواو ، ويلطف موضعه ويحسن من أمثال قول أعشى همدان :

أتينا أصبهـــانَ فَهزَّلَتنـــا ... وكنَّا قبلَ ذلـك فى نَعِيـــمِ

وكان سفاهةً مـنى وجهـلًا ... مَسِيرِى لا أسيرُ إلى حَمِيـمِ

فإن جملة « لا أسير » حال من الضمير فى مسيرى ، لأنه فاعل فى المعنى ، وكأنه قال : « وكان سفاهة منى وجهلا أن سرت غير سائر إلى حميم ، وأن ذهبت غير متوجه إلى قريب »[1] .

(١) دلائل الإعجاز : ٢٢٢ .

وينص عبد القاهر على كثرة هذا النوع ، لكن لا يهتدى إلى موضعه إلا من كان صحيح الطبع . ولأن مجيء الواو وتركها سواء ، ولأن المواضع المختلفة التي أشرنا إليها تحتاج إلى الذوق المرهف الذى يستطيع أن يقف على وجه الحسن فيما جاء بها ، أو جاء بدونها يحاول عبد القاهر أن يضع بعض الأصول التي يمكن الاهتداء بها . يقول : « وإذ قد رأيت الجمل الواقعة حالا ، قد اختلف بها الحال هذا الاختلاف الظاهر ، فلابد من أن يكون ذلك إنما كان من أجل علل توجبه ، وأسباب تقتضيه ، فمحال أن يكون ههنا جملة لا تصلح إلا مع الواو ، وأخرى لا تصلح فيها الواو ، وثالثة تصلح أن تجيء فيها بالواو ، وأن يدعها فلا تجيء بها ، ثم لا يكون لذلك سبب وعلة ، وفي الوقوف على العلة في ذلك إشكال وغموض ، ذلك لأن الطريق إليه غير مسلوك ، والجهة التي منها تعرف غير معروفة ، وأنا أكتب لك أصلا في الخبر إذا عرفته انفتح لك وجه العلة في ذلك »(٢) .

أما الأصول الهادية التي يرود بها عبد القاهر هذا الطريق الذى لم يرده أحد قبله ، ويمهد به لسبيل ، وجد السير فيه صعبا فيبدأها ببيان الخيوط التي تربط بين الكلمات والجمل ، والعلاقات التي تكون بين أمور يحسبها غير المدقق لا رابط بينها . فقد يظن أن الخبر غير الحال وأنه لا علاقة بينهما . لكن عبد القاهر يثبت أن الحال خبر في المعنى ، وأنه يؤدى نفس الغاية التي يؤديها الخبر ، لكنه يفترق عن خبر المبتدأ بأنه ليس جزءا في الجملة . وحتى لا يلتبس الأمر يقول عبد القاهر إن الخبر ينقسم إلى قسمين : خبر هو جزء في الجملة لا تتم الفائدة إلا به ، وهو خبر المبتدأ . وخبر ليس بجزء في الجملة ، ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له . وهذا الخبر هو « الحال » . ذلك لأنك حين تقول : جاء زيد راكبا تثبت للذى الحال بها

(١) دلائل الإعجاز : ٢٢١ .
(٢) السابق : ٢٢٣ .

ما تثبته للمبتدأ بالخبر ، وبالفعل للفاعل . والفرق أن الحال يؤتى بها لتزيد فى المعنى الذى أثبت للفاعل أو المفعول بالفعل ، وهى تأتى تبعا لذلك .

وبعد أن يبين ما بين جملة الحال ، وجملة الخبر من التقاء أو افتراق يبين الأساس الذى يسوغ مجىء الواو فى إحدى الحالات ، وعدم مجيئها فى أخرى فيقول : « وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن كل جملة وقعت حالا ثم امتنعت من الواو فذلك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع فى صدرها فضممته إلى الفعل الأول فى إثبات واحد ، وكل جملة جاءت حالا ثم اقتضت الواو ، فذلك لأنك مستأنف بها خبرا ، وغير قاصد إلى ضمها إلى الفعل الأول فى الإثبات »[1] .

ولزيادة الإيضاح يقول : إنك إذا جئت بجملة الحال بدون الواو نحو : جاءنى زيد يسرع ، كان هذا الكلام على معنى ، جاءنى زيد مسرعاً . أى أننا نثبت مجيئا فيه إسراع ، ونربط معنى الفعل الثانى بالمعنى الأول وندخله فيه ، ومن ثم لا يحتاج إلى الربط . وعليه جاء قول الشاعر الذى سبق :

وقد علوت قتود الرحل يسفعنى … يوم قديديمة الجوزاء مسموم

كأنه يقول : وقد علوت قتود الرحل بارزا للشمس ضاحيا .

وكذلك قوله :

متى أرى الصبحَ قد لاحت مَخَايِلُهُ

لأنه فى معنى : متى أرى الصبح باديا لائحا بينا متجليا .

أما إذا قلنا : جاء زيد ومعه غلامه يسعى بين يديه . نكون قد بدأنا فأثبتنا المجىء لزيد ، ثم استأنفنا خبرا ، وابتدأنا إثباتا ثانيا لسعى الغلام بين يديه. وما دام

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٢٤ .

المعنى على الاستئناف كان مجيء الواو لحاجتنا إلى الربط بها بين الجملة الأولى والجملة الثانية . ثم ينص على أن تسمية هذه الواو بواو الحال لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة أخرى[1] .

(١) السابق : ٢٢٥ .

الإنشاء : أقسامه – استخداماته –
خروجه على مقتضى الظاهر

أساليب الإنشاء

قسم البلاغيون الكلام إلى خبر وإنشاء ، وسبق أن تحدثنا عن الخبر ، وأنواعه وأضربه وما يجب لكل ضرب منه . وظهر من خلال الحديث هناك كيف تتنوع أساليب الخبر بحسب أحوال المخاطبين ومقام الخطاب . وبقى أن نتحدث عن أساليب الإنشاء وأنواعها وما يتحقق من البلاغة عند استعمالها . ولما كانت معرفة الشيء فرعا عن تصوره كما يقول الأصوليون فمن المناسب أن نبدأ بتعريف الإنشاء ...

والإنشاء فى اللغة الإيجاد والاختراع ، قال تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ أى أوجدناهن على غير مثال سبق . وأنشأ حديثا وشعرا وعمارة ، أى أوجدها .

وفى الاصطلاح هو الكلام الذى ليس لنسبته خارج تطابقه أولا تطابقه .

وينقسم الإنشاء إلى قسمين :

القسم الأول : الإنشاء الطلبى . وهو ما يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب فعندما نقول لآخر : اكتب نطلب منه أن يقوم بإنشاء الكتابة التى لم تكن موجودة عندما طلبنا منه ذلك .. وعندما يقول الشاعر :

ليتَ الكواكبَ تدْنُو لي فأنْظِمَهَا عقودَ مدحٍ فما أرضى لكَمْ كَلِمى

إنما يتمنى شيئا غير موجود ؛ فلم تكن الكواكب فى متناول يده لينظم منها عقودا تليق بمن يمدحه . وهذا النوع من الإنشاء هو ما عنى به البلاغيون ، وذلك

لما له من أثر فى الكلام ، وما يضفيه عليه كل نوع من أنواعه من فوائد على نحو ما سيظهر .

القسم الثانى : الإنشاء غير الطلبى . ولم يحظ بمثل ما حظى به القسم الأول من الاهتمام ، ولهذا تقل المباحث البلاغية فيه . ولأن أكثر أنواعه فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء .

وهذا النوع لا يستدعى مطلوبا وقت الطلب . وله صيغ متعددة . منها :

١ — أساليب المدح والذم : نعم العبد أيوب ، بئس الخلق الغيبة ، وقول الشاعر :

ألا حبذا هِنْدٌ وأرضٌ بها هندُ   وهند أتى من دونها النأىُ والبعدُ

ويدخل فى هذا الأفعال المحولة إلى المدح أو الذم نحو : طاب على نفسا ، وخبث فلان أصلا .

٢ — أساليب العقود نحو قولنا : بعت واشتريت ، ووهبت . ونحو ذلك.

٣ — أساليب القسم نحو : والله لتقولن ، وتاالله لأكيدن أصنامكم ، ولعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون .

٤ — صيغ التعجب .. وله صيغتان قياسيتان هما : ما أفعله وأفعل به . نحو قولنا : ما أجمل الصدق وأجمل به ، ويأتى سماعاً بصيغ كثيرة منها : لله دره ، يا ليت شعرى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم .

٥ — أساليب الرجاء : ويكون بالأفعال الدالة عليه كقوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ﴾ وقول الشاعر :

عسى الكربُ الذى أمسيت فيه يكونُ وراءهَ فرجٌ قريبُ

ويرى كثير من العلماء أنه من الإنشاء الطلبى . لكن غيرهم يجعله من الإنشاء غير الطلبى ، ويستدلون على ذلك بمجيئه فى المكروه نحو قولهم : « لعل الحبيب مريض » . وأرى أن مجىء الرجاء طلبيا أو غير طلبى إنما يعود إلى طبيعة الأسلوب الذى يرد فيه ، والمواقف التى يعبر عنها . ومن المعلوم أن الأدوات الدالة على الرجاء أو التمنى أو الاستفهام تتبادل مواضعها . وقد سبق أن مثلنا للتعجب بصيغة من صيغ الاستفهام وذلك فى قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ وسوف يتضح ذلك عند الكلام فى الاستفهام .

الإنشاء الطلبى : وهو ما يستدعى مطلوبا لم يكن حاصلا عند الطلب . وهو أنواع :

النوع الأول : التمنى . واللفظ الموضوع له هو « ليت » ويكون التمنى فى الأمر يصعب تحقيقه أو يستحيل . كما أنه لطلب أمر محبوب . فمن الأمور البعيدة التى يصعب تحقيقها ولكنها غير مستحيلة قول الشاعر :

فيا ليت ما بينى وبينَ أحِبَّتِي مِنَ البعدِ ما بينى وبين الْمَصَائِبِ

فالشاعر يحس بقرب المصائب وتجمعها عليه ، ويجد أحبابه بعيدين عنه ، ولهذا يتمنى أن يكون أحبابه قريبين منه قرب هذه المصائب .

ومن الأمور التى يستحيل تحقيقها قول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وقول الآخر :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

وما أكثر الأماني التي يتمناها الشعراء ، ومن أسيرها في شعرهم أن يدوم لهم عهد الصفاء ، أو ترجع إليهم أيامهم الخوالي التي كانوا ينعمون فيها بحب من يحبونه ، وهذا جميل بن معمر يقول :

ألا ليت أيام الصفاء جديد   وعهدا تولّى يا بثين يعود

وقد يُدَلّ على التمنى بحروف أخرى ليست موضوعة للتمنى . ولابد من أن يكون نقلها إلى التمنى لأمر من أمور البلاغة . ومن بين هذه الحروف « هل » كما في قوله تعالى : ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾[1] ولعل الكفار لهول ما هم فيه يتعلقون بوهم هو أن يكون لهم في الآخرة من يشفع لهم . ومن الحروف التي تنقل من معناها إلى التمنى «لعل» وقد عرفنا أنها موضوعة للرجاء . وقد جاءت بمعنى « ليت » في قوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغُ الأسبابَ، أسبابَ السماواتِ فأطلعَ إلى إله موسى ﴾[1]. وسرّ التعبير القرآني أن فرعون بما أوتي من سلطان، وبما كان بين يديه من إمكانات وبما وجد من طاعة عند أولئك الذين استخفهم ، حَسِبَ أن ما يطلبه ممكن التحقيق ، فعبر عن أمنيته بحرف الرجاء . ومما جاء فيه التمنى بحرف الرجاء « لعل » قول الشاعر :

أسربَ الْقَطَا هَلْ مَنْ يُعيرَ جَنَاحَه   لَعَلّي إلى مَنْ قد هويتُ أَطِيرُ

ومن الحروف التي يكون بها التمنى : « لو » نحو قوله تعالى : ﴿ فلو أن لنا كرةً فنكونَ من المؤمنين﴾ والنكتة في التمنى «بلو» ما يشعر به من عزة الْمُتَمَنَّى بحيث يعرض في صورة ما لا يوجد . فإن « لو » في أصل وضعها امتناع لامتناع .

---

(١) الأعراف : ٥٢ .   (٢) غافر : ٣٦ .

ويذهب السكاكي إلى أن : هلا وألا الموضوعتين للتنديم والتحضيض مركبتان من هل، ولو ، وأنهما تستخدمان للتمني . وحين تستخدمان مع الماضي يتولد عنهما التنديم . كقولك : هلا أكرمت زيدا . وألا زرت عليا . ومع المضارع يتولد عنهما التحضيض .. هلا تقوم ، وهلا تسعى في الخير .

النوع الثاني من الإنشاء الطلبي : الاستفهام :

وهو في اللغة لطلب الفهم . والألفاظ الموضوعة له : الهمزة – هل – ما – من – أي – كم – كيف – أين – أنى – متى – أيان . فالهمزة تكون للتصديق أو التصور . وحين تكون للتصديق يسأل بها عن النسبة ، ولا يذكر بعدها معادل . تقول : أقام زيد ؟ وأزيد قائم . وإذا جاءت بعدها أم تكون منقطعة بمعنى بل . وذلك كقول الشاعر :

ولستُ أُبَالي بعد فَقْدِيَ مَالِكاً   أَمَوْتِيَ ناءٍ أَمْ هُوَ الآنَ واقِـعُ

فالشاعر يتحدث عن مدى إحساسه بالفقد بعد موت مالك ، كما أنه يبين أن البقاء بعده لن يطول . وحين استفهم بالهمزة في الشطر الثاني وقال : أموتي ناءٍ . ثم جاء بأم ، إنما كان يقصد بها الاضراب عن الحكم الذي سبق .. أي أن موتي واقع الآن .

وحين تكون الهمزة للتصديق يكون الجواب في الإيجاب نعم ، وفي النفي لا . أما حين تكون الهمزة للتصور فإن السؤال يكون بها عن المفرد بقصد معرفته . فتقول : أمحمد مسافر أم علي ، إذا كنت تعلم وجود سفر ولكنك تتردد في تعيين من قام به . والإجابة تكون بتعيينه فتقول : محمد . وتقول : أمقيم محمد أم مسافر . فتكون الإجابة بتعيين أحدهما . والمسئول عنه هو ما يليها . فإن كان السؤال عن الفعل وليهاالفعل: أقام محمد ، وإن كان المسئول عنه الفاعل وليها

(١) مفتاح العلوم : ١٦٦ .

الفاعل : أمحمد قام ، وإذا كان المسئول عنه المفعول وليها المفعول نحو : أمحمدًا أكرمت . وهكذا . وقد شرح عبد القاهر الجرجانى ذلك وهو يتحدث عن التقديم وما يكون له من أثر فى الكلام فقال : « ومن أين شىء فى ذلك الاستفهام بالهمزة . فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت : أفعلت ؟ فبدأت بالفعل كان الشك فى الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإذا قلت : أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم كان الشك فى الفاعل من هو ، وكان التردد فيه »[1] .

وأما « هل » فلا تكون إلا للتصديق كقولك : هل جاء محمد ، وهل عمرو جالس . ولهذا يمتنع أن يأتى بعدها معادل بأم لأنها خالصة للتصديق .

وذكر أم بعدها يؤدى إلى التناقض . فإن هل تفيد أن السائل جاهل بالحكم لأنها لطلبه ، وأم المتصلة تفيد أن السائل عالم به ، وإنما يطلب تعيين أحد أمرين على نحو ما عرفنا فى الهمزة . ولهذا يؤول ما جاء بعد « هل » وفيه أم . على نحو ما جاء فى قول قتيلة بنت النضر فى تلك الأبيات التى رثت فيها أباها . والتى تأثر بها رسول الله ﷺ :

هل يسمعنَّ النضرُ إن نَادَيْتُــه ... أم كيفَ يَسْمَعُ ميتٌ لا ينطقُ

فأم هنا بمعنى « بل » التى تفيد الإضراب .

وإذا كان التركيب يتضمن مظنَّةَ العلم بمضمون الحكم كان استعمال « هل » فيه قبيحا وذلك فى مثل التركيب الذى يتقدم فيه المعمول نحو : هل محمدا قابلت . هل البلاغة ذاكرت . لأن تقدم المعمول يفيد الاختصاص فى الغالب ... ومعنى هذا

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٤١ .

أن النسبة ربما تكون قد وقعت . فتكون « هل » لتحصيل ما هو حاصل وذلك عبث ..

وهناك أحكام أخرى تتعلق بحرف الاستفهام « هل » غير ما تقدم من بينها : أن « هل » كالسين وسوف تخلص المضارع للاستقبال . ولذا لا تستعمل فيما هو للحال . فلا يقال : هل تذاكر البلاغة الآن وهى علم يحتاج إلى الهدوء . بل يقال : أتذاكر البلاغة الآن ... الخ .

يحسن أن توصل « هل » بفعل لفظا أو تقديرا ... هل يذاكر محمد ؟ وهل يحضر خالد من السفر ؟ وهل خالد يحضر من السفر . وذلك لما سبق من بيان أنها تختص بالتصديق . وإذا جاءت على غير ذلك فى كلام البلغاء كان ذلك لنكتة فنية يجب البحث عنها . وذلك على نحو ما نرى فى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ فهى هنا أدل على طلب شكر العباد من مجىء الهمزة « أفأنتم شاكرون » أو دخولها على الفعل : « فهل تشكرون » .

ومن الأمور التى تتعلق « بهل » أنها :

لا تدخل على النفى . فلا يقال : هل لم يسافر .

ولا تدخل على المضارع إذا كان للحال . فلا يقال : هل تضرب التلميذ وهو مجد .

ولا تدخل على الشرط . فلا يقال : هل إذا حضر محمد أذهب معه .

ولا تدخل على إن . فلا يقال : هل إنك حاضر .

ولا تدخل على حرف العطف . فلا يقال : هل ويحضر على .

ويمكن أن يحدث ذلك مع الهمزة . ويمكنك أن تلحظ الفرق من خلال الذوق اللغوى : فتقول : ألم يسافر ؟ أيضرب التلميذ وهو مجد . أإذا حضر محمد أأذهب معه . أإنك لمن المسبحين . أو يحضر محمدٌ .

« مَنْ — ما » :

ومن حروف الاستفهام « مَنْ » ويستفهم بها عن العاقل . فيقال : من وضع أسس البلاغة . فيقال فى الجواب : عبد القاهر الجرجانى . ومن الشاعر الذى ملأ الدنيا وشغل الناس . فيقال فى الجواب : أبو الطيب أحمد بن الحسين .

و« ما » ويستفهم بها عن غير العاقل . وهى أقسام :

(أ) ما يطلب بها إيضاح اسم وشرحه . نحو : ما « التبر » . فيقال : الذهب .

(ب) ما يطلب بها بيان حقيقة المسمى نحو : ما الحسد . فيكون الجواب : هو تمنى زوال نعمة الغير .

(جـ) ما يطلب بها بيان حال الشيء . نحو : ما أنت ؟ لمن يأتى إليك وأنت لا تعرفه . ومنه قول المتنبى :

ليت المدائحَ تستوفى مَنَاقِبَهُ فما كليبٌ وأَهْلُ الأعصرِ الأُوَلِ

ومن حروف الاستفهام : « متى » ويسأل بها عن الزمان الماضى : متى ذهب جمال الدين الأفغانى إلى مصر ؟ والمستقبل : متى يسافر على ؟

و« أيّان » وتكون لتعيين الزمان المستقبل خاصة . وتأتى فى مقام التفخيم نحو قوله تعالى : ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ .

و« أين » ويستفهم بها عن المكان : أين تقيم ؟

و« أنّى » وتكون بمعنى : كيف . أنّى ينجح ولم يعمل للنجاح ؟ وأنّى تتقدم الأمة وقد شغلت نفسها بتافه الأمور ، وتركت أعاظمها .

وتكون بمعنى « من أين » نحو قوله تعالى : ﴿ قال يا مريم أنّى لكِ هذا ﴾ ؟

وتكون بمعنى « متى » نحو قولنا : أنّى تتحرر من الخوف ؟

ومن حروف الاستفهام أيضا : كيف . ويسأل بها عن الحال . نحو قولك : كيف العمل بالجامعة ؟ وكيف الإسلام فى إفريقيا ؟

و« كم » ويسأل بها عن العدد ، أى يطلب بها تعيينه . نحو قوله تعالى : ﴿ كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ﴾ وكم دولة فى الجامعة العربية ؟

و« أى » وهى بحسب ما تضاف إليه . فيسأل بها عن الزمان والمكان والعدد والحال ويطلب بها تعيين أحد المشاركين فى أمر . نحو : أى الفصول أفضل ؟ أى البلاد أحب إليك ، وأى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟

هذه معانى حروف الاستفهام والمقامات التى تستخدم فيها . والبحث فى هذا وظيفة النحو ، ولا يتصل بالاستخدام البلاغى إلا ما يتصل بالصحة بوصفها مقدمة ضرورية لتحقق البلاغة .

لكن الاستفهام يخرج عن وظيفته اللغوية لغايات بلاغية يحددها السياق ويكشف عنها . ومن هذه الأغراض :

(*) الروم : ٣٠ .
(ه) القمر : ١٥ .
(**) الأنبياء : ٦٢ .

١ — « الاستبطاء » على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله قريب ﴾[1] . وقول أبى العلاء :

إلامَ وفيم تنقلنا ركابٌ ونأمل أن يكون لنا أوان

٢ — التعجب . نحو قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وقد هدانا سبلنا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾[3] .

ومن هذا النوع قول المتنبى فى قصيدته الفريدة فى وصف الحمى :

أبنتَ الدهرِ عندى كلُّ بنتٍ فكيف وصلتِ أنْتِ من الزِّحَامِ

ومنه قول أم ثواب الهزانية فى المقطوعة التى تحدثت فيها عن عقوق ابنها :

أضحى يُمَزِّقُ أثوابى يُؤدِّبُنِى أبعدَ شَيْبِىَ عِنْدِى يَبْتَغِى الأَدَبَا[4]

٣ — التنبيه على الضلال . نحو قوله تعالى : ﴿ فأين تذهبون ﴾[5] .

٤ — الوعيد : وذلك كقوله تعالى : ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾[6] .

٥ — الأمر : كقوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أى أسلموا . وقوله تعالى : ﴿ فهل من مدكر ﴾[7] .

(١) حللنا هذه المقطوعة فى كتاب نصوص أدبية . (٤) دلائل الإعجاز : ١٤٠ — ١٤١ .
(٢) البقرة : ٢٨ . (٥) التكوير : ٢٦ .
(٣) غافر : ٢٨ . (٦) المرسلات : ١٦ .

٦ — النهي : نحو قوله تعالى : ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ﴾[(١)].

٧ — التقرير : كقوله تعالى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾[(٢)] . وقوله تعالى : ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾[(٣)] ويشترط في الهمزة أن يليها المقرر به . فإن كان التقرير بالفاعل كالآيتين السابقتين وليها الاسم ، وإن كان التقرير بالفعل وليها الفعل : أقلت هذا القول ؟ أبنيت هذه الدار ؟ وإذا كان المقرر به المفعول به وليها المفعول به : أمحمدًا قابلت ؟

٨ — الإنكار : وهو على أنواع :

(أ) أن يراد به التوبيخ . أي ما كان يجب أن يتم ذلك . أو ما ينبغي أن يكون . كأن تقول : أتعصي ربك ؟ أتنسى إحسان صديقك إليك ؟ والغاية من هذا التنبيه على الخطأ حتى يعود السامع إلى نفسه ، ويخجل من الفعل ويرجع عنه .

(ب) أن يراد به التكذيب : بمعنى ما قلت وما فعلت ولم يكن ذلك الفعل نحو قوله تعالى : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون ﴾ .

وقد يكون بمعنى لا يكون . نحو قوله تعالى : ﴿ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ ومنه قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

---

(١) التوبة : ١٣ .

(٢) المائدة : ١١٦ .

ومن مجيء الهمزة للإنكار . قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ .
وقول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

ولابد أن يلي الهمزة المنكر . كما كان يليها المقرر به . وهذا رأى عبد القاهر الجرجاني . ويتضح هذا الرأي من خلال حديثه عن التقديم وما يفيده من الاختصاص . وهو يقول : « ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة . فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت : أفعلت ؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه . وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإذا قلت : أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو ، وكان التردد فيه »[1] . ثم يعود ويبين أن ما يجرى في الهمزة وهي للاستفهام يجرى فيها وهي للتقرير . فيقول : « واعلم أن هذا الذي ذكرت لك في الهمزة (وهي للاستفهام) قائم فيها إذا هي كانت للتقرير »[2] وبعد أن يذكر الأمثلة التي تكشف المقرر به يقول : « واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان ، وإنكار لم كان ؟ وتوبيخ لفاعله عليه »[3] .

٩ — ويجيء الاستفهام والمراد به التهكم . وذلك كقوله تعالى ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ . فالآية الكريمة تتحدث عن تلك السخرية المليئة بالاستهانة من شعيب عليه السلام ، ومما كان يقوم به من الصلاة . والآية تختم بهذه الاستعارة التهكمية : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ لأنهم على

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٤٠ — ١٤١ .
(٢) السابق : ١٤٢ — ١٤٣ .
(٣) السابق : ١٤٥ .

الحقيقة لا يعترفون له بهذه الصفات ، بل يتهمونه بضدها بدليل أنهم لا يستجيبون له ، ولا يستمعون لدعوته .

١٠ – وتجيء صيغة الاستفهام والمراد بها استبعاد حدوث الأمر . نحو قوله تعالى : ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ . وقولنا : أنى تفهم ما أقول وقد عدمت العقل ؟

١١ – ويراد بالاستفهام تهويل الأمر وتفخيمه . نحو قوله تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ﴾(٤) . وقوله تعالى : ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ .

١٢ – ويأتي الاستفهام للتعظيم . مثل قولنا : « رجل وأي رجل » . وقول أبي نواس :

إذا لم تزرْ أرضَ الخصيبِ ركابُنا فأي فتى بعد الخصيبِ تزورُ

١٣ – التحقير : كما جاء في قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم عليه السلام لما عاب آلتهم : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ . وقولنا : أهذا الذي جعلوه بطلا وكالوا له المديح . أتلك التي اخترتها لتكون رفيقة حياتك ؟

١٤ – التمني : كما سبق في قوله تعالى : ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ . وقول الشاعر :

هَلْ بالطلولِ لسائلٍ ردُّ أَمْ هل لها بِتَكَلُّمٍ عَهْدُ

١٥ – النفي : نحو قولنا : هل الدنيا إلا فانية ؟ وهل المال إلا عارية .

وقول الشاعر :

وهل نافعي أن ترفعَ الحجبُ بيننا ودونَ الذى أملتُ مِنْكَ حِجَابُ

وقول الآخر :

هل الدهرُ إلا ساعــةً ثم تنقضى بما كان فيها من بلاءٍ ومن خَفْضِ

١٦ - التشويق : وقد جاء كثيرا فى القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ : فمما جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾(١) . وقوله تعالى : ﴿ هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا ﴾(٢) . وقوله : ﴿ هل أدلكم على رجل ينبئكم ﴾(٣) . ومما جاء فى قول الرسول ﷺ : « أتدرون من المفلس » .

١٧ - التسوية : نحو قوله تعالى : ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ .

١٨ - التكثير : ومنه قول أبى العلاء المعرى :

صــاح هــذى قُبُورُنــا تملأُالرحـ ـبَ فأين القبورُ من عهدِ عَادِ

١٩ - ويأتى الاستفهام لإظهار الأسى والتحسر . نحو قولنا : « أين المعتصم » . وأين أنت يا صلاح الدين . وقول الشاعر :

أيــن أنــت الآن بــل أيــن أنــا

---

(١) الصف : ١٠ .

(٢) الشعراء : ١٣٦ .

النوع الثالث من الإنشاء الطلبي : **الأمر :**

والأمر طلب حصول شيء على طريق الاستعلاء . أو كما يقال من الأعلى للأدنى .

وله صيغ أربع :

الصيغة الأولى تكون بفعل الأمر : ﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾[2] .

الثانية : صيغة الفعل المضارع المقترن بلام الأمر : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته . ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾[4] .

الثالثة : صيغة المصدر النائب عن فعله . نحو قول الشاعر :

فصبرا في مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع

الرابعة : اسم الفعل : نحو : حذار بمعنى احذر ، ودراك بمعنى أدرك .

ومنها قول الشاعر :

فحذارِ من أسدِ العرينِ حَذارِ

وقول الآخر :

وحذارِ أن ترضى مودةَ من ... يَقْلي الْمُقِلَّ ويعشقُ الْمُثْرى

وصيغة الأمر تفيد إيجاب الطلب على وجه اللزوم ، دون حاجة إلى شيء . لأن دلالته أصلية . لكن الأمر قد يأتي لإفادة أمور أخرى يحددها السياق

---

(1) المزمل : ٢ .
(2) الحجر : ٩٤ .
(3) آل عمران : ١٠٤ .
(4) الطلاق : ٧ .

ويكشف عنها. ومن بين الأمور التي يخرج إليها الأمر ويفيدها بواسطة القرائن ما يلي :

١ – الدعاء . وذلك إذا كان الطلب من الأدنى للأعلى . نحو قول المسلم : ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما ﴾[1] . ومنها قول الشاعر :

فاسلمْ أميرَ المؤمنيـــن ولا تَـزلْ مُسْتَعْلِياً بالنّصرِ والتّأييـــدِ

٢ – الالتماس : ويتوجه الأمر فيه إلى من هو في منزلة المتكلم ، كأن يقول الطالب لزميله : أعرني كتابك .

٣ – الإرشاد : نحو قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

٤ – التعجيز : نحو قوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ . وقول الفرزدق :

أولئــك آبائــي فجئني بمثلهــم إذا جمعتنـــا يا جريـــر المجامـــع

٥ – التحقير والإهانة : ومنه قول أبي العلاء :

أرى العنقــاء تكبر أن تصــادا فعانــد من تطيق له عنــادا

٦ – التهديد والوعيد : ﴿ افعلوا ما شئتم إنه بما تعملون خبير ﴾ . ومنه قول الشاعر :

إذا لم تخْـشَ عَاقِبَةَ اللّيَــالي ولم تَسْتَحْيِ فاصْنَــعْ ما تَشَــاءُ

٧ – ومما يخرج إليه الأمر من المعاني : « التعجب » . وذلك كقول شوقي يصف قصر أنس الوجود :

قِفْ بِهذِى القُصُورِ في اليمِّ غرقَى مُمْسِكَاتٍ بعضها من الذُّعْرِ بَعْضَا

---

(١) سورة الفرقان : ٧٤ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يهتدون سبيلا ﴾[1] .

٨ — ومن المعانى « التمنى » كقول عنترة :

يا دارَ عبلةَ بالْجَواءِ تكلَّمِى   وَعِمِى صَبَاحًا دارَ عبلةَ واسْلَمِى

٩ — الإباحة — كل ما تشاء . واختر ما تريد .

١٠ — التخيير : تزوج هندا أو أختها . ومنه قول الشاعر :

عِشْ عَزِيزًا أَوْ مُتْ وأنت كريمٌ   بين طَعْنِ الْقَنَا وخَفْقِ الْبُنُودِ

والفرق بين الإباحة والتخيير أن الإباحة يجوز فيها الجمع بين الأمرين بخلاف التخيير .

١١ — الاعتبار والاتعاظ : نحو قوله تعالى: ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر ﴾[2] .

ولا نستطيع أن نحصر الصيغ التى يخرج إليها الأمر والتى تحددها المقامات . لكن يرشد إليها السياق ، ويهدى إليها الطبع السليم . وهى تكثر فى الشعر وتتنوع ، وتضيف إليه دلالات وإيحاءات مختلفة . ولننظر إلى صيغة الأمر وما توحى به فى قول الشاعر :

كَمِّمُوا الأَفْوَاهَ هَلْ تَكْمِيمُهـا   يَمْنَعُ الأَيْدِىَ أَنْ تحفـر صَخْرًا
حَطِّمُوا الأقلامَ هـل تحطيمها   يَمْنَعُ الأعـينَ أن تنظـرَ شَذْرًا

ففى الأمر ما نحس من التحدى والإصرار ، وتيئيس المتجبرين من أن ينالوا من الأحرار أو يوقفوا عزمهم الجبار عن الوصول إلى مدى الشوط . وينمى هذا المعنى

(١) الإسراء : ٤٨ .
(٢) الأنعام : ٩٩ .

صيغة أخرى من صيغ الطلب هى الاستفهام الذى يحقر ويقلل من شأن الأعمال التى يقوم بها أولئك المتجبرون . كما يوحى بالتيئيس فيما يطمحون إليه من كسر إرادة الأحرار .

النوع الرابع من أنواع الإنشاء الطلبى : « النهى » :

وهو طلب الكف عن شيء على سبيل الاستعلاء . فهو مقابل الأمر . وله صيغة واحدة هى الفعل المضارع مع « لا » الناهية . وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾[1].

وقد يعبر النهى عن أمور أخرى يكشف عنها السياق ، ويحددها الموقف ، وطبيعة من تصدر عنه صيغة النهى ، ومن تصدر إليه تلك الصيغة .

فإذا جاءت صيغة النهى من الأدنى إلى الأعلى أفادت الدعاء . وذلك كقوله تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾[2].

وإذا جاءت الصيغة لمن يساوى المتكلم فى القدر والمنزلة كانت للالتماس . وذلك كقول الشاعر :

إن دخلتُ الروضَ يومًا لا تَلُمْني فأنَا أهْوَى الزُّهُور

إن عشقتُ البدرَ يومًا لا تَلُمْنى

ومثل قولك لصديقك : لا تبرح حتى أعود .

---

(١) الإسراء : ٣٥ - ٣٦ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

٤ — كما تأتى صيغة النهى للإرشاد : كأن تقول لآخر : لا يضيع جهدك فيما لا ينفع . وقول الشاعر :

إذا نطَقَ السفيهُ فلا تُجِبْهُ   فَخَيْرٌ من إجَابَتِهِ السُّكُوتُ

٥ — وتأتى صيغة النهى للتهديد : لا تؤدّ واجبا . ولا تنتهِ عن غيك .

٦ — التيئيس : نحو قولك للآخر : لا تحاول فى هذا الأمر . ومنه قول الشاعر :

فلا يَخْدَعَنْكَ لمعُ السَّرابِ   ولا تأتِ أمراً إذَا ما اشْتَبَهْ

٧ — التمنى : نحو قول الخنساء :

أعَيْنَىَّ جُودَا ولا تجمدا   ألا تَبْكِيانِ لِصَخْرِ النَّدى

٨ — التوبيخ : نحو قولك : لا تدع غيرك إلى الشىء وأنت له تارك . ومنه قول الشاعر :

لا تَنْهَ عن خلقٍ وتأتىَ مثله   عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

النداء :

النوع الخامس من أنواع الإنشاء الطلبى : « النداء » : وهو دعوة المخاطب إلى الإقبال بحرف ينوب عن فعل بمعنى : أدعو — أو أقبل . وله أدوات ثمان : هى : الهمزة — يا — وأى — وآى — وآ — وأيا — وهيا — ووا .

وحروف النداء على نوعين : موضوع لنداء القريب . وهو الهمزة وأى . وموضوع لنداء البعيد وهو باقى الحروف .

وحين يستخدم كل من هذه الحروف فيما وضع له . أى أن ينادى بالهمزة أو أى القريب كأن يقول المرء لابنه الذى يجالسه : أى بنى . أو يقول له : أبنىّ . وأن ينادى من يبعد عنه بيا أو أيا أو هيا . أو وا . يكون الأسلوب قد جاء على ما يقتضى الظاهر . لكن هذه الأدوات غالبا ما تستخدم فى غير ما وضعت له . أى أنها تخرج عن المعنى الذى وضعت له لتعبر عن عكسه . ولا يكون ذلك إلا لنكتة بلاغية اقتضت ذلك ، ويجب البحث عنها . فمثلا عندما ينادى بشر ابن عوانة ابنة عمه فاطمة وبينهما مسيرة أيام فيقول :

أفاطم لو شهدت ببطن خبست وقد لاقى الهزبر أخاك بشـرا

يكون قد استخدم الهمزة الموضوعة لنداء القريب فى نداء البعيد . وهنا نبحث عن السر البلاغى الذى دفعه إلى ذلك فنقول إنه يشعرنا من خلال هذا الاستعمال بأن فاطمة قريبة منه ، وكيف لا وهى تعيش فى وجدانه ، وتسكن فى نفسه . ومن نداء البعيد بأداة القريب إشعارا بقربه من النفس وقربها منه قول الشاعر :

أسكانَ نعمـان الأراكِ تيقّنوا بأنكـمْ فى رَبْعِ قَلْبِىَ سُكّـانُ

وقد يحدث العكس فينادى القريب الدانى بالحروف الموضوعة لنداء البعيد ، وذلك لغرض بلاغى يوضحه السياق ويكشف عنه . وذلك على نحو ما نجد فى قول المتنبى يعاتب سيف الدولة . وقد كان قريبا منه ، أثيرا لديه :

يا مَنْ يَعِزُّ علينَا أن نُفارِقَهُـمْ وجْدَانُنَا كلُّ شىءٍ بعدكم عَدَمُ

والنكتة فى هذا الاستخدام الإيحاء إلى بعد المنزلة وعلوها .

ومثل هذا ما نتوجه به إلى الله سبحانه وتعالى من النداء باستخدام الياء ، وهى لنداء البعيد ، مع أنه سبحانه وتعالى معنا تصديقا لقوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ﴾ . فنحن نقول : يا من يغفر الذنوب ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما نفعل . ويقول الشاعر :

يا مَنْ يُرَجَّى للشَّدَائِدِ كلِّهَـا　　　يا مَنْ إليه ٱلْمُشْتَكَى والْمَفْزَعُ

وفى استخدام هذه الأداة لزوم لأدب الخطاب مع المولى جل شأنه . وهكذا فى كل موضع تبادل فيه حرف النداء وظيفته يجب أن نبحث عن الغاية والعلة من هذا الاستخدام . ونشير هنا إلى أن هذا النقل يكون أدخل فى البلاغة مما لو استخدم الحرف فى المعنى الذى وضع له . والنداء بصفة عامة قد يخرج عن الغرض الأصلى المناط به إلى أغراض بلاغية . أى أنه لا يراد به طلب الإقبال . بل يراد به معنى من المعانى الآتية :

١ — التحسر والتوجع وإظهار الأسى واللوعة . ويأتى ذلك فى مواقف الحزن والرثاء . وذلك كقول الشاعر :

ويا قبرَ مَعْنٍ كيف واريتَ جُودَهُ　　　وقد كانَ مِنْه البرُّ والبحرُ مُتْرَعَا

وقول أمير الشعراء يرثى عمر المختار :

يا أيها السيفُ المجـردُ بالفـلا　　　يَكْسُوالسُّيوفَ على الزَّمانِ مَضَاءَ

وقول حافظ إبراهيم :

يا درةً نُزِعَـت من تاجِ وَالِدِهَا　　　فَأَصْبَحَت حِلْيَةً فى تاجِ رَضْوَان

وقول الآخر :

يا راحلًا أحلى الديا ... رَ وفضلُه لم يَرحَلِ

٢ – التعجب : كقول شوق :

أبا الهولِ طالَ عليكَ العُصُرْ ... وبلغتَ فى الأرضِ أقصَى العُمُر

ومنه قول امرىء القيس :

فيا لَكَ من ليلٍ كأن نُجومَه ... بِكُلِّ مثارِ الفَتْلِ شُدَّت بِيَذْبُلِ

٣ – الاختصاص : كقوله صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم اغفر لنا أيتها العصابة » .

٤ – الندبة : كقول الشاعر :

فواعجباً كم يدعى الفضلَ ناقصٌ ... ووا أسفًا كم يظهرُ النقصَ فاضلٌ

٥ – الإغراء : كقولنا : يا بطل الميدان تقدم . ويا فارس الحلبة تقدم .

٦ – الزجر والملامة : كقول بشر بن عوانة لفرسه حين جفل خشية من الأسد :

تقدمَ ثم أحجمَ عنه مُهرِى ... مُحاذَرةً فقلتُ عُقِرتَ مُهرَا

ومنه قول الآخر :

أفؤادِى متى المتابُ ألمَّا ... تَصْحُ والشيبُ فوقَ رأسِى

٧ – الاستغاثة : كقولنا : وامعتصماه . وقول الشاعر :

يا للرجالِ ذَوِى الألبابِ من نفرٍ ... لا يبرحُ السَّفَهُ المردِى لهم دِينَا

٨ — التحير والتذكر . ويكثر فى نداء الأطلال . وذلك كقول الشاعر :

أيا منازلَ سلمى أيـن سَلْمَـاكِ   من أجلِ هذا بكيناهَـا بكينـاكِ

٩ — التحبب والتودد . كقول شوقى :

يا جارةَ الـوادِى طربتُ وعادني   مَا يُشْبه الأحلامَ من ذكـراك

وقول الشريف الرضى :

يا ظبيـةَ البانِ تَرْعَى فى خمائِلِهِ   لِيَهْنَكِ الْيومَ أنَّ القلبَ مَرْعَاكِ

١٠ — التحقير : كقولك لآخر : يا لئيم الطبع .

أسلـــوب القصـــــر

من الأساليب التي عنى بها البلاغيون ما يطلق عليه أسلوب القصر ، وذلك لما يضفيه على الأسلوب من قوة التأثير ، وجمال التعبير .

وكان أول من تناول بعض قضايا القصر الناقد الفذ عبد القاهر الجرجاني ، ذلك لأنه فى معرض تناوله لقضايا النظم أشار إلى أن بعضها يفيد القصر أو التخصيص ، على نحو ما نجد فى حديثه عن تقديم المسند على المسند إليه ، أو تقديم بعض متعلقات الفعل عليه ، أو على بعضها البعض . وقد أشرنا إلى ذلك بالتفصيل عند حديثنا عن التقديم والتأخير . كما بين عبد القاهر أن تعريف المسند يفيد تخصيصه بالمسند إليه أو يقصره عليه . إلا أن حديثه المستفيض فى القصر ودلالاته ، وما له من أثر فى الأسلوب كان فى تناوله للمسائل التي عرض لها فى « إنما » ذلك لأنه يتعرض لما تتضمنه من المعنى ، وما تشترك به مع غيرها ، وما تنفرد به كل أداة . وهو يستعرض أقوال النحاة من أمثال أبى على الفارسى من أن « إنما » تؤدى ما يؤديه النفي والاستثناء . فهو ينقل عن النحويين[1] قولهم فى الآية الكريمة : ﴿ إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ إن المعنى ما حرم ربى إلا الفواحش . ثم يقول أبو على إنه قد وجد ما يصوب رأيهم ، أو ما يدل على صحته وهو قول الفرزدق :

أنا الذائدُ الحامِي الذِّمَارَ وإنما ... يدافعُ عن أَحْسابِهم أنا أَوْ مِثْلِي

(١) دلائل الإعجاز : ٣١٤ ، ٣١٥ .

ولما كان الكلام لا يكون إلا موجبا أو منفيا ، ولا يستقيم الإيجاب حيث لا يقال يدافع عن أحسابهم أنا ، أو يقاتل عنهم أنا ، فلم يبق إلا أن يكون المعنى ما يدافع إلا أنا ، فحينئذ يفصل الضمير كما يفصل مع النفي .

ويذهب هذا المذهب أبو إسحاق الزجاج حين يتناول قوله تعالى : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ﴾ حيث يرى النصب في الميتة هو القراءة . ويجوز : إنما حُرِّم عليكم . لكنه يختار أن تكون « ما » هي التي تمنع إن من العمل ، ويكون المعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة ، لأن إنما تأتي إثباتا لما يأتي بعدها ، ونفيا لما سواه . وقول الشاعر :

وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

المعنى ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلي .

وبعد أن يستعرض عبد القاهر الجرجاني هذه الأقوال ، والتي نستشف منها أن النحويين يجعلون إنما بمثابة النفي والاستثناء . هكذا مطلقا ودون أي تفريق . نجد عبد القاهر يلتمس — كما هو شأنه — الفروق الدقيقة بين الأشياء . فيقول : « اعلم أنهم وإن كانوا قد قالوا هذا الذي كتبته لك فإنهم لم يعنوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه ، وأن سبيلهما سبيلُ اللفظين يوضعان لمعنى واحد . وفرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء ، وبين أن يكون الشيء الشيء على الإطلاق » ثم يأخذ في بيان ما بين إنما ، والنفي والاستثناء من فروق . وأولها أنه لا يصلح في كل موضع أن نضع النفي والاستثناء موضع « إنما » وقد يكون تتبع هذه الفروق الآن من السابق لأوانه . لكننا هنا نشير إلى أن أول من تناول بعض مسائل القصر كان عبد القاهر الجرجاني ، وذلك في معرض حديثه عن

الربط بإن ، ثم تناوله لهذا الحرف حين تتصل به [ما] وتكفه عن العمل . لكنه لا يكتفي بهذا القول الذى اكتفى به النحاة ، بل يمضى فى بيان معان أخرى لها .

ولقد فتحت إشارة عبد القاهر الباب أمام متأخرى البلاغيين ، وهم قد اهتموا بتراثه البلاغي ، وعمدوا إلى وضع المصطلحات له ، والتفريع عليه . وقد تحددت على أيديهم مصطلحات هذا الباب ، كما تحددت على أيديهم مصطلحات أخرى .

تعريف القصر :

جاء فى أساس البلاغة للزمخشرى[1] : ق ص ر – قصرته : حبسته ، وهو كالنازع المقصور الذى قصره قيده . وقصرت نفسى على هذا الأمر إذا لم تطمح إلى غيره . وقصرت طرفى : لم أرفعه إلى ما لا ينبغى ، وهن قاصرات الطرف : قصرنه على أزواجهن . وقصر الستر أرخاه . قال حاتم :

وما تَشْتَكِينى جَارَتي غَيْرَ أننى إذا غَابَ عنها بَعْلُهَا لا أَزُورُهَـا
سَيَبْلُغُهَا خيرِى ويرجعُ بعلُهـا إليها ولم تُقْصرِ علىّ ستُورَهَـا

وجارية مقصورة ، ومقصورة الخطو ، وقصيرة وقَصُورة . وفرس قصير : مقربة .

فالمعنى اللغوى لمادة قصر . يفيد فيما يفيده معنى الحبس . وهكذا ورد فى مقاييس اللغة بالإضافة إلى عدم وصول الشيء مداه .

والقصر فى اصطلاح البلاغيين : تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص . ومعنى ذلك أن القصر فى المعنى الاصطلاحى لا يبعد عن المعنى اللغوى . وهو حبس شيء على شيء ، أو وقفه عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره .

(١) جـ ٢ ، ٢٥٦ .

ومن خلال التعريف السابق يتضح لنا أنه لابد فى أسلوب القصر من مقصور ، ومقصور عليه . فالمقصور هو الشىء الذى نوقفه على غيره . والمقصور عليه هو الذى تقصر عليه غيره ، ونوقفه عليه بحيث لا يتعداه إلى سواه . فحين ننظر إلى قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ يتضح لنا أننا نقصر محمدًا ﷺ على الرسالة ، لا يتعداها إلى غيرها من الصفات التى ينسبونه إليها . والرسالة مقصور عليه .

أما الطريق المخصوص الذى نجده فى التعريف . فهو تحديد لمسار البحث فى القصر ، حيث اعتمد البلاغيون بعض الطرق لأنها أكثر دورانا من غيرها ، كما أن الأساليب التى تفيد شيئا من التخصيص كثيرة ، وتتبعها يدعو إلى تشعب البحث ، وصعوبة ضبط مسائله . ولعل هذا ما دفع البلاغيين إلى ما أثبتوه من قيد فى التعريف . وهو قوله : « بطرق مخصوصة » وذلك حتى يخرجوا منه ما لم يأت على هذه الطرق . وإن أفاد التخصيص .

ومن خلال التعريف الذى سبق ، وجهود العلماء يمكننا أن نحدد المسارات التى اتجه إليها البحث فى أساليب القصر .. فمن المباحث ما ينظر إلى غرض المتكلم . ومنها ما ينظر إلى اعتبار حال المخاطب . ومنها ما يكون نظره إلى غرض القصر . وأيهما يكون مقصورا على الثانى، ومنها ما يكون النظر فيه إلى الطريق الذى تم القصر من خلاله ..

أولا : تقسيم القصر بالنظر إلى غرض المخاطب :

حين أخذ عبد القاهر الجرجانى فى الحديث عن « إنما » ذكر أنها تفيد الكلام بعدها إيجاب الفعل لشىء ، ونفيه عن سواه . فحين نقول : إنما حضر إلينا

محمد نثبت الحضور لمحمد وننفيه عن غيره . وهذا الأمر لا يتوقف على هذه الأداة وحدها . فالنفي والاستثناء يفيد ذلك أيضا ، وإن اختلفت هذه الإفادة فى كل أداة عن الأخرى . ومن خلال النظر فى هذا النفي ، ودرجة شموله أو عدم شموله . ينقسم القصر إلى قسمين :

القسم الأول : ويكون النفي فيه شاملا .. أى أننا حين نقول : إنما محمد شاعر . ننفي عن محمد أى صفة أخرى غير الشاعرية التى أثبتناها له ، وحين نقول : ما حضر غير محمد ننفي أن يكون غير محمد قد حضر . فالنفي هنا عام يشمل غير المقصور عليه . والقصر من هذا النوع يسمى حقيقيا .

أما إذا كان النفي يتوجه إلى مخصوص ، أو معين .. كأن نقول : ما حضر إلا محمد بالنظر إلى أحمد أو علىّ مثلا . فإن هذا النوع من القصر يسمى قصرا إضافيا : ومعنى هذا أن القصر الحقيقي هو ما يتوجه النفي فيه إلى كل ما عدا المقصور عليه ، إن القصر يختص به بحيث لا يتجاوزه إلى غيره مطلقا . ومنه لا إله إلا الله ، وما معبود بحق غير الله .

والقصر الإضافى : ما يختص فيه المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء معين بحيث لا يتعداه إلى ذلك الشيء ، وإن تعداه لغيره . وذلك كأن نقول : ما شاعر إلا شوقى ، بالنظر إلى حافظ مثلا ... إننا فى مثل هذه الحالة نقصر الشاعرية على شوقى بالنسبة لحافظ بحيث لا تنسحب الشاعرية عليه . ولكن يمكن أن تتعدى شوقى إلى مطران مثلا .

إن قصد المتكلم هو الذى يحدد نوع هذا القصر ، فإن كان يقصد نفى العموم كان القصر حقيقيا . وإن كان يفيد نفى الخصوص كان القصر إضافيا .

القصر التحقيقي والادعائي :

ويتفرع البحث من خلال هذين القسمين من أقسام القصر إلى فروع . فالقصر الحقيقي وهو الذى يكون النفي فيه شاملا، منه ما يكون الواقع الخارجي يصدقه . مثل قولنا : لا خطيب فى البلد غير على . ولا يوجد بالفعل من الخطباء غيره . ونحو الأمثلة التى سبقت والتى توقف الألوهية على الله فى مثل قولنا : لا إله إلا الله . وقولنا : إنما الله إله واحد . ويسمى هذا القصر تحقيقيا .. أى أن النسبة الخارجية تطابق ما ذهب إليه المتكلم حقيقة .

وقد يكون الواقع الخارجي لا يطابقه مثل قولنا : لا شاعر إلا شوقى . مع العلم أنه يوجد شعراء غيره . لكننا نزعم أن شوقى هو الذى اكتملت له هذه الصفة ، ومن ثم نبالغ فى إسنادها إليه وقصرها عليه . ويسمى هذا النوع من القصر ادعائيا .

ونخلص من هذا إلى أن القصر بالنظر إلى عموم النفي وخصوصه ينقسم إلى القصر الحقيقي والقصر الإضافى . والقصر الحقيقي إذا كان القصر يطابق فيه الواقع فهو القصر التحقيقي ، وإن كان يختلف مع الواقع فهو القصر الادعائى .

ومن القصر الحقيقي التحقيقي قولنا : « لا معبود بحق إلا الله » فإن العبادة الحقة تختص به وحده ، ولا تتعداه إلى غيره من سائر المخلوقين على سبيل الحقيقة ، وهى أيضا تطابق الواقع . ومن القصر الحقيقي الادعائى قول الشاعر :

لا سيف إلا ذو الفقـا ر ولا فتى إلا علـى

ففى البيت توجد صورتان من صور القصر .. الأولى لا سيف إلا ذو الفقار ، وفيها قصر هذه الصفة عليه، والتى تشير إلى شجاعته . لكن من المعروف أنه يوجد من يتصف بهذه الصفة سواه . لكنا نبالغ فى الزعم بأنها

اكتملت فيه كما لم تكتمل لغيره . إن ما نزعمه من قصر هذه الصفة على المسمى بهذا الأسم ليس إلا من باب المبالغة والادعاء .

والثانية : قصر صفة الفتوة على المسمى بعلى ، لكن الواقع يقول هناك كثيرون يتصفون بالفتوة ، فهى فى الحقيقة ليست وقفا على من سميناه عليا . وليس وقفها عليه إلا من باب المبالغة والادعاء .

والقصر الإضافى : وهو ما سبق أن قلنا إن النفى فيه يتوجه إلى الخاص : أى أننا حين نقول : لا شاعر إلا شوقى لا نقصد أن ننفى الشاعرية عن كل الشعراء نفيا عاما ولكن نريد ذلك بالنسبة لحافظ أو مطران مثلا ..

وتقسيم القصر الإضافى إنما ينظر فيه إلى اعتقاد المخاطب .. فالمخاطب قد يعتقد أن الشاعرية ليست وقفا على شوقى وإنما يشاركه فيها حافظ ومطران ، وقد يعتقد أن هذه الشاعرية هى لحافظ ومطران وليست لشوقى . وقد يكون مترددا فى نسبة هذه الصفة إلى واحد من هؤلاء الشعراء . ومن خلال هذا التصور ينتج لنا من صور القصر الإضافى ثلاث صور :

الصورة الأولى حين نقول : لا شاعر إلا شوقى لمن يتصور أن حافظا يشاركه فى هذه الصفة . ويسمى القصر هنا قصر الإفراد . أى أن قصر الإفراد يوجه إلى من يعتقد الشركة .. ومنه أيضا : ما العقاد إلا كاتب يرد به على من يذهب إلى أنه كاتب وشاعر . ويسمى هذا النوع قصر الإفراد لقطع الشركة التى يعتقدها المخاطب .

الصورة الثانية : وفيها يكون المخاطب مترددا بين شيئين لا يقطع بواحد منهما : وذلك نحو قولنا : ما كريم إلا حاتم لمن يتردد بين قصر الكرم عليه أو على عروة بن الورد مثلا : إن المخاطب لا يقطع بأيهما الكريم . ومنه أيضا : ما على

إلا ناجح لمن يتردد بين نجاحه ورسوبه ويسمى هذا النوع من القصر قصر التعيين : فقصر التعيين ما يكون المخاطب مترددا فيه بين أمرين لا يجزم بواحد منهما ، وتأتى صورة القصر لتعين واحد منهما .. سواء كانت قصر صفة على موصوف ، كقولنا : ما كريم إلا حاتم . أو قصر موصوف على صفة ، وذلك كقولنا : ما على إلا ناجح .

والصورة الثالثة : وفيها يكون المخاطب معتقدا عكس الحكم الذى يثبته المتكلم ، وذلك كقولنا : إنما البرىء زيد لمن يعتقد أن زيدا هو من يوجه إليه الاتهام . وقولنا : إنما محمد كريم لمن يعتقد أن محمدا بخيل . ويسمى هذا النوع من القصر الإضافى قصر القلب ، لأن المتكلم يأتى بعكس اعتقاد المخاطب ، أو يقلب قصده .

وقبل أن اتحدث عن الآفاق الفنية التى تتيحها أساليب القصر وصوره المختلفة وأثبت ما ورد عن العلماء بشأنه . وما يكون بين طرقه المختلفة من اختلاف فى صور الأداء استكمل ما ورد فى هذا الباب من أقسام . فبالإضافة إلى تقسيم القصر إلى قصر حقيقى وإضافى . وما انبثق عنهما . يضيف العلماء قسمين آخرين أحدهما ينظرون فيه إلى طرفى القصر ، وثانيهما : ينظرون فيه إلى الطرق المستخدمة فى القصر ..

أما تقسيم القصر بالنظر إلى طرفيه ، فهو إما قصر صفة على موصوف ، أو قصر موصوف على صفة . والمراد بالصفة فى باب القصر ليس وقفا على النعت المعروف فى علم النحو ، بل يتعداه إلى كل وصف معنوى يقوم بالغير ، ويقابل الذات وقد يكون هذا بالفعل أو الظرف والجار والمجرور نقول : ما كريم إلا محمد ، وما يقوم إلا على ، وليس عندى غير كتاب ، وما فى الدار إلا حسام .

ومن أمثلة قصر الصفة على الموصوف ما سبق من الأمثلة . وقوله تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ ففى الآية الكريمة قصر لصفة الكفر على الفاسقين . وكأنها تخص هؤلاء الفاسقين دون غيرهم من الناس . لكن ذلك لا يمنع من أن يتصف هؤلاء الفاسقون بالصفات الأخرى كإتيان الموبقات ، والإفساد فى الأرض ، وقطع الأرحام وغير ذلك . وهذه الآية من القصر الحقيقى لأن الكفر كما قلنا وقف على هؤلاء لا يتعداهم إلى غيرهم .

ومن قصر الصفة على الموصوف قولنا : « لا إله إلا الله » فقد قصرنا صفة الألوهية على الله وحده لا تتعداه إلى غيره ، وهى من القصر الحقيقى التحقيقى ، فالنفى فيها عام وشامل والنسبة فيها تطابق الواقع ويصدقها . ومن هذا النوع أيضا قول الشاعر :

لا يعرفُ الشوق إلا مَنْ يُكَابِدُهُ ولا الصبابةَ إلا مَنْ يُعَانِيهَا

ومنه قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السماوات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم ﴾[1] ففى هذه الآية تتعدد صور القصر وأنواعه ، فنجد قصر الصفة على الموصوف فى قوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وقوله : ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ ففيه يقصر معرفة أى شىء من علم الله سبحانه وتعالى — صغر أو كبر — على علمه سبحانه .

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .

ومثل هذه الصورة فى النوع قوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ﴾[1] وهذه الآية تأتى فى سياق نفيه سبحانه لما زعم المبطلون من القول بأن الله سبحانه اتخذ ولدا . فيضرب الله عما قال هؤلاء . ويثبت أنه اتخذ عبادا مكرمين . لا يقولون إلا ما يقول ربهم ، وبعد أن يقول : إنهم ملائكته الذين لا يعصونه ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . بل أكثر من ذلك لا يشفعون لأحد ما لم يكن الله سبحانه وتعالى قد رضى عن هذه الشفاعة . وفى الآية السابقة نجد القصر عن طريق العطف « بل » التى نفت الحكم عما قبلها ، وأثبتته لما بعدها . فقد نفت أن يكون الله قد اتخذ ولدا ... وأثبتت أنه اتخذ عبادا مكرمين صفتهم الطاعة والانقياد والتسليم والامتثال . ثم يأتى القصر فى الآية الثانية وهو من قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا شأنه شأن القصر فى الآية السابقة . وهى قصر الشفاعة على أولئك الذين رضى الله عنه ، ورغب فى العفو عنهم والتجاوز عما يكون قد وقع منهم من الذنوب الصغيرة التى لا تقدح فى العقيدة .

ومن قصر الموصوف على الصفة . ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ فقد قصر محمدا ﷺ على الرسالة ، ولهذا هو ﷺ كغيره من الرسل ، لم يكتب له كما لم يكتب لغيره الخلود ، تصديقا لقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون ﴾ ومن قصر الموصوف على الصفة أيضا قوله تعالى : ﴿ وما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ﴾ فقد اشتملت الآية على صورتين من قصر الموصوف على الصفة . الأولى : ﴿ ما أنا إلا بشر ﴾ حيث

---

(١) الأنبياء : ٢٨ .

قصر الرسول على البشرية لا يتجاوزها إلى ما يكون ملكا . والثانية قصر موصوف على صفة .

ومنه أيضا : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول ﴾ فقد تم وقف المسيح عليه السلام على الرسالة لا يتعداها إلى غيرها من الصفات التى أطلقها بعض النصارى عليه ، من كون المسيح إلها ، أو أنه ابن الله – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا –.

ومما جاء من الشعر فى قصر الموصوف على الصفة قول عبد الله بن قيس الرقيات فى مدح مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهـاب من الله   تجلت عن وجهـه الظلمـاء

فقد جعل الشاعر مصعبا كأنه نور ليس غير . وهذا البيت قد أثار حنق عبد الملك بن مروان ولم يقبل من الشاعر أن يمدحه بعد ذلك بقوله :

يأتلـقُ التـاجُ فـوقَ مَفْرِقـه   على جبيـنٍ كأنـه الذهـبُ

وقال له : تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعَبٌ شهابٌ من الله

ويمر بعض الدارسين على هذا القول سريعًا دون أن يقفوا على الغاية منه . إنه يصور جوهر المشكلة التى يحتدم حولها الخلاف ، وهى قضية الخلافة . لقد أدرك عبد الملك أن الشاعر يسلم لمصعب بالخلافة بينما يساير القول بأن الأمويين قد حولوا الخلافة إلى ملك عضود .

إن قصر مصعب على أن يكون نورا من الله انقشعت عنه الظلمة مدح يليق بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين ... لقد كان عبد الملك يشير بأصابع الاتهام إلى الشاعر . وأنه لا يخلص الود للأمويين ، ولا يسلم لهم بهذا الأمر الديني العظيم .

القصر بالنظر إلى طرقه :

أشرنا فى صدارة هذا القول إلى أن للقصر طرقا كثيرة ، منها تعريف المسند والمسند إليه . ومنها استخدام ألفاظ مثل : محمد حضر وحده ، أو الجواد فحسب . ومنها استخدام ضمير الفصل . لكن البلاغيين قصروا نظرهم على أربع طرق هي :

أولا : النفي والاستثناء :

مثل قولنا : ما محمد إلا كريم . وقول الشاعر :

ما أنت إلا إصبعٌ دميتِ ... وفى سبيل اللهِ ما لقيت

وهذا فى قصر الموصوف على الصفة ، وفى قصر الصفة على الموصوف : ما ذكيّ إلا علي ، ولا بطل غير خالد . وهذا من باب القصر الإضافي إذا نظرنا فى النفي إلى مخصوص ، والادعائي إذا توجه النفي إلى العموم .

والمقصور عليه بعد النفي والاستثناء هو الواقع بعد إلاَّ .. ففى المثال الأول المقصور عليه كريم ، والمقصود محمد . وفى البيت الضمير هو المقصور والإصبع التي دميت هي المقصور عليه . أما فى قولنا : ما ذكى إلا علي .. فإن المقصور عليه هو علي ، والمقصور هو الصفة « الذكاء » . وفى المثال الأخير : « لا بطل غير خالد » المقصور هو البطولة والمقصور عليه خالد . ويظهر من المثال السابق أن أدوات الاستثناء فى العمل سواء .

ثانيا : القصر « بإنما » :

عرضنا أول الحديث فى موضوع القصر ما ذهب إليه أبو علىّ الشيرازى ووافقه عليه الزجاج فى إفادة « إنما للنفي والاستثناء » وقلنا إن عبد القاهر جاء بعدهما فزاد الأمر بيانا وعلى ذلك يكون إفادة « إنما القصر » لأنها تفيد النفى والاستثناء . يقول عبد القاهر فى هذه الأداة : « اعلم أنها تفيد الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره ، فإذا قلت : إنما جاءنى زيد : عُقِلَ منه أنك أردت أن تنفى أن يكون الجائى غيره . فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى فى قولك : جاءنى زيد لا عمر » وبعد أن يبين اشتراك « إنما » مع « لا » يبين الفرق بينهما . ويأخذ فى بيان ما بين « إنما » و« ما » و« إلا » من اشتراك . وسوف يأتى الحديث عن ذلك . ومن أمثلة القصر بها قوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾[1] وهى من قصر الموصوف على الصفة . ومنه قولنا : « إنما شوقى شاعر » .

ومن قصر الصفة على الموصوف قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ففى الآية قصر لخشية الله على العلماء . وكأن هذه الخشية لا تتعداهم إلى غيرهم لأنهم الذين عرفوا عن يقين . وبالنظر الصائب أنه الواحد الخالق . ولعبد القاهر الجرجانى بيان لأصل من أصول القصر « بإنما » من خلال حديثه عن القصر فى هذه الآية . إنه يمهد بها لبيان المقصور والمقصور عليه معها . وهو المؤخر . فاسم الله تعالى حين تقدم أفاد أن المراد بالاختصاص هم العلماء وأنهم الذين يخشون ربهم لا غيرهم . لكن إذا تأخر اسم الله وصار الوضع : « إنما يخشى العلماء الله » فسوف يكون اسم الله هو المقصور عليه . ومثل هذا يكون فى النفى والاستثناء فالمقصور عليه دائما هو ما بعد « إلا » .

---

(١) التغابن : ١٥ .

ومن أمثلة قصر الصفة على الموصوف مع هذه الأداة قول الفرزدق :

الذائد الحامى الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

ومن الأمور التي جعلت « إنما » مثل ما ، إلا ، مجيء الضمير بعدها منفصلا . وقد سبق الكلام على ما قال النحويون فى هذا .

ومن المواضع التي يحسن القصر فيها « بإنما » ما يكون القصد فى الكلام إلى التعريض . على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ ففى الآية تعريض بأولئك الذى توجه إليه دعوة الحق . فيها ما فيها من الوضوح والبراهين وهم لا يستجيبون لداعى الحق . والآية تعرض بهم ، وتذهب إلى أنهم قد فقدوا السمع ، ومن ثم لا تتحقق منهم الإجابة .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ فالمعنى أن الحق يعقله أصحاب العقول أما أولئك الذين لا يتذكرون وبين أيديهم ما يدعو إلى التذكر فكأنهم فقدوا الألباب .

وإنما كان التعريض أحسن مواقع هذه الأداة . لأن الحكم بها معلوم للمخاطب ، فالمراد بها ليس إفادة المخاطب شيئا هو معلوم له ، بل يكون المقصود التلويح إلى معنى آخر[1] .

ثالثا : العطف « بلا » — أو « بل » — أو « لكن » :

يوجد ثلاث أدوات من أدوات العطف تفيد القصر هى « لا » والمقصور عليها هو المعطوف عليه ، أو هو المعادل لما بعدها . تقول : الكاتب العقاد

(١) المنهاج الواضح : ٩٦ .

لا شكرى . فالمقصور عليه هو « العقاد » وهذا المثال من قصر الصفة على الموصوف . أما قصر الموصوف على الصفة ، فمثل قولنا : الحكيم كاتب لا شاعر.

والمقصور عليه فى « بل » هو المعطوف وهو الذى يأتى بعدها . تقول : « الروائى الحكيم بل نجيب محفوظ » . وهو من قصر الصفة على الموصوف . أما قصر الموصوف على الصفة فمثل قولنا : « الحكيم شاعر بل كاتب مسرحى » .

والمقصور عليه عند العطف « بلكن » هو المعطوف أيضا . مثل قولنا : ما عبد الحميد شاعر لكن كاتب . ومنه قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ والمثالان من قصر الموصوف على الصفة . ففى المثال الأول قصرنا عبد الحميد على صفة الكتابة ، وفى الآية قصرنا محمدًا ﷺ على أمرين هما كونه ﷺ رسول الله ، وخاتم النبيين .

رابعاً : تقدم ما حقه التأخير :

استقر فى العربية أن هناك أمورا تتقدم فى الكلام على غيرها . فالمبتدأ يتقدم على الخبر . والفاعل يتقدم على المفعول .

والمعمول يتقدم على عامله . وهذا التقديم — الذى يجىء على غير الأصل يفيد التخصيص وقد سبقت الإشارة إلى هذا عند الحديث عن التقديم والتأخير . والمقصور عليه فى هذه الحالة هو المقدم . ومن أمثلة القصر عن طريق التقديم قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد ﴾ فتقديم المفعول به « الضمير » قصر العبادة عليه . وهو من قصر الصفة على الموصوف . وهو من القصر الحقيقى أى نعبدك وحدك لا غيرك . وإذا جعلناه من القصر الإضافى ونظرنا إلى اعتقاد المخاطب كان من الإفراد لمن يظن الاشتراك كهؤلاء الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وهو من قصر

التعيين لمن يتردد بين عبادة الله وغيره . وهو من قصر القلب لمن جعل العبادة لغير الله .

أما قصر الموصوف على الصفة فمثل قولنا : عربي أنا . أي لا غير عربي إذا كان القصر حقيقيا . أو لا هندي أو تركي إذا كان القصر إضافيا .

ومن أمثلة القصر عن طريق التقديم . قول إبراهيم ناجي في قصيدة العودة :

آه مما صنعَ الدهرُ بِنَا　　أو هَذَا الطَّلَلُ العابِسُ أنت
والخيالُ المطرقُ الرأسِ أنا　　شَدَّ ما بتنا على الضنكِ وبت

وقوله :

ركنيَ الحاني ومغناكَ الشفيق　　وظلالُ الخلدِ للعاني الطليح
علم اللهُ لقد طالَ الطريق　　وأنا جئتك كيما أستريح
وعلى بابك ألقى جعبتي　　كغريبٍ آبَ مِنْ وادِي المحنْ
فيك كفَّ اللهُ عني غربتي　　ورسَا رَحْلي على أرْضِ الوطنْ

ففي البيتين الأولين نجد صورتين من صور القصر يمثل بهما الشاعر حالته وحالة هذا البيت الذي كان مأنوساً بأحبابه عامرا بهم يمتلىء بالبهجة والسعادة ، وتكاد النفوس تطير إليه شوقا لكنه بعد أن يرحل أحباب الشاعر عنه يتحول إلى طلل عابس ، أو يوقف الشاعر عليه العبوس حتى يصبح حالة ملازمة له لا تفارقه. والشاعر الذي كان يمتلىء بالسعادة والبهجة ، وينتشي حين يأتي هذا البيت تنعكس الصورة على نفسه ، فيتحول إلى خيال مطرق الرأس ، تمتلىء نفسه بالأسى والحسرة . لقد أصبح إطراق الرأس هو حالته التي لا يفارقها إلى غيرها . واستكمالا لهذا المشهد يتوحد الشاعر مع هذا البيت في صورة أسيانة حزينة ، كما كانا يتوحدان من قبل في صور النشوة والإشراق .

لقد قصر المكان على الطلل العابس ، وقصر نفسه على الخيال المطرق الرأس . والصورتان من قصر الموصوف على الصفة .

أما الأبيات الأخرى فصورة القصر فى البيت الثالث هى تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل « وعلى بابك » والرابع : « فيك كف الله عنى غربتى » فقد تقدم الجار والمجرور على الفعل والفاعل . ولكنا جئنا بالأبيات الثلاثة التى سبقتها حتى لا نمزق الصورة الفنية التى أبدعها الشاعر ، والتى لا تمثل صورة القصر إلا جزئية من جزئياتها .

أما الأبيات ففيها يناجى الشاعر هذا المكان ، ويتذكر ما كان له فى نفسه ، وكيف كان يشفق عليه ويحنو ، يأتيه حين يشتد به النصب فيجد عنده الراحة والهدوء . لكنه لم يحظ بهذا عندما جاءه هذه المرة على الرغم من طول الرحلة وشدة المعاناة . لقد أراد أن يلقى إليه جعبته كما يلقيها الغريب العائد إلى أهله ، لكن هيهات ، لقد تغيرت الأحوال ، وتنكر الإلف لإلفه ، ولم تصبح حياة اليوم كحياة الأمس .

ونحيل القارىء إلى الفصل الذى تحدثنا فيه عن التقديم والتأخير ، وفيه يجد أمثلة منوعة لأساليب القصر . وقمنا هناك بتحليل بعضها والكشف عن مواطن الجمال فيها تحقيقا للنهج الذى آثرناه فى دراسة البلاغة .

وكما يتحقق القصر حين يتقدم الجار والمجرور كما هو فى الأمثلة التى سقتها من شعر « ناجى » يتحقق حين يتقدم الحال نحو : « ما جاء راكبا إلا محمد » . والتمييز : ما طاب نفسا إلا على .

دقائق فى باب القصر :

يفهم من الكلام السابق أن الطرق التى مضت تفيد تخصيص شىء بآخر ، ووقفه عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره إلا أن بين هذه الطرق فروقا ودقائق يتوقف تحقيق البلاغة على معرفتها . وقد سبقت الإشارة إلى ما قام به عبد القاهر الجرجانى من النص على ما بين هذه الطرق . وذلك بعد أن ذكر ما أشار إليها النحاة من إفادة « إنما » لما يفيده النفى والاستثناء . فقال : « اعلم أنهم وإن كانوا قد قالوا هذا الذى كتبته لك ، فإنهم لم يعنوا بذلك أن المعنى فى هذا هو المعنى فى ذلك بعينه ، وأن سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحد . وفرق بين أن يكون فى الشىء معنى الشىء ، وأن يكون الشىء الشىء على الإطلاق » . ثم يأخذ فى التدليل على هذه القضية وذلك من خلال الإتيان ببعض الأمثلة التى تصح فيها « إنما » ولا يصح أن تستبدل بالنفى والاستثناء . ولقد كان هذا مدخلا للشيخ يتناول فيه أهم ما يكون بين طرق القصر الأربعة من الفروق وما تختص به كل أداة .

وأول هذه الخصوصيات والفروق هو أن « إنما » تأتى فى الخبر الذى لا يجهله المخاطب ، ولا يدفع صحته . أى أنها تأتى للأمر المعلوم أو ما ينزل منزلة المعلوم . فمثال ما هو معلوم قولنا : إنما هو أخوك ، وإنما هو صاحبك القديم . فمن المعلوم أنه يعرف أخوته ولا يجهلها ، ويعرف الصحبة ولا ينكرها . وإنما يقال له هذا الكلام ترقيقا لقلبه على أخيه ، ودفعا للغضب من نفسه على صديقه .

وعلى هذا جاء قول أبى الطيب :

إنما أنت والـدٌ والأبُ القــا　　　طِـعُ أحنى من واصل الأبنــاءِ

فلم يرد أبو الطيب أن يعلم كافورا بأنه والد ، وكافور لا يحتاج لمثل ذلك لأنه يعرفه . لكنه أراد بذلك ما يترتب على هذه الأبوة من صلات وبرّ . ومثل

ذلك قولهم : « إنما يعجل من يخشى الفوت » . فمن الثابت الذى لا تجهله العقول أن من لا يخشى الفوت لا يعجل . ومما جاء على هذا النحو فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ .

وأما ما ينزل منزلة المعلوم فقول عبد الله بن قيس الرقيات :

إنما مصعب شهاب من الله   تجلت عن وجهه الظلماء

يقول عبد القاهر[1] : ادعى فى كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا فى الأوصاف التى يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم ، وأنهم شهروا بها ، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذى لا يدفعه أحد ، كما قال :

وتعذلنى أسماء سعد عليهم   وما قلت إلا بالذى علمت سعد

وكما قال البحترى :

لا أدَّعي لأبي العلاءِ فضيلةً   حتى يسلِّمَها إليه عِداهُ

ثانيا : على عكس الأمر فى « إنما » يكون فى النفى والاستثناء ، أى أنه يأتى للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه . فإذا قلت : ما هو إلا مجد . قلته لمن ينكر الجد عنده . أو يشك فى وقوعه . ومثله ما هو إلا شجاع . وما هو غير كريم . ومثل ذلك إذا رأيت قادما من بعيد فقلت ما هو إلا محمد . فإن قولك هذا لم يأت إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس محمدا وأنه إنسان آخر . ومعنى ذلك أنه لا يصح أن

---

(1) دلائل الإعجاز : ٢١٦ ، ٢١٧ .

تقول للشخص ترققه على أخيه ما هو إلا أخوك . وكذلك لا يصح أن تقول فى « إنما أنت والد » ما أنت إلا والد . وهكذا كل ما كان معلوما على الصحة لا يجوز فيه النفى والاستثناء . أما إذا كان من الأمور المحتملة فيصح أن يأتى النفى والاستثناء بدلا من إنما . وهذا ما أثبته عبد القاهر فى قول الشاعر :

إنما مصعب شهاب من الله

فهذا ليس معلوما على الصحة ، بل هو ادعاء من الشاعر . وإن كان مجيئه بالنفى والاستثناء يخرجه عن حد المبالغة وهى مما يتطلبه المدح .

وقد يأتى فى الكلام البليغ ما استخدم فيه النفى والاستثناء مع أن الظاهر كان يقتضى أن يكون « بإنما » لكن عند التدقيق يتضح أن ذلك كان لنكتة فنية . ففى قوله تعالى : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ جاءت الآية بإن ، وإلا . ولم يقل جل شأنه : « إنما أنتم بشر مثلنا » لأن الظاهر أنهم بشر ، وأن أحدا لا ينكر هذا . ويوقفنا عبد القاهر على النكتة فى هذا الاستخدام ، وهى أن المخاطبين ذهبوا إلى أن هؤلاء الرسل خرجوا عن البشرية بادعائهم أنهم مرسلون ، أو أن هؤلاء الرسل أخرجوا أنفسهم من البشرية فجاء الخطاب بما يناسب ذلك . أما رد الرسل عليهم بقولهم : ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ فقد جاء « بإن وما » « لأن من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف فى أمر هو لا يخالف فيه أن يعيد كلام الخصم على وجهه ، ويجىء به على هيئته ، ويحكيه كما هو »[1] . ولما كان قوله تعالى : ﴿ قل إنما إنا بشر مثلكم ﴾ ابتداء كلام أمر النبى ﷺ أن يقوله لأنه أمر غير منكور ، ولم يكن جوابا عن كلام آخر على نحو ما سبق فى الآية الأولى . « وجملة الأمر إنك متى رأيت شيئا هو من

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢١٨ .

المعلوم الذى لا يشك فيه قد جاء بالنفى ، فذلك لتقدير معنى صار به فى حكم المشكوك فيه ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وما أنت بمسمع من فى القبور ، إن أنت إلا نذير ﴾ إنما جاء بالنفي والاثبات تنزيلا لحال النبى ﷺ منزلة من يظن أن فى إمكانه أن يحول قلوبهم عما انعقدت عليه من الكفر »[1] . « لقد أراد الله سبحانه أن يقول للنبى عليه الصلاة والسلام : إنك لن تستطيع أن تحول قلوبهم عما هى عليه من الإباء ، ولا تملك أن توقع الإيمان فى نفوسهم ، مع إصرارهم على كفرهم ، واستمرارهم على جهلهم ، وصدهم بأسماعهم عما تقوله لهم ، وتتلوه عليهم . واللائق فى هذه الحال أن يجعل حال النبى عليه الصلاة والسلام حال من ظن أنه يقدر على ذلك ، ومن لا يعلم على وجه اليقين أنه ليس فى وسعه سوى أن ينذر ويحذر »[2] .

ثالثا : تفيد « إنما » ما يفيده النفى والاستثناء . من إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن سواه ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا . إلا أن « إنما » تختلف عن النفى والاستثناء لأنها تفيد الأمرين معاً دفعة واحدة . وليس الأمر كذلك فى النفى والاستثناء . فحين نقول : إنما جاءنى محمد . فإن ما يعقل منه أننا نثبت المجيء لمحمد ونتفيه عن غيره . وهذا ما يتحقق مع النفى والاستثناء .. ومعنى هذا أنهما يشتركان فى هذا القدر من الإفادة ثم تتميز « إنما » بإفادتها الأمرين معاً . ويضيف عبد القاهر « لإنما » مزية أخرى على النفى والاستثناء هى « أنها تجعل الأمر ظاهرا فى الذى تثبت له الفعل . ولا يتحقق مثل هذا الظهور فى النفى والاستثناء »[3] .

---

(١) السابق : ٣١٨ ، ٣١٩ .
(٢) دلائل الإعجاز : ٣١٩ .
(٣) السابق : ٣٢٠ .

رابعاً : تشارك « إنما » [لا] العاطفة فى أمور فعندما نقول فى « لا » العاطفة إنها تنفى عن الثانى ما وجب للأول ، فليس معنى هذا أنها تنفى الشركة فى الفعل ، أى أننا لا نريد مثلا فى قولنا : تحدث محمد لا على ، أن ننفى عن على المشاركة فى الحديث ، بل المراد أن ننفى أن يكون قد وقع منه هذا الشىء أصلا . فليس عندنا متحدثان بل متحدث واحد .

وحين نقول : تحدث محمد لا على . لا نقوله إلا إذا كان حديث قد وقع ، لكن المخاطب لا يدرى ممن كان ، أو ظن أنه من على مع أنه كان من محمد . فحققنا له بقولنا : تحدث محمد لا على القضية ، وأعلمناه أن الحديث كان من محمد . وهذه المعانى التى وجدناها فى [لا] العاطفة نجدها فى [إنما] فعندما نقول : إنما تحدث محمد ، لم يكن الغرض أن ننفى أن محمدًا تحدث معه غيره . بل إن الحديث منه وحده لم يشاركه فيه أحد، ولكن قد كانت شبهة فى أن المتحدث غير محمد فرفع الكلام هذه الشبهة . وكذلك تفيد العبارة أنه كان متحدث. فنحن لا نقولها حتى يكون قد بلغ المخاطب أن قد تحدث متحدث لكن المخاطب يظن أنه غير محمد كعلى مثلا ، فأعلمناه بالعبارة أن المتحدث محمد لا غيره .

خامساً : لا يجامع النفى [بلا] العاطفة النفى والاستثناء فلا يصح أن نقول : ما شاعر إلا شوقى لا حافظ . لأن شرط المنفى بلا العاطفة ألا يكون منفيا قبلها . لكن النفى [بلا] يجامع إنما ، ويجامع التقديم . فيقال مثلا : « إنما أنا طالب علم لا تاجر » . و« إنما أنا عربى لا عجمى » كما يقال فى التقديم : محمدا أكرمت لا عليا . وعلة الجواز فى هاتين الطريقتين أن النفى فيهما مضمن .

سادساً : دلالة الحصر فى طرق القصر — غير التقديم — بالوضع . أى أنها تفيد الحصر بالوضع أما دلالة التقديم على الحصر فإنما هى بالمفهوم والذوق . أى أن

الطرق الأخرى تفيد الحصر بدلالتها الوضعية . فلا العاطفة موضوعة للنفي بعد الإثبات . وبل ولكن ، موضوعتان للإثبات بعد النفي . وذلك مفيد للقصر . ومثل ذلك في النفي والاستثناء . فإن حرف النفي موضوع للنفي ، وحرف الاستثناء موضوع للإخراج من هذا النفي . وهذا مفيد للقصر ، وكذلك « إنما » موضوعة للقصر وضعا لتضمنها معنى ما وإلا على نحو ما سبق . لكن التقديم يفهم منه القصر من خلال الذوق والفهم . فحين أقول : « عربي أنا » يفهم المخاطب هذا التخصيص ، وإن لم يكن على علم بأن التقديم يفيده .

سابعاً : الأصل في القصر بالعطف ، أن ينص على المثبت والمنفي جميعا . فإذا قلنا : خالد قائد لا عمر ، نكون قد أثبتنا القيادة لخالد ونفيناها عن عمر . وإذا قلنا : عمر خليفة لا خالد ، نكون قد أثبتنا الخلافة لعمر ونفيناها عن خالد . وذلك في قصر الصفة على الموصوف . أما في قصر الموصوف على الصفة فقولنا : شوقي شاعر لا خطيب . فقد أثبتنا الشاعرية لشوقي ونفينا عنه الخطابة . وكذلك الشأن في « بل ولكن » ولا يترك النص عليهما إلا عند الخشية من كراهة التطويل كأن نقول : علي خطيب لا غير ، أي ليس شاعرا . أما طرق القصر الثلاثة الأخرى فالأصل فيها النص على المثبت فقط . ففي القصر بإنما نقول : إنما الشاعر المتنبي . في قصر الصفة على الموصوف ، وإنما المتنبي شاعر ، في قصر الموصوف على الصفة . وكما هو واضح ذكرنا المثبت . فلم نذكر المنفي في المثال الأول وهو غير المتنبي، كما لم نذكر غير الشاعرية وهي الخطابة أو الكتابة مثلا. ومثل هذا نجده في النفي والاستثناء فنقول في قصر الصفة على الموصوف : ما شاعر إلا المتنبيَ ، وفي قصر الموصوف على الصفة : ما المتنبي إلا شاعر . وواضح أن المذكور هو المثبت .

الإيجاز والإطناب والمساواة

من الأمور التى عنى بها البلاغيون ما أطلقوا عليه « الإيجاز والإطناب » ذلك لأن لهما دخلا بالبلاغة كبيرا ، وهما مما يدخل فى بلاغة التراكيب . ولقد كان أكثر ما تحدثوا فيه الإيجاز ، فقد خصه أبو عثمان الجاحظ بأحاديث كثيرة ... وساق عليه أمثلة متنوعة . وقالوا يمدحونه بالإطالة والإيجاز ، والكلام الذى كالوحى والإشارة من مثل قول أبى دؤاد بن حريز الإيادى :

يَرْمُون بالخطبِ الطِّوالِ وتارةً ... وَحْىَ الملاحِظِ خيفةَ الرُّقَبَاءِ

فقد مدح الإطالة فى موضعها والإيجاز فى موضعه .

وقالوا فى الإيجاز وبلوغ المعانى بالألفاظ اليسيرة قول ثابت قطنة[1] :

ما زلتُ بعدكَ فى همٍ يجيش به ... صدرى وفى نصبٍ قد كادَ يُبْلِينى

لا أكثر القول فيما يهضبون به ... من الكلام ، قليلٌ منه يكفينى

إنى تذكرتُ قَتْلَى لو شهدْتُهم ... فى غمرة الموت لم يصلوا بها دونى

ومدحوا أعرابيا بالإيجاز فقالوا : « يضع الهناء مواضع النُّقَب » . وربما يكون قد قال هذا القول قائله من قول دريد بن الصمة :

ما إن رأيت ولا سمعت به ... فى الناس طالى أَيْنُقٍ جُرُبِ

مُتَبَذِّلًا تبدو مَحَاسِنُهُ ... يَضَعُ الهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقُبِ

وإذا كانوا قد أكثروا القول فى الإيجاز ومدحه ، فليس ذلك على الإطلاق ، فإن من المواضع ما لا يليق به أو يناسبه غير الإسهاب فى القول والإطالة فيه . فكما تتطلب مواقف الإيجاز ، ويفضل فيها اللمحة الدالة ، ويحذف فيها فضول القول . تتطلب مواقف أخرى غير ذلك . لأن هذه الإطالة قد تكون تلبية لحاجات نفسية أو عقلية .

والإيجاز والإطناب من الأمور النسبية التى لا تخضع لمعيار دقيق ، ولا نجد لهما حدا ثابتا يمكن القياس عليه ، واعتماده فى كل وقت . إنهما كما سبق يخضعان لطبيعة المواقف ، وضروراتها ومتطلباتها ، ومن يوجه إليه الحديث فيهما . وقد لحظ ذلك السكاكى[1] فقال : « أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق ، والبناء على شيء عرفى » ومعنى ذلك أنه لا يمكن وضع تعريف تحقيقى ، ولابد من التسهل فى القول . ومن ثم اتخذ السكاكى كلام أوساط الناس الذى يعبرون به دون زيادة أو نقص نقطة يمكن الانطلاق منها ، فما قل من الكلام عنها ، وأدى الفائدة كاملة كان إيجازا ، وما زاد عنها وحقق نفس الغاية كان إطنابا .

فالإيجاز – عنده – هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط .

والإطناب : هو أداؤه بأكثر من عباراتهم .

---

(1) مفتاح العلوم : ١٢٠ .

وما دمنا قد عرفنا الطرفين الإيجاز والإطناب . فما توسطهما . وكانت الألفاظ فيه على قدر المعانى لا تزيد عليها أو تنقص عنها فهو المساواة .

والمعول فى بلاغة هذه الأمور ، والاعتداد بها أمران : الأول موافقتها لحال الخطاب كما أسلفنا القول . والثانى ألا يكون المعنى قاصرا .. أو كانت الزيادة لا تفيد : ذلك لأن النقص فى الكلام قد يكون سببا فى خلل يصيبه ، وليس بلاغة يحظى بها . على نحو ما نجد فى قول عروة بن الورد :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسَهُم ومقتلهم عند الوغَى كان أعْذَرَا

فالمعنى : عجبت لهم إذ يقتلون أنفسهم فى السلم . وعندما ترك ذلك أصاب المعنى خلل . ومثل ذلك قول الحرث بن حلزة :

والعيشُ خيرٌ فى ظلا ل النوك ممن عاش كدًّا

فقد أراد والعيش الناعم خير من العيش الشاق ، لكن الحذف هنا كان مُلبساً ، وأخلَّ بالمعنى . وقد يأتى الكلام وفيه زيادة لا فائدة منها ، أو قد تكون مفسدة للمعنى . ولهذا نصوا على أن الإطناب هو زيادة فى الكلام لفائدة . ومما جاءت فيه زيادة لغير فائدة قول الشاعر :

وألفى قولها كذبا ومينا

فإن الكذب هو المين .. وإحدى الكلمتين كانت تغنى عن الأخرى . وليست إحداهما أفضل من أختها حتى تكون أولى منها بالبقاء .

وقد تكون الزيادة حشوا .. وهو على ضربين :

الأول : يفسد المعنى ، وذلك كقول أبى الطيب المتنبى :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

والمعنى الذى يريده أبو الطيب : أنه لا فضل للشجاعة أو الكرم لولا معرفة المرء أنه سوف يموت . وهذا الأمر يصلح فى الشجاعة ؛ لأن الشجاع لو علم أنه مخلد فى الدنيا لم يخش الهلاك فى الإقدام فلم يكن لشجاعته فضل ؛ لكن الأمر يختلف فى الكرم ، لأن حرص الناس على المال لأنهم يتمتعون به فى الحياة ، وهم لا يفكرون حينئذ فى الموت . ولو فكروا فيه لهان عليهم المال وبذلوه . وقد لمس هذه الحقيقة طرفة بن العبد ، فقد أيقن أنه سيموت ، ومن ثم عليه أن ينفق المال ويتلفه فقال :

ألا ايهذا الزَّاجرِى أحضرَ الوغى وأن أشهدَ اللَّذاتِ هل أنت مُخْلِدِى

فإن كنتَ لا تسطيع دَفْعَ منيتى فدعنى أبادُرها بما ملكت يَـدِى

ومثل هذا قول مهيار الديلمى :

فَكُلْ إن أَكَلْتَ وأَطْعِم أخـاكَ فَلَا الزَّادُ يَبْقَـى وَلَا الآكِـلُ

ومن الزيادة التى لا تفسد المعنى . قول زهير بن أبى سلمى :

وأعلـمُ علـمَ اليـومِ والأمسِ قبله ولكننى عن علـمِ ما فى غدٍ عَـمِ

فكلمة قبله زائدة . لكنها لا تفسد المعنى . ومثل ذلك قول الآخر :

ذكـرت أخـى فعـاودنى صـداعُ الرأسِ والْوَصَـبِ

فكلمة الرأس حشو لأن الصداع لا يكون إلا فى الرأس . لكنها لم تخل بالمعنى . ومثلها قول شوقى :

ويجمعنـا إذا اختلفـت ديار بيان غير مختلـف ونطـق

فالمراد بالكلمتين هو اللغة واللسان . وفى بيت شوقى عيب آخر ، وهو أن البيان أفضل وأكثر دلالة من النطق .

والوقوف على ما يكون فضلة فى الكلام يمكن الاستغناء عنه ، لأنه لا ينمى المعنى حين يذكر من المواضع التى لا يتهيأ الوقوف عليها إلا لمن كان ذا حس مرهف ، وذوق مدرب له بصر بالكلام ومواقعه . وقد التبس الأمر على بعض من نظر فى قول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فعدها من الكلام الذى لا يحمل كبير معنى ، أو أن ألفاظها أكثر من معانيها ، لكن عبد القاهر الجرجانى تناول هذه الأبيات ، وكشف عن خصوبة المعنى فيها ، وأنها تمتلىء بالإيحاء الذى هو ألصق بلغة الشعر ، وأمس رحما به[1] .

أقسام الإيجاز :

يقسم البلاغيون الإيجاز إلى قسمين : إيجاز قِصَر ، وإيجاز حذف .

والقسم الثانى من الإيجاز الذى هو إيجاز الحذف تحدثنا فيه ، وفى أنواع المحذوف وبلاغته فى الفصل الذى تحدثنا فيه عن الحذف . وبقى أن نتحدث هنا عن القسم الثانى من الإيجاز وهو إيجاز القصر .

وهذا النوع من الإيجاز تمتلىء فيه التراكيب بالدلالات ، وتحمل من المعانى ما لا تفيده اللغة بأصل وضعها . إن العبارة فيه تكون ثرية . لا تفى غيرها من

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٠ – ٣١ .

العبارات بدلالاتها من غير بسط القول ، والزيادة فيه . ولعل ما ذكره الجاحظ فى كلام الرسول ﷺ يكشف لنا عن بعض جوانب هذا النوع من الإيجاز . لقد قال أبو عثمان فى وصف كلام الرسول ﷺ : « كلامه ﷺ ، هو الكلام الذى قل لفظه ، وكثر معناه ، وتعطفت حواشيه ، وأنارت جوانبه » . وقد قال ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم » . ومما جاء من كلامه على هذا النحو : دعاؤه ﷺ لأبى سلمة عند موته : « اللهم ارفع درجته فى المهتدين ، واخلفه فى عقبه فى الغابرين لنا وله يارب العالمين » .

وكثير من آيات القرآن الكريم يتحقق فيها هذا النوع من الإيجاز . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ فمن جاءته موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ . يقول ابن الأثير : (فقوله : ﴿ فله ما سلف ﴾ من جوامع الكلم ، ومعناه أن خطاياه الماضية قد غفرت له . وتاب الله عليه فيها ، إلا أن قوله : ﴿ فله ما سلف ﴾ أبلغ ، أى أن السالف من ذنوبه لا يكون عليه إنما هو له)[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ . فقوله : ﴿ عليه كفره ﴾ من جوامع الكلم أيضا لأنها تحمل كل ما يترتب على الكفر من العيش فى الضلال ، ومخالفة الأوامر والنواهى ، والمصير الذى ينتظر مثل هذا الذى كفر بخالقه ونعمه .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

يقول ابن الأثير : « فهذه الآية من جوامع الآيات الواردة فى القرآن الكريم . ويسوق رواية عن النبى ﷺ ، أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على الوليد

---

(١) المثل السائر : القسم الثانى ٣٢١ .

ابن المغيرة . فاهتز لها وطلب من الرسول ﷺ أن يعيدها ، فلما فعل قال الوليد : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر » .

ومن ينظر فى هذه الآية يجدها تأمر بثلاثة أمور وتنهى عن ثلاثة ... فأول ما تأمر به « العدل » والعدل كما يقال أساس الملك . فكل ملك يقوم على الجور زائل ، وبالعدل يتحقق الأمن بين الناس فلا يخافون على دمائهم وأعراضهم وأموالهم . وبالعدل تسود المحبة والطمأنينة . والخلق منذ آدم عليه السلام يطمحون إلى تحقيق العدل ، لأنه يستل سخائم النفوس ، وينزع منها البغضاء .

والأمر الثانى الذى تأمر به الآية « الإحسان » هكذا مطلقا ليس لمن أحسن إلى المرء ، وليس نوعا معينا من الإحسان ... والإحسان إلى الناس يعقد فى قلوبهم المحبة ، ويبنى بينهم أحسن العلاقات . قال الإمام الشافعى :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

إن إحسان المرء إلى من أحسن إليه لا يجعل له فضلا ، فهو يرد جميلا عليه . لكن مزية الإحسان تظهر عندما يحسن المرء إلى من أساء إليه . وقد قيل : « أحسن إلى من أساء إليك تكن أحسن الناس » . ولا يتوقف الإحسان عند عمل مّا ... فكل ما جلب الخير للناس ، وكل مساعدة تقدم لمن يحتاج إليها وكل عمل طيب يبذله المرء هى من الإحسان . بل إن إماطة الأذى عن الطريق من الإحسان .

والأمر الثالث : إيتاء ذى القربى : وتلك من صلة الرحم التى أكد عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة . ومن أقرب إلى المرء من أهله وذوى أرحامه ، يبرهم ويحسن إليهم حتى وإن لم يحسنوا إليه . وقد رسم المقنع الكندى ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين المرء وذوى قرباه . حين قال :

يعاتبني في الدين قومي وإنما ديونـي في أشياء تكسبهم حمـدا

وفيها يقول :

وإن الذى بيني وبين بني أبـي وبين بني عمـي لمختلف جـدا
إذا أكلـوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هوَوْا غيِّ هويت لهم رشدا
وإن زجـروا طيرا بنحس تمرُّ بي زجرت لهم طيرا تمر بهم سَعْدا
ولا أحمل الحقدَ القديمَ عليهـم وليس رئيس القوم من يحمل الحِقْدَا
لهم جُلُّ مالي إن تتابع لي غِنًى وإن قلَّ مالي لم أكلفهم رِفْدَا

ثم تتناول الآية ثلاثة من النواهي ... وأول ما يأتي في النهي الإلهي : الفحشاء . ويتضمن الكبائر ، إنها عظائم الذنوب والسيئات .. كالزنا وشهادة الزور وعقوق الوالدين . وفى الفحشاء ما فيها من خطر على مرتكبها وعلى غيره . ويطول بنا الحديث حين نتناول أنواع الفواحش أو الفحشاء . وما يترتب عليها من الأضرار ، وحسبنا القول بأن الفحشاء تنكرها الفطر السليمة ، ويتجافاها الأسوياء من الناس .

والمنكر كل ما أنكره الناس ، وما أنكره الشرع وإن لم يصل إلى الفاحشة ... ولم يكن المنكر منكرا إلا لأنه يخالف الطبع السليم ، ولا يقبله ذوو العقول .

والبغي .. التجبر في الأرض ، والاستكبار . وعاقبة البغي وخيمة على صاحبها أولا .. فالله لن يتركه ، وهو إن ارتفع وقتا فسوف تدور عليه الدائرة .. والأيدى التى رفعته وصفقت لبغيه وظلمه وعدوانه ، ستكون أول الأيادى التى تحطمه . والتاريخ البشري حافل بالعديد من البغاة ، سواء كانوا من الحكام أو المحكومين وعلى رأس هؤلاء وأولئك فرعون ... فقد بغى في الأرض وجعل أهلها شيعا . فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر .

وعلى الجملة ... تتناول الآية الكريمة أسس الفضائل . وأركان الرذائل . وكل ذلك يأتى فى كلمات قليلة . ولعل هذا النوع من الإيجاز الذى هو كاللمحة الدالة كان من الأسباب التى جعلت القرآن الكريم يستعصى على الترجمة والنقل . كما ألمح إلى ذلك علماؤنا الأقدمون .

وحين نتكلم عن هذا النوع من الإيجاز لابد أن نشير إلى ما أولع به علماء البلاغة — بعد — عبد القاهر من تفريع الأقسام والتزيد فيها .

وعلى سبيل المثال ، نجد ابن الأثير يطلق على النوع الذى أسلفت القول فيه : الإيجاز بالتقدير . ويعرفه بأنه ما ساوى فيه لفظه معناه[1] ولا يعد ذلك من الإيجاز عند جمهور البلاغيين . بل هو فى الواقع ما أطلقوا عليه مصطلح المساواة . لكن من خلال ما عرضنا يتضح لنا أن هذا القسم من الإيجاز ، لأن المعانى فيه ثرة وكثيرة . وعلى أية حال فإن النظرة إلى هذه الأمور نسبية . وقد أشار إلى ذلك السكاكى على نحو ما أسلفنا القول . وإذا كان ابن الأثير . يَعُدُّ ما سبق من الإيجاز بالتقدير . أو هو من المساواة . فما الإيجاز بالقصر إذن ..؟

إن ابن الأثير يجعل هذا النوع من الإيجاز على قسمين :

القسم الأول : ما دل لفظه على محتملات متعددة . وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها .

والثانى : ما يدل لفظه على محتملات متعددة ، ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها ؛ لا ، بل يستحيل ذلك[1] .

---

(١) المثل السائر : القسم الثانى ٣١٩ .

ولا يخفى ما فى كلام ابن الأثير من الخلط والاضطراب . إذ كيف يدل اللفظ على محتملات متعددة .. أى تتعدد معانيه ، ويمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه ؟ إن الولع بالأقسام هو الذى دفع ابن الأثير ومن جاء بعده إلى مثل هذا . وربما كان ما وجده ابن الأثير من التفاوت فى التعبير ، وفى دلالتها على المعانى من بين الأمور التى دفعته إلى هذه الأقوال . فمن المعلوم أن بعض العبارات تدل على معانى أكثر من ألفاظها ... لكن هناك عبارات تكون أكثر منها فى الدلالة والعطاء . وقد حاول البلاغيون المقارنة بين بعض العبارات الموجزة وفضلوا بعضها على البعض الآخر ... فقول العرب : القتل أنفى للقتل ، من العبارات التى تتمتع بما نطلق عليه إيجاز القصر .. لكن قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ أكثر إيجازا منها ، وأكثر عطاء ، وأخصب تعبيرا . وقد بيّن البلاغيون فروقا بين الآية الكريمة وقول العرب .

ولعل الأجدى فى تربية الذوق ، والرجوع بالبلاغة إلى ميدانها ، أن نتجاوز عن هذا التشقيق فى الأقسام والتفريع فيها . ونقدم للناشئة والدارسين من النماذج الأدبية ما نراه كفيلا بتحقيق الغايات التى نطمح إليها فى الدرس البلاغى ...

فمن الأمثلة التى لا خلاف فى أنها من إيجاز القصر قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ، فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ فعبارة « ما غشيهم » تحمل وراءها من المعانى ما لا تفيده عبارات مبسوطة وألفاظ متكاثرة . ويقول عنها ابن الأثير إنها من جوامع الكلم التى تستدل على قلتها بالمعانى الكثيرة ، أى غشيهم من الأمور الهائلة والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله ، ولا يحيط به غيره[1] .

---

(١) المثل السائر : ٣٣٦ .

ثم يسوق ابن الأثير قسما آخر يجعله من الإيجاز بالقصر ، أو بعبارة أخرى هو الإيجاز بالقصر . ويرى أن هذا القسم من الإيجاز لا يمكن التعبير عنه بألفاظ أخرى غير ألفاظه بحيث تكون مماثلة لهذه الألفاظ وفى عدتها . ويجعله أعلى طبقات « الإيجاز مكانا وأعوزها إمكانا » . ولا يوجد فى كلام بعض البلغاء إلا شاذا نادرا . وكأنه يقول لنا إن مثل هذا النوع من الإيجاز لا تصل إليه قدرة البلغاء إلا فى الندرة . ولا نجده كثيرا إلا فى القرآن الكريم . ثم يسوق عليه قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ ويأخذ فى بيان ما اشتملت عليه من المعانى على طريقة البلاغيين .

ولعله يجعل من هذا النوع من الإيجاز ما صاغه أبو تمام فى معنى الآية السابقة وهو قوله :

وأخافَكم كى تغمدوا أسيافكم إن الدم الْمُعتَرَّ يحرسه الدمُ

ويرى أن هذا البيت أفضل مما قالت العرب فى نفس المعنى : « القتل أنفى للقتل » .

ومن هذا النوع أيضا ما يروى من جواب معن بن زائدة حين سأله أبو جعفر المنصور قائلا : « أيما أحب إليك : دولتنا أو دولة بنى أمية ؟ فقال : ذاك إليك » . فقوله : « ذاك إليك » من الإيجاز بالقصر الذى لا يمكن التعبير عنه بغير ألفاظ كثير . لأن ما قصد إليه معن من هاتين الكلمتين هو أن حب دولتكم أو كرهها موكول بحسن سياستكم للرعية ، وقيامكم بأمر الأمة ، وإشاعة العدل والاستقرار فيها . وإن الناس سيحبون دولتكم إذا زاد إحسانكم على إحسان بنى أمية ، وسيكون الأمر بالعكس إن قلّ إحسانكم عنهم .

ولا نجد عند « السكاكى » والخطيب أى تفريع أو أقسام مما ذكر ابن الأثير .

٢ – والمساواة :

هى ما ساوى اللفظ فيها المعنى ... وقد أشرنا إلى أن ذلك من الأمور النسبية وأنه منظور فيه إلى كلام الأوساط . ويمثل له الخطيب نقلا عن السكاكى بقوله تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ . ومنه قول النابغة الذبيانى :

فإنك كالليـــل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

٣ – الإطناب :

لم يغفل علماء البلاغة عن النظر إلى النفس الإنسانية بوصفها الينبوع الذى ينبثق منه الأدب ، وتفيض منه الخواطر والأحاسيس مصورة مملوءة بما جال فى خاطر الأديب وألح عليه ، ومن ثم صوره وعبر عنه – كما أن هذه النفس هى التى يوجه إليها الأدباء والمبدعون إبداعهم بقصد نقل الأحاسيس إليها . ومن ثم كانت وقفات البلاغيين عند كثير من الأمور التى تحرك النفس الإنسانية وتناجيها . وسوف يتضح لنا اهتمام البلاغيين بالنفس وما يحركها ويؤثر فيها من خلال ما نعرضه فيما أطلقوا عليه « الإطناب » وفى باب آخر من أبواب البلاغة أطلقوا عليه « الالتفات » . لكن ليس معنى ذلك أن تناولهم لأمور البلاغة الأخرى لم ينظروا فيه لهذا الأمر الذى يمثل خصوصية من خصوصيات الأدب .

وسوف نجد لذة النفس ، والتمكن من النفس ، ودفع التوهم الذى يسبق إلى نفس المتلقى ، وغير ذلك من الأسباب التى يذكرونها للإطناب . يقول

الخطيب فى الإطناب : « وهو إما بالإيضاح بعد الإبهام ليرى المعنى فى صورتين مختلفتين ، أو ليتمكن فى النفس فضل تمكن ، فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوفت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم ، أو لتكتمل اللذة بالعلم به »[1] .

والإطناب لغة : مصدر أطنب فى كلامه إذا بالغ فيه ، وطول ذيوله . وفى اصطلاح البلاغيين : زيادة اللفظ على المعنى « لفائدة » ويخرج القيد « لفائدة » التطويل والحشو فكل منهما زيادة لا تؤدى إلى فائدة .

ويفرق البلاغيون بين التطويل والحشو بأن الزيادة فى التطويل غير معلومة . وذلك على نحو ما نجد فى قول الشاعر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند   وهند أتى من دونها النأى والبعد

فأحد اللفظين « النأى والبعد » يغنى عن وجود الآخر وليس أحدهما أولى من نظيره والحشو زيادة متعينة . ويقسمها البلاغيون إلى قسمين :

الأول : حشو يفسد المعنى .. أى هو زيادة تكون عيبا على المعنى ، وتحدث فيه خللا . ومن هذا النوع قول أبى الطيب المتنبى يرثى غلاما لسيف الدولة :

ولا فضل فيه للشجاعة والندى   وصبر الفتى لولا لقاءُ شعوب

فالمعنى الذى يريده أنه لا خير فى الدنيا للشجاعة والصبر لولا الموت . ذلك لأن الشجاعة كانت فضيلة من الفضائل بسبب الموت . وأنها قد تؤدى

---

(١) الإيضاح : ١١١ — ١١٢ .

إليه . والمعنى فى هذا جيد . لكن الشاعر أضاف كلمة « الندى » وجعلها فضيلة بسبب الموت . والموت يجعل البذل سهلا . ويجعل الإنسان غير حريص على المال . وقد لمس طرفة بن العبد هذا حين قال :

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

إن كلمة « الندى » فى بيت المتنبى من الحشو المفسد ، على الرغم من محاولة بعض الناس تفسيرها فتعسفوا ، وركبوا الشطط .

والقسم الثانى : حشو غير مفسد . وذلك نحو قول أبى العيال الهذلى :

ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصب

فذكر كلمة الرأس مع الصداع حشو ، إذ لا يكون الصداع إلا فى الرأس ، لكن ذلك لم يحدث أى خلل فى المعنى . ومنه أيضا قول أبى عدى :

نحن الرؤوس ، وما الرؤوس إذا سمت فى المجد للأقوام ، كالأذناب

فكلمة « للأقوام » حشو ، لأنها لا تعطى فائدة . وإن كانت غير مفسدة للمعنى .

ويكثر الحشو بألفاظ مثل : (لعمرى) أصبح — أمسى — ويا صاحبى . وغير ذلك من الألفاظ التى يستعين بها الشعراء لإقامة الوزن الشعرى ، أو إتمام قافية . ومما جاء منها قول الشاعر :

ما أحسن الأيام إلا أنها (يا صاحبىَّ) إذا مضت لا ترجع

وقول أبى تمام :

أقروا (لعمرى) بحكم السيوف وكانت أحقّ بِفَصْل القَضَا

وعلى الرغم من أن النوع الثانى من الحشو لا يؤثر على المعنى إلا أنه عبء عليه ، ويحسن أن يخلو منه الكلام . إن وجود أى من النوعين يخرج الكلام عن حيز الكلام الفصيح . بخلاف الإطناب الذى يعد من البلاغة إذا صادف محله ، ووقع موقعه . وهو لا يأتى إلا لنكتة فنية ، وغاية يقصد إليها المتحدث قصداً .. إنه ليس تكأة لإقامة وزن أو قافية . بل هو أمر يقتضيه المعنى ويحتمه ، إنه استجابات لحالات نفسية ، ومتطلبات للمقام ، ومراعاة لمقتضى الحال . وتفصل القول فى هذه الاعتبارات والمقتضيات التى يكون الإطناب من أجلها .

أولا : قد يأتى الكلام أول الأمر مبهما ، ثم يأتى بعد ذلك واضحا . والعلة فى هذا أن يأتى الكلام فى صورتين مختلفتين فيكون له بذلك فضل تمكن فى النفس ، واستقرار فيها . فالكلام إذا ألقى أول الأمر مبهما ذهبت النفس فيه كل مذهب ، واستشرفت إلى ما يزيل هذا الإبهام ، فإذا جاء الكلام بعد ذلك واضحاً تمكن فى النفس ، وكان شعورها به أتم . انظر إلى قوله سبحانه : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ وجدت كلمة الأمر مبهمة تحار النفس فيما ترمى إليه . فإذا جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ كان له من الروعة والحسن والقبول ، والتمكن فى النفس ما لم يكن له قبل أن يأتى بتلك الصورة الواضحة . وفى مثل هذا الموضع نوع آخر من الحسن ، وهو الجمع بين المتناقضين . وهو مما يدخل فى علم الجمال .

ومن هذا النوع أى الإيضاح بعد الإبهام باب « نعم وبئس » على رأى من جعل المخصوص بالمدح خبرا لمبتدأ محذوف .

ويضاف إلى الحسن الناتج عن الإيضاح بعد الإبهام فى باب نعم وبئس حسن آخر يتأتى من وجهين :

الأول : إبراز الكلام فى معرض الاعتدال نظرا إلى إطنابه من وجه ، واختصاره من آخر . وهو حذف المبتدأ فى الجواب .

والثانى : ما أشرنا إليه من الجمع بين المتناقضات ... فقد جمع ذلك من وجهتين : الإيضاح والإبهام ، والاختصار والإطناب .

وقد يكون مجىء الإطناب عن طريق الإيضاح بعد الإبهام لسبب آخر ... هو عدم إفادة العلم بالشىء دفعة واحدة قصدا إلى أن تكون لذتها مكتملة ... وتوضيح ذلك أن إفادة العلم بالمجهول دفعة واحدة لا يحصل به كمال اللذة . لأنه لم يتقدمه ألم . لكن إذا جاء الأمر وبه شىء من الإبهام تشوفت النفس إلى معرفته فيحصل لها بذلك لذة ... ولكن يصيبها ألم بما يحيط بالأمر من إبهام وغموض . فإذا جاء التوضيح أو إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى ، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التى لم يتقدمها ألم .

ومنه ما يطلق عليه مصطلح « التوشيع » وهو أن يأتى فى عجز الكلام[1] بمثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر كما جاء فى الأثر : «يشيب ابن آدم، ويشيب فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل » . ومنه قول الشاعر :

سقتنى فى ليـــل شبيـــه بشعرها ... شبيهةَ خدَّيْها بغيرِ رَقيـــبِ
فما زلتُ فى ليلين : شعرٍ وظلمةٍ ... وشمسين : من خمرٍ ووجه حبيبِ

وشبيه بهذا المعنى قول شوقى :

ودخلت فى ليلين، شعرِكِ والدُّجى ... ولثمتُ كالصُّبْحِ المنورِ فَـــاكِ

---

(١) انظر بغية الإيضاح : جـ ٢ ، ١٣٤ وذهب الشيخ عبد المتعال الصعيدى إلى أن التقييد بعجز البيت ليس بشىء فقد يأتى التوشيع أول الكلام ووسطه أيضا ، وأميل إلى هذا الرأى .

ومن التوشيع أيضا قول أبى عبادة البحترى :

لمّا مشين بِذِى الأراكِ تشابهت أعطاف قضبان به وقـدود
فى حُلَّتَىْ حِبَرٍ وروض فالتقـى وَشْيَانِ : وَشْىُ رُبًى ووشى بُرُود
وسَفَرْن فامتلأت عيون راقهـا وردان : وردُجَنًى وورد خـدود

ففى الأبيات الأولى جاء بالمثنى ليلين . وجاء بعده بمثنى مفسر باسمين هما شعر وظلمة . وجاء بشمسين وفسره بقوله : خمر ووجه حبيب . وفى بيت شوقى : ليلين : شعرك والدجى . والأمر واضح فى أبيات البحترى .

ثانيا : من الإطناب : مجىء الخاص بعد العام :

وحين يأتى الخاص بعد العام تكون الغاية من وراء ذلك إظهار مزية فى الخاص تظهره وكأنه جنس قائم بذاته . وذلك على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ فبعد أن ذكرت الآية الملائكة على العموم ذكرت من بينهم جبريل وميكال عليهما السلام .

ومن ذكر الخاص بعد العام أيضا قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[1] فإن الدعوة إلى الخير تشمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لكن الآية ذكرتهما بعد العام لبيان أهميتهما فى صلاح الأمم واستقامة أمورها .

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾[2] .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .
(٢) البقرة : ٢٣٨ .

ثالثا : ومن الإطناب « التكرير » :

ويأتى التكرير – بالإضافة إلى ما يكون له من قيمة موسيقية – لنكتة . كتأكيد الإنذار فى مثل قوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ﴾ وقد يكون لمجرد التأكيد .. كأن تقول لصاحبك : كم مرة نصحتك ، كم مرة جئت إليك ، كم مرة خالفت النصيحة .

ويأتى التكرير لزيادة التنبيه على ما ينفى التهمة فيؤدى ذلك إلى تلقى الكلام بالقبول . وذلك على نحو ما نجد فى قوله تعالى : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ﴾[1] فقد ذكر كلمة « يا قوم » إضافة إليه ليبين لهم قربه منهم ، إنهم قومه ، وهو يأتيهم بما فيه خيرهم . ومثل هذا نجده فى قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم وهو يدعو أباه: ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا،، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾[2] .

وقد يأتى التكرير لتعدد المتعلق على نحو ما نجد فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ فقد عدد الله فيها نعماءه ، وذكّر عقب كل واحدة منها بآلائه التى لا يكذبها إلا كل كفار عنيد . وقد جاء قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ للتنبيه على لطفه تعالى ، وعظم نعمه وآلائه وليبين ما أسدى للخلق ، ولتكون فاصلة بين كل نعمة وأخرى . ونشير إلى لطيفة فى هذه السورة ، وهو أن الغرض من ذكر هذه الآية عقب كل نعمة يختلف عن الغرض من

---

(١) غافر : ٢٩ .

(٢) مريم : ٤٣ – ٤٧ .

مجيئها عقب الأخرى[1] . ثم يرد على ما قد يكون من الاعتراض بأن هذه الآية جاءت عقب ما ليس بنعمة كما فى قوله تعالى : ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ والجواب عن ذلك أن جهنم والعذاب وذكرهما وإن لم يكونا من آلاء الله ونعمه ، فإن ذكرهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصى والترغيب فى الطاعات من آلائه تعالى .

ومن التكرير فى القرآن الكريم الذى جاء لغاية . قوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لأنه سبحانه ذكر قصصا مختلفة وأتبع كل قصة بهذا القول . وكأنه يقول : ويل لمن يكذب بهذه القصة ، وفى هذا إشعار لعظم الجرم فى كل قصة على حدة .

وكما جاء التكرير فى القرآن الكريم لغايات ونكت فنية جاء كثيرا فى الشعر . ومما جاء منه حسنا قول أبى الحسن الموسوى فى قصيدة طويلة يرثى فيها أبا إسحاق الصابى :

أعزز علىّ بأن أراك وقد خلت ... من جانبيك مجالسُ العُوّادِ
أعزز علىّ بأن أراكِ بمنزلٍ ... مُتشَابِهِ الأمْجَادِ والأوغادِ
أعزز علىّ بأن يفارق ناظرى ... لمعانُ ذاك الكوكبِ الوَقّادِ

ومنه قول إبراهيم ناجى فى قصيدة العودة :

رفرف القلبُ بجنبى كالذّبيح ... وأنا أهتفُ يا قلبُ اتّئِدِ
فيجيبُ الدمعُ والماضى الجريح ... لما عدنا ليت أنّا لَمْ نعد

---

(1) بغية الإيضاح : ١٣٦ .

لما عدنا ، أو لم نطـوِ الغـرامْ وفرغنـا من حنيـنٍ وألَـمْ
ورضينا بسكـونٍ وسـلامْ وانتهينـا لفـراغٍ كالْعَـدَمْ

رابعاً : الإيغــــال :

ومن الإطناب ما يطلق عليه « الإيغال » وهو ختم البيت بما يفيد نكتة ، يتم الكلام قبلها وقد يكون الإتيان بها لزيادة المبالغة والتأكيد . على نحو ما تجد فى قول الخنساء :

وإن صخـرا لتأتـمّ الهداة به كأنه علـم فى رأسـه نـار

فقولها : « فى رأسه نار » « إيغال » أى إفادة معنى هو المبالغة والتوكيد . وكان المعنى يتم دون ذكره . فلو أنها قالت كأنه علمٌ لأفاد ذلك الظهور والهداية وكيف لا يكون الجبل العالى المرتفع هاديا ... لكنها أضافت لذلك قولها : « فى رأسه نار » .

ومن الإيغال ماتكون النكتة فيه تحقيق التشبيه . وذلك كقول امرىء القيس :

كأنَّ عيونَ الوحشِ حـولَ خبائِنَا وَأَرْحَلَنا الجزعُ الذى لم يُثَقَّـبِ

فلو لم يذكر الشاعر كلمة « لم يثقب » لما اختل المعنى أو نقص . لكن مجيئها أكَّد التشبيه ، وأظهر رونقه لأن الجزع حين يكون غير مثقوب يكون أشبه بالعيون . ومثل هذا قول زهير :

كأنَّ فُتَاتَ العهنِ فى كلِّ منـزلٍ نَزَلْنَ به حبُّ الفنا لَمْ يُحَطَّـمِ

فقد شبه الصوف الأحمر بحب الفنا . وتحقيق التشبيه لا يتم إلا بقوله : « لم يحطم » لأن حب الفنا أحمر من الخارج وأبيض من الداخل . ومنه أيضا قول امرىء القيس :

حملتُ ردينيًّا كأن سِنَانَـهُ سَنَا لَهبٍ لم يَتَّصِلْ بِدُخَـانِ

وقيل لا يختص هذا النوع بالشعر فهو يأتي في النثر أيضا . ويمثلون لهذا بقوله تعالى: ﴿ اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾[1] .

خامسا : التذييل :

ومن الإطناب ما يطلق عليه « التذييل » . وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتوكيد .

والتذييل قسمان : قسم تستقل الجملة الثانية بمعناها . ولهذا تخرج مخرج المثل وجملة لا تستقل بمعناها ومن ثم لا تخرج مخرج المثل لعدم استقلالها بإفادة المراد .

فمن القسم الأول : وهو الذى يخرج مخرج المثل لأن الجملة الثانية يقصد بها حكم كلي منفصل عن الجملة الأولى . قوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ فمن الواضح أن قوله : ﴿ إن الباطل كان زهوقا ﴾ تجرى مجرى المثل لإمكان استقلالها عن الجملة الأولى .

ومن هذا النوع قول الحطيئة :

تزورُ فَـتًى يُعْطي على الحمدِ مَالَهُ وَمَنْ يعطِ أثْمَـانَ المكارمِ يُحْمَدِ

---

(1) يس : ٢١

ومنه قول النابغة :

وَلَسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّــه   على شعــثٍ أىُّ الرجالِ الْمُهذَّبُ

والقسم الثانى من التذييل ما لا تستقل فيه الجملة الثانية عن الأولى . ومنه قول أبى الطيب :

تمسى الأمانىُّ صرعى دون مَبْلَغِهِ   فما يقول لشىءٍ ليتَ ذلك لى

وقوله :

وما حاجةُ الأظْعَان حولك فى الدُّجى   إلى قمرٍ ما واجدٌ لك عادمــه

وقول ابن نباتة السعدى :

لم يبقِ جودُك لى شيئا أُؤمِّلُــه   تركتنى أُصْحَــبُ الدنيا بِلَا أملِ

سادساً : التكميل :

ويسمى الاحتراس أيضا . وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع هذا الإيهام وهو ضربان : ما يأتى وسط الكلام نحو قول الشاعر :

فسقى ديارَكِ غيْرَ مُفْسِدِها   صوبُ الربيــع وديمةٌ تهمى

فإن الشاعر دفع بقوله « غير مفسدها » ما قد يوهم بأنه يدعو على الديار لا لها .

ومنه قول كثير :

لو أنّ عزةَ خاصمت شمسَ الضحى   فى الحسنِ عند مُوَفَّــقٍ لَقَضَى لَها

فقوله : « موفق » تكميل .

ومنه قول الشاعر :

صببنا عليها – ظالمين – سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

فقوله : « ظالمين » تكميل لدفع ما قد يتوهم من أنهم ضربوا خيلهم لأنها لم تكن كريمة وأنها كانت تستحق الضرب .

وما يأتى فى آخر الكلام . نحو قوله تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾[1] فإن الآية الكريمة لو اقتصرت على وصفهم بالذلة على المؤمنين لأوهم ذلك أن ذلتهم لضعفهم ، وأنها صفة لازمة لهم لا تفارقهم فجاءت بقوله : ﴿ أعزة على الكافرين ﴾ لدفع هذا التوهم .

ومما جاء من الاحتراس لدفع توهم خلاف المقصود ، وكان مجيئه فى آخر الكلام قول ابن الرومى فيما كتب به إلى صديق له : « إنى وليُّك الذى لا يزال تنقاد إليك مودته عن غير طمع ولا جزع . وإن كنت لذى الرغبة مطلبا ، ولذى الرهبة مهربا » .

ويمكن أن يكون فى هذه العبارة أكثر من احتراس .. الأول يدفع به أن يكون انقياده له لرغبة فى عطاء أو رهبة من عقاب ... ويبين هذا الاحتراس أن هذا الانقياد دافعه الصداقة والمحبة .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

وَهَتْ يدى بالعجزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ وما فوقَ شُكْرِى للشَّكُورِ مزيدُ

(1) المائدة : ٥٤ .

وكذا قول كعب بن سعيد الغنوى :

حليمٌ إذا ما الحلمُ زيَّنَ أهلـه   مع الحلم فى عين العدوِّ مهيـبُ

يقول صاحب الإيضاح مبينا ما يضيفه التكميل إلى المعنى ، وما يدفعه من توهم غير المراد : « فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن حلمه عن عجز ، فلم يكن صفة مدح فقال : إذا ما الحلم زين أهله فأزال ، هذا الوهم » .

ومن هذا النوع أيضا قول السموأل :

وما مات منا سيـدٌ فى فراشـهِ   ولا طُلَّ منا حيث كان قتيـلُ

فلو اقتصر على وصف قومه بأن أحدا منهم لم يمت إلا قتيلا ، لكان ذلك موهما أنهم ضعفاء . فلما بين أن قتلاهم لا تضيع دماؤهم أزال هذا الوهم .

سابعاً : التتميم :

وهو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة . كالمبالغة فى قوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ أى مع حبه .. والضمير للطعام أى مع اشتهائه والحاجة إليه . ومثله قوله تعالى : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

ومنه قول الشاعر :

إنى على ما تَرَيْنَ من كـبرى   أَعْرِفُ من أين تُؤْكَلُ الكَتِـفُ

وقول زهير :

مَنْ يَلْقَ يوماً على علاته هَرِماً   يلق السماحـةَ منه والندى خُلُقا

أى من يلق هرما على أى حال .

ثامنا : يكون الإطناب بالاعتراض :

وهو من دقيق البلاغة ، وأحد طرق الافتنان فيها .

وهو أن يؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة . وهذه النكتة ليست مما سبق ذكره فى باب التكميل .

والنكت الفنية التى يأتى الإعتراض من أجلها تكون على النحو التالى :

١ - التنزيه والتعظيم . كقوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾[١] فقد دل الاعتراض (سبحانه) على تنزيه الله وتعظيمه عن أن يكون له صنف من خلقه .

٢ - التقرير فى نفس السامع . كقوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها ﴾[٢] . فقوله : ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ اعتراض لتقرير أن تدافع بنى إسرائيل ليس نافعا فى إخفاء عملهم وكتمانه ، لأن الله سبحانه وتعالى الذى يعلم كل شىء سيظهره مهما فعلوا .

٣ - التصريح بما هو مقصود . وذلك كقول كثير :

لو أنَّ الباخلين - وأنتِ مِنهم - رأوكِ تَعَلَّموا منكِ المِطَالَا

« فكثير » يتحدث عن بخل صاحبته فى إنالته ما يريد منها . لكنه يفردها فى البخل ، ويبين أنها تعطى المثل والقدوة فى البخل . فإن الباخلين لو رأوها لتعلموا

(١) النحل : ٥٧ .

(٢) البقرة : ٧٢ .

منها كيف يكون المطال . ولو اقتصر « كثير » على هذا القول لكفى ... لكنه أطنب فى القول . وجاء بقوله : « وأنت منهم » ليخصها بالذكر ، ويصرح بما هو المقصود من الكلام .

٤ – الدعاء : وذلك كأن تقول : « جئت إليك – أطال الله عمرك – لأتحدث معك فى أمر هام » . ومنه قول المتنبى فى المدح :

وتحتقرُ الدنيا احتقــارَ مُجَرِّبٍ　　　يرى كلَّ مافيها–وحاشاكَ– فَانِيَا

فإن قوله : « وحاشاك » اعتراض . وهو يدعو له بألا يكون مما يفنى فى هذه الدنيا وهو من الدعاء الحسن فى موضعه .

ومن الاعتراض بالدعاء قول عوف بن محلم الشيبانى :

إن الثمانيــن – وَبُلِّغْتَهــا –　　　قد أَحْوَجــت سَمْعِى إلى ترجمان

فهو يشكو ضعف سمعه الذى أصبح يحتاج إلى معين . وذلك بسبب العمر الطويل الذى بلغ ثمانين عاما . لكنه يأتى بين كلامه باعتراض فيه دعاء لمحدثه بأن يبلغ من العمر مثلما بلغ .

٥ – التنبيه . كقول الشاعر :

واعْلَــمْ – فعلمُ المرءِ يَنْفَعُـه –　　　أن سَــوْفَ يأتى كلُّ ما قُــدِرَا

فجملة – فعلم المرء ينفعه – تنبيه للمخاطب على أمر يعقب لهالمسرة .

وقد يكون للتنبيه على أمر غريب . على نحو ما جاء فى قول الشاعر :

فلا هَجْرُهُ يبدو وفى اليأسِ راحةٌ　　　ولا وَصْلُهُ يبدو لَنَا فَنُكَارِمُــه

فإن قوله : « وفى الهجر راحة » جاءت لتزيل الشعور بأن هجر الحبيب أحد مطلوبيه لأن ذلك من الأمور الغريبة . والجملة الأولى : « فلا هجره يبدو » تشعر بذلك .

ويأتى الاعتراض أيضا لتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد فى أمر علق بهما . وذلك كقوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه – حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين – أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ فقد جاءت الآية لتوصى ببر الوالدين والإحسان إليهما . ثم جاء الاعتراض ليؤكد ذلك بالنسبة للأم التى انفردت بالحمل وما فيه من مشقة ، والإرضاع .

ويأتى الاعتراض بين الكلام الواحد ليحقق المطابقة مع الاستعطاف . على نحو ما يظهر فى قول الشاعر :

وخفوقُ قلبٍ لو رأيتِ لَهِيبَهُ – يَا جَنَّتِي – لرأيتِ فيه جَهَنَّمَا

فالشاعر يتحدث عن حرقة الجوى ، والمعاناة التى يلاقيها فى حبها ، وهو يشكو لها هذا الألم الذى كان بسببها .. إن النار تشتعل فى قلبه، واللهيب فى هذا القلب يمثل جهنم وقد جاء الاعتراض بقوله « يا جنتى » ليحقق غايتين : أن تعطف عليه وتخفف من معاناته . وأن تحدث مطابقة بين كلمة « جهنم » التى جاءت فى آخر البيت وفى المطابقة ما فيها من جمال التناقض .

وكما يأتى الاعتراض خلال كلام واحد . يأتى بين كلامين متصلين معنى . وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾[1] . فإن

---

(١) البقرة : ٢٢٢ – ٢٢٣ .

قوله : ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ بيان لقوله : ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ وهذا يبين أن المكان المقصود بالإتيان هو مكان الحرث ، ليدل على أن الغرض الأصلي من المباشرة ليس قضاء الشهوة ، وإنما طلب النسل .

ومما جاء من هذا القبيل ، وكان فصلا بأكثر من جملة قوله تعالى : « قالت رب إني وضعتها أنثى – والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى – وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » فقوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ﴾[1] ليس من قول أم مريم .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل – والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا – من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾[2] .

فإذا جعلنا من « الذين » بيانا للذين أوتوا نصيبا من الكتاب لأنهم يهود أو نصارى ، يكون قوله تعالى : ﴿ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ اعتراضا . وإن جعلنا « من الذين » بيانا « لأعدائكم » يكون قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ اعتراضا .

الإطناب بغير ما سبق :

وقد يأتي الإطناب على غير الطرق السابقة . أشار إلى ذلك صاحب الإيضاح ، وغيره من البلاغيين لكنا نؤثر أن نأتي بما ذكره ابن الأثير في المثل

---

(١) آل عمران : ٣٦ .
(٢) النساء : ٤٤ – ٤٦ .

الساير حول الإطناب ، وذلك لأنه يشير إلى بعض الأوجه التى ذكر البلاغيون أن الإطناب يأتى عليها ، ولم تكن من الأمور التى سبق القول فيها مفصلا . ولكثرة الأمثلة التى يأتى بها وتنوعها ، وكشفها عن الأسرار الفنية والأسلوبية فيها ، وذلك يتمشى مع ما نطمح إلى تحقيقه من خلال الدرس البلاغى .

وبادىء ذى بدء يقسم ابن الأثير الإطناب إلى قسمين : ما يرد فى الجملة الواحدة ، وما يوجد فى الجمل المتعددة . وهو يجعل النوع الثانى أبلغ لأن المجال يتسع فى إيراده .

أما القسم الأول الذى يوجد فى الجملة الواحدة . فيقول : إنه يرد حقيقة ومجازا ، فأما ما يرد حقيقة فمثل قولهم : « رأيته بعينى ، وسمعته بأذنى ، وقبضته بيدى ، ووطئته بقدمى » . ونحو ذلك . ومثل هذا يظن فيه أن به زيادة لا حاجة إليها . فالرؤية لا تكون إلا بالعين والسمع لا يكون إلا بالأذن ، والقبض باليد ، والوطء بالقدم . لكن عند التدقيق ليس الأمر على هذا النحو .. لأن مثل هذه الأقوال لا تأتى إلا فى الأمر « يعظم مناله ، ويعز الوصول إليه فيؤكد الكلام فيه على هذا الوجه دلالة على نيله والحصول عليه » . ومثله قول أبى عبادة البحترى :

تأمّل من خلال السجف والظُّـر بعينك ما شربـت ومن سقانى
تجـد شمس الضحى تدنو بشمس إلىّ من الرحيق الخسروانى

إن الحضور فى هذا المجلس ، والشراب فيه ، والشرب ممن يسقى من الأمور العظيمة التى لا يحظى بها كل واحد . ولما كان الشاعر قد نال هذا الأمر ، ويريد أن يطلع محدثه عليه جاء به على هذا النحو من الحسن ، وطالبه بأن ينظر بعينه .. إن هذه الزيادة لم تكن عبثا على المعنى أو كانت من قبيل الحشو الذى يجتلب ليقيم الوزن ، أو يتمم القافية .. بل هى زيادة مقصودة لغاية لو لم تأت لما تحققت .

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ إن ما قالوه افتراء عظيم ولهذا جاء على هذا النحو من التعظيم الذى أحدثته كلمة « بأفواهكم » .

وفى القول المفترى فى حديث الإفك ، وما فيه من عظم الفرية ، تأتى الآية الكريمة على هذا النسق . فيقول الله : ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس فى قلوبكم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾[1] .

ويسوق ابن الأثير أمثلة متعددة مما جاء فى القرآن الكريم ، ويبين المقتضى الذى سوغ المجىء بها على هذا النحو أو ذاك . من مثل قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾[2] . ومثله قوله تعالى : ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾[3] . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾[4] .وقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ﴾[5] لكن ابن الأثير بعد أن يبين اللطيفة التى اقتضت تأكيد النفخة والدكّة وهو أن الأمر كان عظيما مهولا لكنه كان سهلا يسيرا على الله يفعل فيه ويمضى بنفخة واحدة ، ودكة واحدة . يذهب إلى بيان لطيفة أخرى . بل لعله يجعل الثانية أولى من الأولى ، وهى مراعاة التناسب والتوازن والتوافق بين الآيات . والحق أن ابن الأثير يولى هذا التوافق أهمية كبيرة ، ويرجع إليه ما فى النظم من الحسن والطلاوة . يقول

---

(١) النور : ١٥ .
(٢) الأحزاب : ٤٢ .
(٣) النحل : ٢٦ .
(٤) الحاقة : ١٣ - ١٤ .
(٥) النجم : ١٩ - ٢٠ .

ابن الأثير بعد فراغه من بيان العلة الأولى : « وها هنا نكتة لابد من الإشارة إليها . وذاك أنى نظرت فى قوله تعالى : ﴿ نفخة واحدة ﴾ و﴿ دكة واحدة ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ فوجدت ذلك غير مقيس على ما تقدم . وسأبينه ببيان شاف فأقول : إن قوله تعالى : ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ إنما جيء به لتوازن الفقر التى نظمت السورة كلها عليها وهى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ولو قيل : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة ﴾ ولم يقل : ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ لكان الكلام عاريا عن الطلاوة والحسن . وكذلك لو قيل : ﴿ ومناة الأخرى ﴾ من غير أن يقال ﴿ الثالثة ﴾ لأنه نقص فى الفقرة الثانية عن الأولى . وذلك قبيح ، وقد تقدم الكلام عليه فى السجع لكن التأكيد فى هذه الآية جاء ضمنا لتوازن الفقر وتبعا »[1] .

وأما ﴿ نفخة واحدة ﴾ ، و﴿ دكة واحدة ﴾ فإنما جيء بلفظ الواحدة فيهما . وقد علم أن النفخة هى واحدة ، والدكة هى واحدة — لمكان نظم الكلام ، لأن السورة هى « الحاقة » جارية على هذا المنهاج فى توازنها السجعى ، ولو قيل « نفخة » و« دكة » من غير واحدة — ثم قيل بعدهما : ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ لكان الكلام منثورا محتاجا إلى تمام . لكن التأكيد جاء فيهما ضمنا وتبعا[2] ومن الواضح أنه يعول على النسق اللفظى ، ويعطى الأهمية للسجع . وذلك يتضح فى غير موضع من كتابه .

وأما ما يرد فى هذا النوع من المجاز مما يكون فى الجملة الواحدة . فمثل قوله تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى

---

(١) المثل السائر — القسم الثانى : ٣٤٩ .

(٢) السابق : ٣٥٠ .

الصدور ﴾[1] فذكر الصدور فى الآية ، لأن الكلام جاء على غير المتعارف والمألوف ، لقد ألف الناس وعرفوا أن العمى يكون فى الأبصار ، ومجيئه فى القلب جاء على سبيل التشبيه والمثل ، وليس على سبيل الحقيقة . وحين أريد إثبات غير المتعارف احتاج إلى مثل الزيادة التى جاءت[2] وينّبه ابن الأثير على قيمة هذا الموضع وما له من سحر وخلابة فى علم البيان ، وما ينفرد به من روعة التصوير وجماله وما يقدم من المحاسن واللطائف . فيقول : « وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه ، وافرة لطائفه ، والمجاز فيه أحسن من الحقيقة لمكان زيادة التصوير فى إثبات الوصف حقيقى للمجازى ، وفيه نفى الحقيقة[3] .

القسم الثانى : وهو ما يكون فى الجمل :

ويعطى ابن الأثير أهمية لهذا القسم . فهو عنده أبلغ لما فيه من اتساع مجال القول ، وما يتيحه من سبل التعبير . ويذكر أنه يشتمل على ضروب أربعة :

الأول : أن يذكر الشيء ويؤتى فيه بمعان متداخلة . إلا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر . وذلك كقول أبى تمام :

قَطَعَتْ إلىَّ الزَّابِيَيْنِ هِبَاتُـهُ ... وَالْتَاثَ مَأْمُولُ السَّحَابِ الْمُسْبِلِ
مِنْ مِنَّةٍ مشهورةٍ ، وصنيعَةٍ ... بِكْرٍ ، وإحْسَانٍ أغَرَّ مُحَجَّـلِ

وأبو تمام يتحدث عن ممدوح له منن كثيرة ، وأن هذه المنن قطعت إلى الشاعر المسافات ، وجاءته ولم تكن مننا قليلة ، بل كانت لكثرتها قد جعلت

(١) الحج : ٤٦ .
(٢) المثل السائر - القسم الثانى : ٣٥٠ .
(٣) السابق : ٣٥٣ .

السحاب المأمول يبهت ويحتار . وقد قال الشاعر فى أول الأمر « مِنّة » وهى تشمل الصنائع والإحسان . لكنه أراد الافتنان والتنويع والإيهام بالتعدد ، فذكر لكل منها صفة . فالمنة مشهورة ، والصنيعة بكر ، والإحسان أغر محجل . ولو لم يذكر هذه الصفات لكان الأمر من قبيل التكرير .

وينبه ابن الأثير إلى أن هذا النوع أحسن أنواع الإطناب وألطفها ، وأن أبا تمام قد استعمله فى شعره كثيرا . وأنه يختلف عن غيره من الشعراء . يقول :

سَخِىٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفَهُ ... ويُرْجَى مُرَجّيه ويسأل سائلــه

الضرب الثانى : ويسمى النفى والإثبات .. وهو أن يؤتى بالأمر منفيا ثم يذكر بعد ذلك مثبتا ، أو يأتى مثبتا ثم يأتى بعد ذلك منفيا . ومن الضرورى أن يكون فى أحدهما زيادة عن الآخر . وإلا عُدَّ ذلك رجوعاً . والغرض من ذلك تأكيد المعنى المقصود . فمما ذكر منفيا ثم جاء مثبتا قوله تعالى : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴾[1] . « واعلم أن لهذا الضرب من الإطناب فائدة كبيرة ، وهو من أوكد وجوهه ، ألا ترى أنه قال : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ . ثم قال : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ والمعنى فى ذلك سواء ، إلا أنه زاد فى الثانية قوله : ﴿ وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴾ ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين الآيتين حكم التكرير وهذا موضع ينبغى أن يتأمل »[2] وعليه ورد قوله تعالى : ﴿ الم * غلبت الروم فى

---

(١) التوبة : ٤٤ — ٤٥ .

(٢) المثل السائر — القسم الثانى : ٣٥٣ .

أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ، ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[1] . فقد نفت الآية العلم عن أكثر الناس ، ثم أثبت لهم العلم بظاهر الحياة الدنيا . وكأنهم علموا وما علموا . كما يقول ابن الأثير . وليس يخفى ما أضاف فى الجزء الثانى .

الضرب الثالث : وهو أن يذكر المعنى كاملا لا يحتاج إلى زيادة . ثم يضرب له مثالا من التشبيه وذلك كقول البحترى :

ذات حسن لو استزادت من الحسن إليه لما أصابت مزيدا
فهى كالشمس بهجة، والقضيب اللدن قدًّا، والرِّيم طَرْفاً وجيدا

ففى البيت الأول تمام المعنى لأنه يبين وصولها الغاية فى الحسن ، ولو أنها طلبت مزيدا لما وجدت زيادة على ما عندها ، وهذا ينضوى تحته كل شىء جميل . « إلا أن للتشبيه مزية أخرى تفيد السامع تصويرا ، وتخييلا لا يحصل له من البيت الأول وحده »[2] .

ومن هذا الضرب قوله أيضا :

تردد فى خُلقَـىْ سُؤْدَدٍ سماحا مُرَجّى وبأساً مَهيبـا
فكالسَّيف إن جئتَـهُ صارِخاً وَكَالْبَحْرِ إن جئته مُسْتَثِيبَا

(۱) الروم : ۱ - ٥ .
(۲) المثل السائر - القسم الثانى : ۳٥۳ .

فالبيت الثانى يدل على معنى البيت الأول ، إلا أنه زاده تحقيقا عن طريق التشبيه .

الضرب الثانى : ويقول ابن الأثير إنه الضرب الذى يَستَوْفى فيه معانى الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة . ويرى أن هذا الضرب أصعب الضروب لما يتفرع إليه من فروع كثيرة من المعانى . وفيه يتفاوت أرباب النظم والنثر ، كما أنه لا يتوفر عليه كل أحد ولا يستطيعه كل من أراد . ويجعل مثال هذا النوع ومثال الإيجاز مثال مجمل ومفصل . ويشير إلى ما سبق من ذكره وذكر الإيجاز والتطويل . ويرى أن هذه الأمور الثلاثة بمنزلة مقصد يسلك إليه من ثلاث طرق . ثم يورد عليه أمثلة من خلال وصف بستان ذى فواكه متعددة . ونحيل إلى هذا المثال فى المثل السائر . حتى نتبين هذا الضرب[1] .

---

(١) المثل السائر – القسم الثانى : ٣٥٥ وما بعدها .

التحول فى الأسلـــوب

ويشتمل على :

١ - الالتفات .

٢ - التبادل فى الأفعال والصيغ .

٣ - أسلوب الحكيم .

الإلتفـــات

ويقال إنه « شجاعة العربية » فقد زعموا أن العربية تنفرد بهذا النوع من الكلام دون غيرها من اللغات . وقد يكون مثل هذا القول فى حاجة إلى تحقيق ودراسة مقارنة بين اللغات المختلفة لينظر ما إذا كانت لغة أخرى غير العربية تأخذ بهذا النوع من الكلام وأيا كان الأمر فنسبة الشجاعة إلى العربية لأنها تعتمد مثل هذا النوع من الكلام دليل على قيمته من الناحية الفنية وأثره فى الأداء .

ويرى ابن الأثير أن الالتفات : هو خلاصة علم البيان التى حولها يدندن ، وإليها تستند البلاغة ، وعنها يعنعن .

ولقد كان الزمخشرى أسبق من ابن الأثير فى تناول هذا الفن من فنون الكلام ، وبيان ما يُحدثه من أثر نفسى ، وما يكون له من شأن فى مجال التأثير فى المستمع . يقول فى تعليقه على قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟ قلت : هذا يسمى الالتفات فى علم البيان . وقديكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة . ومن الغيبة إلى التكلم . وبعد أن يمثل لهذه الأمور يذكر ما فعله امرؤ القيس فى قوله :

تطـاولَ لَيْلُكَ بالإثْمِـدِ ... وباتَ الْخَلِىُّ ولم تَرْقُدِ
وبات وباتت له ليلـةٌ ... كليلةِ ذى العائِرِ الأَرْمَدِ
وذلكَ من نبأ جَاءَنــى ... وخُبِّرْتهُ عَنْ أَبِى الأَسْوَدِ

إذ التفت فيها امرؤ القيس ثلاث مرات : « وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه . ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد . وقد تختص مواقعه بفوائد »[1] . وتبين هذه العبارة كنه هذا الأسلوب ، وأنه أحد طرق العرب في الافتنان في الأسلوب لجذب الانتباه وإيقاظ النفس وتحريكها لقبول ما يلقى إليها . وإيقاظ النفس وتطريتها ، وبعث النشاط فيها غاية من الغايات التي يسعى إليها المتحدث . وقد سبقت الإشارة إلى شيء من هذا .. لكنها هنا تظهر بجلاء في كلام الزمخشري . كما تبين هذه العبارة أن حالات التحول — وإن شاركت — في الأصول العامة التي أشرنا إليها فإن كل حالة منها لها خصيصة تنفرد بها عن غيرها .

وإذا كان البلاغيون يتفقون على الآثار الفنية التي تكون لهذا النوع من الكلام ، فإنهم يختلفون حول مفهومه ، والأمور التي يتحقق فيها . فجمهور البلاغيين يقصره على الانتقال من إحدى الصيغ الثلاث : الحكاية ، والخطاب ، والغيبة إلى الأخرى . والزمخشري ومن بعده السكاكي وابن الأثير يمتدون به ، ويجعلونه الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أو حتى التعبير على نحو لم يكن حسب ما يقتضيه الظاهر . وقد سبق أن ذكرنا في صدارة هذا الكلام ما ذهب إليه الزمخشري . وهو أن نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب فيه تطرية لنشاط السامع وإيقاظ له .

ولعل تعريف ابن الأثير لهذا النوع من التراكيب يزيد القضية جلاء ووضوحاً .

---

(١) الكشاف : جـ ١ ، ص ١١ .

فحقيقة « الالتفات » مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا ، وتارة كذا .

« وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ، لأنه ينقل فيه من صيغة إلى صيغة ، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر ، أو من فعل ماض إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماض ، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلا »(1) .

ولا شك أن مذهب ابن الأثير ومن قبله الزمخشرى . وما يفهم من كلام السكاكى . أكثر اتساعاً فى هذا الباب . ذلك لأن مذهب الجمهور يقصر باب الالتفات على ستة أمور : التفات من الغيبة للتكلم والخطاب ، والتفات من التكلم للغيبة والخطاب ، والتفات من الخطاب للغيبة والتكلم . لكن مذهب الزمخشرى وابن الأثير يدخل أموراً أخرى كالانتقال من الضمير إلى الظاهر ، والظاهر إلى الضمير ، ومن إحدى صيغ الفعل : الماضى والمضارع إلى الأخرى . وغير ذلك مما يعد تحولاً فى الأسلوب .

كما أن مذهب الجمهور يشترط أن يكون قد سبق كلام فى إحدى الصيغ وينقل إلى غيرها على نحو لم يكن يتوقعه السامع ، أو يقتضيه السياق . فلا يدخل فى ذلك مجيء الكلام على غير ما يقتضى الظاهر ابتداء . فمثل قول الشاعر :

إلهى عبدك العاصى أتاكا   مقرا بالذنوب وقد دعاكا

لا يعد من الإلتفات عند الجمهور لأنه لم يسبقه كلام وتم التحول عنه ، بينما هو من الالتفات عند الزمخشرى وابن الأثير والسكاكى ، لأنه جاء على

---

(1) المثل السائر : القسم الثانى - ١٦٧ - ١٦٨ .

خلاف مقتضى الظاهر ، فقد ذكر الاسم الظاهر « عبدك » والمقام مقام تكلم(٢) .

وقبل أن نتناول أنواع الالتفات – المتفق عليها – وبعض الألوان الأخرى نشير إلى المحاولة التى ذهب إليها الدكتور محمد مندور من إباحة الخروج على القواعد المألوفة لإكساب الأسلوب نوعاً من الجدة والطرافة . وقد استشهد على ذلك ببعض ما جاء فى القرآن الكريم من أساليب خرجت على ما يقتضيه السياق ، إلا أن الدكتور مندور وهم فعدها من الخروج على المألوف من قواعد اللغة . إن أصل الفكرة التى حاول الدكتور مندور إثباتها صحيح . وصحيح أيضا أنه لابد من البحث عن السبل التى تخرج الأسلوب عن رتابته ، وتستميل النفوس إليه ، وتنشطها إلى تلقيه . وأحسب أن ذلك يتحقق فى أسلوب « الالتفات » .

والآن أتناول صور الالتفات وأحاول الكشف عن الخصائص الفنية التى توجد فى كل صورة من صورها .

أولا : الرجوع من الغيبة إلى الخطاب :

ويتحقق ذلك فى قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

فقد تم الانتقال من الغيبة فى الآيات الأولى ، إلى الخطاب فى قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ﴾ . يقول ابن الأثير : « فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب ، لأن الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ (الحمد) لتوسطه مع الغيبة فى الخبر ،

---

(١) المنهاج الواضح : جـ ٤ ، ٢٠٦ وما بعدها .

فقال : (الحمد لله) ولم يقل الحمد لك ، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال : (إياك نعبد) فخاطب بالعبادة إصراحاً بها ، وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها »[1] .

وربما كان الزمخشري أوسع إدراكا لدور الالتفات . وأكثر حساسية في توضيح هذا الموقف . فعلى الرغم مما يذهب إليه ابن الأثير من زعم بأنه أدرك ما لم يدركه الزمخشري ، نجد الأمر على خلاف ذلك ، بل نجد ابن الأثير يسير على خطى جار الله ، ويتابعه .

إن ابن الأثير يسوق قول الزمخشري في التعليل للإلتفات من الغيبة إلى الخطاب ويحمله ما لم يرده . يقول : « وقال الزمخشري رحمه الله : إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن في الكلام ، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه » ثم يحاول الانتقاص مما ذهب إليه الزمخشري ويقلل من قيمته . وينتهي إلى القول : « وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشري مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة ؟ »[2] .

والحق أن الزمخشري[3] يبين الخطوط العامة ، والقواعد الأساس لفن الانتقال في الأساليب لكنه لا يغفل عن أن لكل موضع خصيصة ينفرد بها عن غيره . مع اشتراك المواضع كلها في « تطرية نشاط السامع ، وإيقاظ الإصغاء عنده » . وأن هذا النوع هو من قبيل التفنن في الأساليب . يقول الزمخشري معلقا على بعض صور الالتفات : « وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه .

(١) المثل السائر : القسم الثاني ١٧٠ .
(٢) السابق : ١٩٦ .
(٣) الكشاف : جـ ١ ، ١١ .

ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد . وقد تختص مواقعه بفوائد . ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام . تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء ، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات . فقيل : إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ، ولا نستعينه . ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذى لا تحق العبادة إلا به »[1] .

ومن أمثلة الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى : ﴿ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[2] .

ففى الآيات الكريمة عدد الله فرق المؤمنين والكافرين والمنافقين ، وذكر من صفاتهم ومصارف أمورهم ، وما أعد لكل فرقة منها من الجزاء . فالمؤمنون من صفاتهم : الإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله ، وهم يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ ، ويؤمنون بما أنزل على الرسل قبله ، وإيمانهم بالآخرة يقين لا شك فيه ولا ارتياب . وجماعة تلك حالتهم تكون على الهدى ، ومآلهم إلى فلاح .

---

(١) الكشاف : جـ ١، ١١ .

(٢) البقرة : ١ - ٢١ .

والكافرون : عميت أمامهم المسالك والسبل، وأقاموا على كفرهم ، ولم تعد دعوة الحق تؤثر فيهم . إن الله سبحانه وتعالى قد عطل فيهم سبل الإدراك ، فقلوبهم قد ختم عليها فلا يصل إليها الهدى ، وعلى أبصارهم مثل ذلك الختم ، أو عليها كما على الأعين غشاوة . أى أغطية تحيط بها وتمنع أى شيء من الوصول إليها ، ولما كان هذا شأنهم ، كان جزاؤهم فى الآخرة العذاب العظيم .

والمنافقون : تذكر الآية أحوالهم ، وما يكون منهم . فهم يقولون شيئا ، ويخفون ضده . يقولون بالإيمان ، وفى قلوبهم الكفر . ويحسبون ذلك خداعاً منهم لله ورسوله وجماعة المؤمنين . وهم فى حقيقة الأمر يخدعون أنفسهم . ثم تذكر الآيات صفات أخرى لهؤلاء المنافقين .

منها أن قلوبهم مريضة . والله قد زادهم بنفاقهم مرضا . وأنهم يكذبون ويفسدون فى الأرض ويزعمون أنهم يقيمون فيها الصلاح . ويصفون المؤمنين بالسفه مع أنهم هم السفهاء . لكنهم لغبائهم وجهلهم لا يعرفون الصواب من الخطأ ... إن المنافقين مراوغون ولما كانت تلك صفاتهم ، وغيرها مما جاء فى الآية . كان جزاؤهم ... الخسران المبين ، والتخبط فى الضلالة . والعذاب الأليم الذى أعده الله لهم وهيهات أن يفلتوا منه ، أو ينجوا من قسوته . وبعد أن تكشف الآيات صفات كل فرقة ، وما أعد لها من الجزاء تلتفت إليهم وتتوجه إليهم بالخطاب فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ . والزمخشرى يعيد ما سبق أن قرره من أثر نفسى لأسلوب الالتفات . وما كان لهذا الموضع منه من خصيصة . فالالتفات فن من الكلام جزل فيه هزٌّ للنفس وتحريك من السامع . وشأنه كأن تحدث صاحبك عن ثالث يحضر الحديث . وتعدد له ما قام به من أعمال ، وما بدر منه من سوء العمل حتى إذا وصلت إلى بيان كل ما صدر منه

عدلت بخاطبك إليه . وقلت له : أفلا يجب عليك أن تتخلى عن مثل هذه الأمور الفاسدة وتتجه إلى ما فيه الخير لك ولغيرك إنك حين قلت مثل ذلك : « نبهته بالتفاتك فضل تنبيه . واستدعيت إصغاءه إرشادك زيادة استدعاء . وأوجدته بالالتفات من الغيبة إلى المواجهة هازا من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة . وهكذا الافتنان فى الحديث ، والخروج منه من صنف إلى صنف يستفتح الآذان للاستماع ويستهش الأنفس للقبول »[1] .

ومما جاء فى الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ما قاله المتنبى فى آخر قصيدة يمدح فيها ابن العميد فى النيروز مطلعها :

جاء نَيروزُنا وأنتَ مُرادُه ... وَوَرَتْ بالَّذِى أرادَ زِنادُه

وفيها يقول :

والذى عندنا من المالِ والخيـ ... ـلِ فَمنه هِبَاتُهُ وقِيادُهُ
فبعثنا بأربعين مِهَاراً ... كلّ مُهْرٍ مَيْدانُه إنْشادُهُ
عددٌ عِشْتَه يرى الجسمُ فيه ... أرباً لا يراهُ فيما يُزادُه
فارْتَبِطْها فإن قلباً نَمَاهَا ... مَرْبِطٌ تَسْبِقُ الجيادَ جِيادُهُ

وأبو الطيب كان يهنىء بهذا العيد المسمى بالنيروز . ومن عادة الفرس فيه أن تحمل الهدايا إلى الملوك ولهذا يحمل المتنبى هداياه إلى ابن العميد قصيدة من أربعين بيتا . يزعم أنه قلب الفكر وأداره ماذا يحمل إلى ممدوحه في مثل هذا اليوم ، وكل الهدايا إنما هى هباته وعطاياه . فلم يجد إلا تلك الغرر ، جعل كل بيت منها « مُهْراً » وهو الفتى من الخيل . وقد تلطف أبو الطيب فى الوقوف بالعدد عند الأربعين لأنها العمر التى يقال إن المرء إذا تجاوزها اختلف فى أحوال

(١) الكشاف : جـ ١ ، ٦٧ .

جسمه وتصرفه ونقص عما كان قبلها . وقد أراد المتنبي أن تضاف سنوات بهذا العدد إلى عمر ابن العميد .

وقد عدّ ابن الأثير هذه الأبيات من إحسان أبي الطيب . ورأى احتجاجه بالوقوف عند الأربعين بأنه من الحجج الغريبة .

ثانيا : الرجوع من الخطاب إلى الغيبة :

وذلك على نحو ما نجد في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[1] وفائدة هذا التحول أنه يذكر حالهم لغيرهم ليجعله يتعجب من صنيعهم وكأنه يخاطب كل عاقل ويخبره بهذا النكران الشنيع لينفره منه ، ويجعله يستنكره ويستقبحه .

إن خصوصية الالتفات من الخطاب إلى الغيبة التي وقف عليها جار الله الزمخشري ، هي نفس الخصوصية التي ذكرها ابن الأثير . ولا تكاد عبارة الأخير تختلف عن عبارة الزمخشري[2] . لكن تجدر الإشارة إلى أن مقتضيات الأحوال ، ومناسبة المقامات قد تكشف عن أمور أخرى ، وتشير إلى أغراض غير تلك التي نجدها في غيرها . فإذا كان الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في الآية السابقة للمبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعي الإنكار والتقبيح ، فإن الإنصراف إلى الغيبة قد يكون في مقام المدح والثناء أمدح وأعظم ثناء ، وكأن المتكلم يروي الأمر للآخرين تعجبا واستعظاما . وهذا ما يكشف عنه الزمخشري

---

(١) يونس : ٢٢ .

(٢) المثل السائر : القسم الثاني ١٧٨ . الكشاف : جـ ١ ، ٦٧ .

فى قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون ﴾ فالالتفات هنا كأنه قال للملائكته وخواص خلقه فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون . فهو أمدح لهم من أن يقول : « فأنتم المضعفون » .

علينا فى الالتفات إذن أن نلاحظ الأسس العامة التى تحدث عن التحول بالأسلوب من طريق إلى آخر ، ثم نبحث فى كل انتقال عن النكتة التى أدت إليه ، مسترشدين بالمقامات وحالات النفس ، والأغراض التى يصاغ لها القول . وقد تنبه ابن الأثير إلى أن الانتقال بالأسلوب إلى حالة مّا قد يأتى للغاية وعكسها . يقول ابن الأثير فى هذا : « والذى عندى أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، غير أنها لا تحد بحدّ ، ولا تضبط بضابط ، لكن يشار إلى مواضع منها ، ليقاس عليها غيرها ، فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثم رأينا ذلك بعينه — وهو ضدُّ الأول — قد استعمل فى الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجرى على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر ، وإنما يؤتى على حسب الموضع الذى ترد فيه »[1] .

وهذا أعدل كلام يقال ليس فى هذا الموضع فحسب ، بل فى كل موضع من مواضع البلاغة . إن المعنى ، والمقام ، والغاية المرجوة من الكلام . وغير ذلك أمور تحدد النمط الذى يجب أن يكون عليه الكلام .

---

(١) المثل السائر : القسم الثانى ١٧٠ .

ومن الالتفات من الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾(1) ففي قوله تعالى : ﴿ وتقطعوا ﴾ تحول من الخطاب إلى الغيبة . وقد كان مقتضى السياق أن يقول : « وتقطعتم » لأنه قال : « أمتكم » « وأنا ربكم » وهي للمخاطب . وقد أدى هذا الانتقال من الخطاب إلى الغيبة إلى أنه سبحانه يشهر بهم وبما فعلوه ، وكأنه سبحانه يذيعه إلى آخرين ليطلعهم إلى ما فعل هؤلاء من قبيح الأفعال ، وما قاموا به من رديء الأعمال . يقول ابن الأثير : « الأصل في ﴿ تقطعوا ﴾ تقطعتم ، عطفا على الأول ، إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة (الالتفات) كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ، ويقبح ما فعلوه عندهم ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى . فجعلوا دين الله فيما بينهم قطعا ؟ وذلك تمثيل لاختلافهم فيه ، وتباينهم ، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو مجازيهم على ما فعلوا »(2) .

ثالثا : الرجوع من الخطاب إلى التكلم :

على نحو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾ فقد عبرت الآية عن الذات الكريمة بأسلوب الخطاب « ربكم » ثم عدلت فعبرت عنها بأسلوب التكلم « إن ربي » .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

طَحَا بِكَ قلبٌ في الحسانِ طروبُ ... بُعَيْدَ الشبابِ عصرَ حَانَ مَشِيبُ
يُكَلِّفُنِي ليلى ، وقد شطَّ وَلْيُهَا ... وعادت عوادٍ بيننا وخُطُوبُ

---

(1) الأنبياء : 92 - 93 .

(2) المثل السائر : القسم الثاني 178 .

ففى البيت الأول يجرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه . ويقول : ذهب بك وأتلفك قلب مولع بالحسان . فى وقت ذهب فيه عهد التصابى ، وحل محله المشيب . وهو يكلفك ما لا طاقة لك به ، ولا قدرة لك عليه ... إنه يكلفك هوى ليلى وطلبها ، وقد بعدت بينكما الشقة ، وزاد الخلف ... وفرقت بينكما الأحداث والخطوب . وكان مقتضى السياق أن يقول فى البيت الثانى : « يكلفك » ليكون على نهج الأول (طحا بك) لكنه عدل عن ذلك إلى الحديث عن نفسه ليبين أنه المعنىّ بهذا .

رابعاً : الرجوع من التكلم إلى الخطاب :

على نحو ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾ فقد عبرت الآية الكريمة عن الذات الإلهية بطريق التكلم ﴿ الذى فطرنى ﴾ ثم التفت إلى الخطاب فى قوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ . وفى هذا الالتفات إشعار لهؤلاء أنهم سيرجعون إلى الله ، وأنه سوف يجزيهم بأعمالهم . وفى هذا تحذير لهم من المخالفة لما أمر به .

ومن هذه الحالة من حالات الالتفات أى العدول من المتكلم إلى الخطاب . ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ عبس وتولّى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ﴾ . يقول الزمخشرى فى بيان الغاية من هذا الإلتفات : « وقد يعدل المتكلم إلى الخطاب تخييلا بالإقبال على المخاطب ومواجهته بزيادة اللوم والإنكار » ويمثل بالآية السابقة . ثم يقول : « وفى الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار ، كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه ، ثم يقبل على الجانى إذا حمى فى الشكاية مواجها له بالتوبيخ وإلزام الحجة »[1] .

---

(١) الكشاف : جـ ٤ ، ٥٦٠ .

خامساً : الالتفات من التكلم إلى الغيبة :

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾[1] فقد بدأت الآية الكريمة بمخاطبة العباد حيث أضافهم الله إلى نفسه ، تأكيدا لعبوديتهم له ، وطلب منهم ألا يقنطوا . لكنه عدل عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله : ﴿ من رحمة الله ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقول : « لا تقنطوا من رحمتى » .

ومن ذلك الصنف من العدول قوله تعالى : ﴿ حم * والكتاب المبين . إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك ﴾ واللطيفة فى هذا الالتفات أن عظمة الربوبية والرحمة السابقة تقضيان إرسالك بهذا الكتاب المبين ، والعلم المحيط بكل الأشياء اقتضى أن يكلأك برحمته ، ويحفظك برعايته ، فلا تخش أحدا من أعدائك[2] .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ﴾ فقد كان مقتضى الظاهر أن يقول : فصل لنا . لكنه التفت إلى الغيبة لمكان الربوبية وعظمتها ، وما يجب لها من الانقياد والطاعة .

سادسا : الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

وعليه قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[3] .

---

(١) الدخان : ١ — ٥ .

(٢) الكشاف : جـ ٤ : ٥٦٠ .

(٣) فصلت : ١٢ .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾[1] وقد ورد فى القرآن الكريم التحول من الغيبة إلى التكلم ثم التحول من التكلم إلى الغيبة فى قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ﴾[2] .

وقد جاء الالتفات من الغيبة إلى التكلم فى الشعر الجيد على نحو ما نجد فى قول أبى تمام :

وَرَكْبٍ يُساقُونَ الرِّكَابَ زجاجةً ... من السَّيْرِ لم تقصدها كفُّ قاطبِ
فقد أكلوا منها الغواربَ بالسُّرَى ... وصارت لهم أشباحهم كالغَوارِبِ
يُصرِّفُ مَسْرَاها جُذَيْلُ مَشَارِقٍ ... إذا آبَهُ هَمٌّ عُذَيْقُ مَغَارِبِ
يرى بالكِعَابِ الرُّودِ طلعة ثائرٍ ... وبالعرمس الوَجْنَاءِ غُرَّةَ آئبِ
كأن بها ضغنا على كل جانبٍ ... من الأرضِ أو شوقاً إلى كلِّ جانبِ
إذا العيس لاقت بى أبا دلَفٍ فقد ... تَقَطَّعَ ما بينى وبينَ النَّوائبِ
هنالك تلقى الجودَ من حيثُ قُطِّعتْ ... تَمَائِمُهُ والمجدَ مرخَى الذوائبِ

ولا يقف التحول من أسلوب إلى آخر عند الأمور السابقة ، وإن كانت هذه الأمور موضع إجماع عند علماء البلاغة .

وإكمالا للتحول فى الأساليب نسوق بعض المواضع التى ذكرها علماء البلاغة.

---

(١) فاطر : ٩ .
(٢) الإسراء : ١ .

ومن بين هذه المواضع :

وضع الظاهر موضع المضمر :

ومما جاء على هذا النحو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبىِّ الأمىِّ الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[1] .

فالآية فى أولها تتحدث على لسان الرسول ﷺ ، وهو يقول : ﴿ إنى رسول الله إليكم ﴾ وكان الظاهر يقتضى أن يكون الحديث فى آخرها : ﴿ فآمنوا بى ﴾ لتكون عطفا على قوله : ﴿ إنى رسول الله ﴾ لكنه سبحانه عدل بالحديث عن التكلم ، ووضع الاسم الظاهر محله : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ﴾ وقد كان العدول إلى الظاهر من أجل أن تجرى عليه الصفات التى أجريت . وليبين أن الذى يجب اتباعه والإيمان به هو هذا الشخص الذى وصف بأنه النبى الأمىّ ، وأنه الذى يؤمن بالله وكلماته . سواء كان هو أو سواه من الرسل . وقد لخص ابن الأثير سبب هذا العدول فى أمرين : الأول منهما : إجراء الصفات عليه . والثانى : الخروج من تهمة التعصب لنفسه[2] .

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٢) المثل السائر : القسم الثانى ١٧٩ .

التبادل بين الأفعـــال

ومن التحول في الأساليب ، أو الانتقال من أمر إلى آخر لنكتة بلاغية ما نجده من وضع صيغة من صيغ الأفعال مكان الأخرى : ولم يجعل ابن الأثير هذا الانتقال طلبا للتوسع في الكلام فحسب . بل جعله لأمر وراء ذلك . وسوف نحاول الوقوف على بعض هذه اللطائف :

أولا : الرجوع من الفعل المستقبل إلى الأمر :

ويتم هذا تفخيما لمن أجرى عليه الفعل المستقبل ، وتحقيرا لمن أجرى عليه فعل الأمر .. وذلك كقوله تعالى : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال إني أشهد الله ، واشهدوا أني بريء مما تشركون ﴾[1] .

فالسياق الذي يقتضيه ظاهر الحال أن يقول : « إشهدُ الله وأشهدكم » لكن الآية عدلت عنه في قول هود عليه السلام ليظهر أن إشهاده ربَّ العزة على البراءة من الشرك يختلف عن إشهادهم ، فبينما إشهاد الله صحيح فإن إشهادهم لا يعدو أن يكون نوعاً من السخرية والتهكم .

ثانيا : يأتي الرجوع من الفعل الماضي إلى الأمر :

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ﴾ وليست الخصوصية هنا

---

(١) هود : ٥٣ - ٥٤ .

كالخصوصية فى الرجوع من المستقبل إلى الأمر ، بل الأمر يختلف ، لأنها هنا تكون لتحقيق الأمر وتوكيده فى النفس ، فإن الصلاة من أوكد الفرائض التى فرضها الله على عباده ، فأمر بها سبحانه بعد قوله : ﴿ أمر ربى بالقسط ﴾ ثم أتبعها بإخلاص النية وهى من عمل القلب .

ثالثا : الإخبار عن الماضى بالمستقبل :

وينبهنا ضياء الدين بن الأثير على أنه ليس كل مضارع جاء جوابا للماضى كان له حظ من البلاغة . فهناك إخبار بالمستقبل عن الماضى ليس من أمور البلاغة ، لأنه فى الحقيقة ليس إخبارا بمستقبل عن ماض ، وإنما هو مستقبل دلّ على معنى مستقبل غير ماض ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض[1]. ويمثل ابن الأثير لهذا النوع بقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ﴾ ويبين أن عطف المستقبل على الماضى ، لأن كفرهم كان ووجد ، ولم يستجدوا بعده كفرا ثانيا ، وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وإنما هو مستمر ، مستأنف فى كل حين[2] . وجاء من هذا الضرب أيضا قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ فقد كان مقتضى الظاهر أن يقول : فأصبحت الأرض ، لتكون مناسبة لأنزل . لكنه عدل عن صيغة الماضى إلى المستقبل لإفادة استمرار أثر المطر زمانا بعد زمان ، ووقتا بعد آخر . وذلك كأن تقول : أنعم على فلان فأروح وأغدو شاكرا له . ويشير ابن الأثير أيضا إلى حسن هذا الموضع ويدعو إلى تأمله .. لكن العدول فيه ليس لأمر بلاغىّ ، أو نكتة يريدها المتكلم ويعمد إليها .

كما نجد فى النوع الآخر الذى يكون الإخبار فيه عن الماضى بالمضارع لاستعادة الصورة التى حدث بها الفعل ، وإعادتها أمام العين ماثلة كأنها لا تزال

(١) المثل السائر : القسم الثانى ٥٣ – ٥٤ . (٢) السابق : ١٨٤ .

مستمرة تحدث . يقول ابن الأثير : « اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به فى حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضى ، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التى يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة ، حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضى »[1] . ففى قوله تعالى : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾[2] يأتى المضارع « فتثير » بين الأفعال الماضية ، والغرض من ذلك حكاية الحال التى يقع فيها إثارة السحاب إلى البلد الموات ، « واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة »[3] .

ولا تتحقق هذه الخصوصية إلا فى فعل يكون فيه نوع من التميز والخصوصية ، كحال غريبة أو أمر من الأمور التى تهم المخاطب ، ونحو ذلك . وقد جاء من هذا الأسلوب ما ورد من حديث الزبير بن العوام — رضى الله عنه — فى غزوة بدر . فقد قال : « لقيت عبيدة بن سعيد العاص ، وهو على فرس ، وعليه لأمة كاملة لا يرى إلا عيناه ، وهو يقول : أنا أبو ذات الكئوس ، وفى يدى عَنَزَةٌ فأطعن بها فى عينه ، فوقع ، وأطأ برجلى على خده ، حتى خرجت العَنَزَةُ متعقفة » . والزبير يتحدث عن فارس عليه درع سابغة لا يظهر منها غير عينيه ، وهو مغتر بقوته دالّ بها . والزبير يمسك فى يده العنزة وهى مثل نصف الرمح ، وفيها سنان كسنانه فطعنه بالعنزة فى عينه فأسقطه ، ثم أخرج العنزة من عينه وقد تقوست . والصورة عجيبة ، ومن ثم أراد الزبير أن يبثها حية أمام الأعين ، فعدل عن صيغة الماضى ؛ إذ لم يقل : فطعنت بها فى عينه . وإنما قال : « فأطعن » .

---

(١) المثل السائر : القسم الثانى ١٨١ .　　(٣) السابق .

(٢) فاطر : ٩ .

ومثل هذا الاستحضار للصورة العجيبة نجده فى قول تأبط شرا حين زعم أنه التقى الغول ونازلها . فقال :

وإنى قد لقيتُ الغولَ تهوى ... بسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فقلتُ لها : كِلَانَا نِضْوُ أَيْنٍ ... أخو سَفَرٍ فخلِّى لى مَكَاني
فشدَّت شدةً نحوى فأَهْوَى ... لها كفِّى بمصقولٍ يَمَاني
فأَضْرِبُها بِلَادَهَشٍ فَخرت ... صَرِيعاً لِلْيدين وللجران
فقالت : عُدْ . فقلتُ لها رُوَيداً ... مَكَانَكِ إنَّنى ثبت الجنانِ
فلم أَنْفَكَّ متكئاً عليها ... لأنظرَ مُصْبِحاً ماذا أتانى
إذا عينانِ فى رأسٍ قبيحٍ ... كرأسِ الهرِّ مشقوقِ اللِّسانِ
وساقا مخدَجٍ ، وسراةُ كلبٍ ... وثوبٍ من عباءٍ أو شنانِ

وتأبط شرا يقدم لنا صورة لمعركة عجيبة له . انتصر فيها على مخلوق عجيب ، له هيئة تثير الرعب والفزع ، إنه شيء لم يمر من قبل أمام عينه . ولما كان تأبط شرا قد أبلى فى المعركة بلاء حسنا ، أراد أن تبقى صورة المعركة حية نابضة بالحركة ماثلة أمام العين ، فعطف المضارع « فأضربها » على الماضى لتحقيق هذه الغاية .

ومن العدول عن الماضى إلى المضارع لاستحضار الصورة . قوله تعالى :
﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[1] فقد

---

(١) الحج : ٣٠ - ٣١ .

عطفت الآية قوله تعالى : ﴿ فتخطفه الطير ، أو تهوى به ﴾ على خرّ . وإنما كان العدول من الماضى إلى المضارع « لاستحضار خطف الطير إياه أو هُوِىّ الريح له »[1] .

رابعا : الرجوع عن المستقبل إلى الماضى . أو الإخبار عن الفعل المضارع بالفعل الماضى على خلاف ما يقتضيه ظاهر الحال :

والنكتة فى هذا ما يكون فيه من التأكيد على تحقيق الفعل ووجوده ولننظر إلى تلك الغاية من خلال قوله تعالى : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض ﴾[2] فقد أخبرت الآية بالماضى « ففزع » عن المضارع « ينفخ » وذلك لتأكيد وقوع الفزع ، والإشعار بأن ذلك واقع لا محالة. لأن الفعل الماضى يدل على أن الفعل قد حدث .

ومن هذا الصنف من الكلام قوله تعالى : ﴿ ويوم نسيِّر الجبال ، وترى لأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾[3] فقد قال سبحانه : ﴿ وحشرناهم ﴾ بعد قوله : ﴿ نسيِّر ﴾ « وترى » وهما مستقبلان . ليدل على أهمية الحشر ووقوعه ، ليقطع الطريق على من ينكره ولا يؤمن به إن الحشر يقع أولا ، ثم يأتى بعده البروز ورؤيته ، وتسيير الجبال .

ويجرى هذا المجرى — أى الإخبار عن المستقبل بالماضى ، الإخبار عن الفعل المستقبل باسم المفعول ، وإنما يتم ذلك لتضمن اسم المفعول معنى الماضى . ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك

---

(١) المثل السائر : ١٨٤ .

(٢) النحل : ٨٧ .

(٣) الكهف : ٤٧ .

يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ﴾[1] « فإنه إنما آثر اسم المفعول الذى هو (مجموع) على الفعل المستقبل الذى هو (يجمع) لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم . وأنه الموصوف بهذه الصفة »[2] .

أسلوب الحكيم :

ومما يأتى على خلاف مقتضى الظاهر ما أطلقوا عليه أسلوب الحكيم . وهو تلقى كلام المخاطب بغير ما يترقب . وإجابة السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره إشارة إلى أن ذلك الجواب الذى يجاب به هو الذى يجب أن يسأل عليه .

ومن خلال هذا التعريف يتضح لنا أن ما يطلق عليه أسلوب الحكيم يتضمن صورتين :

الصورة الأولى : أن يتحدث المخاطب وهو يريد معنى من المعانى ، فيتلقاه الآخر بشىء غير ما يريد ، لتنبيه على أن الثانى هو الأولى والأليق بمثله ، على نحو ما روى عن « القبعثرى » أحد الخوارج . وكان قد ذكر الحجاج بسوء ، فبلغ ذلك الحجاج ، وحين أحضر بين يديه قال له الحجاج : لأحملنك على الأدهم ، يريد لأجعلنك فى القيد . فيقول القبعثرى : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب . يعنى : أن مثل الأمير يحمل على الخيل . وزاد ذلك بإضافة الأشهب . لقد أبرز وعيد الحجاج فى معرض الوعد . وحمل كلامه على معنى لم يرده الحجاج أو يقصد إليه . ولهذا قال له الحجاج : « ويلك إنه لحديد » فقال القبعثرى : لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا . فحمل كلام الحجاج مرة أخرى على غير ما أراد .

---

(١) هود : ١٠٣ .

(٢) المثل السائر : ١٨٦ .

ومن هذا القبيل قول ابن الحجاج البغدادى :

قلت: ثقلت إذا أتيت مِراراً   قالَ : ثَقُلتُ كاهلى بالأَيَادِى
قلت: طَوَّلت، قال: بل تَطَوَّلْتَ   وأبْرمت . قال : حَبْلَ ودادِى

فقد أراد أنه ثقل من خلال كثرة طلبه وتكرر مجيئه . فكان الجواب أنه أثقل كاهل صاحبه بالأيادى والنعم . وأراد الأول الإبرام بمعنى « الملل » فحمله على إبرام عهود المودة وإحكامها .

ومن هذا النوع قول ابن نباتة السعدى :

أتت تشتكى عندى مُزَاوَلَةَ القرى   وقد رأت الضِّيفَانَ يَنْحُون مَنْزلى
فقلتُ كأنّى ما سمعتُ كَلَامَها   همُ الضيفُ جِدِّى فى قراهم وَعَجِّلى

فالمرأة هنا ضائقة بالضيفان لكثرتهم ، فما يذهب فوج إلا ويأتى آخر . لهذا جاءت تشكو إلى الرجل ما تعانى من المشقة والنصب ، وقد رأت طائفة منهم تتجه نحو بيته . لكنه يقابلها بغير ما تتوقع فقد كانت تتوقع أن يعتذر لها أو يخفف عنها ، لكنه يتجاهل الأمر كله ، ويخاطبها طالبا منها الجدَّ والتعجيل بالقرى فهؤلاء من الضيفان ، وكأنها تسرُّ بهم وتسعد .

الصورة الثانية : أن يسأل سائل عن أمر فيجاب بغير ما يتوقع . وذلك بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها له على أن ذلك هو الأحق بالسؤال عنه . وذلك على نحو ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة . قل هى مواقيت للناس والحج ﴾[1] فسؤالهم كان عن سبب اختلاف القمر ، وظهوره فى أشكال مختلفة .

---

(١) البقرة : ١٨٩ .

وكان مقتضى الظاهر أن يجابوا عن السبب فى ذلك . لكنهم أجيبوا ببيان الحكمة والغرض من هذا الاختلاف .

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون . قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾[1] . فسؤالهم عن نوع ما ينفقون أو مقدار ما ينفقون . وكان مقتضى الظاهر أن يكون الجواب .. أنفقوا ذهبا أو فضة أو إبلا أو غيرها ... أو أنفقوا هذا المقدار أو ذاك . لكن الجواب كان على غير ما توقعوا حيث بيّن لهم المصارف التى يجب أن يكون الإنفاق فيها .

وليس التحول فى الأساليب ، والانتقال من أمر لآخر وقفا على المواضع التى سبق ذكرها ، فهناك مواضع أخرى كالقلب ، وهو جعل جزء من الكلام مكان آخر ، مع إثبات كل حكم للآخر ..

لكن ذلك كله مشروط بتحقيق فائدة فى الكلام ، وإكسابه نوعاً من الخلابة ، واستمالة النفوس إليه ، أو التأثير على المتلقى . والتلطف بالحديث معه على نحو يغير موقفه . كما أنه من الضرورى عدم اختلاف الدلالة أو غموض المعنى ، لأن البلاغة لا يمكن أن تتحقق إلا عند أمن اللبس .

والحمد لله أولا وأخيرا .

الدوحة : رمضان المبارك ١٤١١ هـ

---

(١) البقرة : ٢١٥ .

المصادر والمراجع

١ – أساس البلاغة : جار الله الزمخشري .

٢ – أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني . ت : محمد عبد العزيز النجار – ١٩٧٧ م .

٣ – الأسس الجمالية في النقد العربي : د . عز الدين إسماعيل – الفكر العربي – ١٩٥٥ م .

٤ – الإيضاح : الخطيب القزويني . دار الجيل – بيروت – لبنان .

٥ – البرهان في وجوه البيان : الزركشي .

٦ – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح : عبد المتعال الصعيدي .

٧ – البلاغة تطور وتاريخ : د . شوقي ضيف – دار المعارف .

٨ – البلاغة العربية في ثوبها الجديد : د . بكري شيخ أمين – ١٩٧٩ م .

٩ – البلاغة الواضحة : علي الجارم – مصطفى أمين .

١٠ – البيان والتبيين : أبو عثمان الجاحظ . ت : عبد السلام هارون .

١١ – البيان العربي : د . بدوي طبانة – الأنجلو – ١٩٦٢ م .

١٢ – التبيان في المعاني والبيان : شرف الدين الطيبي . ت : د . توفيق الفيل – عبد اللطيف لطف الله – منشورات جامعة الكويت .

١٣ – تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضي – محمد عبد الغني حسن – القاهرة – ١٩٥٥ م .

١٤ – التصوير الفني في القرآن الكريم : سيد قطب .

١٥ – خصائص التراكيب : د . محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – القاهرة – ط ١ .

١٦ – الخصائص : ابن جني .

١٧ – دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني . ت : محمد عبد المنعم خفاجي – القاهرة – ١٩٦٩ م .

١٨ – دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني . ت : محمد محمود شاكر .

١٩ – دلالة التراكيب : د . محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – القاهرة .

٢٠ – ديوان إبراهيم ناجي – المجموعة الشعرية – بيروت .

٢١ – ديوان أبي تمام – بشرح الخطيب . ت : محمد عبده عزام – ط ٣ – دار المعارف – مصر .

٢٢ – ديوان البحتري . ت : كامل الصيرفي – دار المعارف – مصر .

٢٣ – ديوان حامد طاهر .

٢٤ – ديوان عمر أبو ريشة . المجموعة الشعرية – بيروت .

٢٥ – ديوان علي محمود طه . المجموعة الشعرية – بيروت .

٢٦ – الطراز : يحيى بن حمزة العلوي – المقتطف – مصر – ١٩١٤ م .

٢٧ – علوم البلاغة . محمد مصطفى المراغي

٢٨ – عيار الشعر : ابن طباطبا – طه الحاجري – بالاشتراك – ١٩٥٦ م .

٢٩ – فنون بلاغية : د . أحمد مطلوب – دار البحوث العلمية – الكويت – ١٩٧٧ م .

٣٠ – فنون التصوير البيانى : د . توفيق الفيل . ط ١ – ذات السلاسل – الكويت – ١٩٨٧ م .

٣١ – فن القول : أمين الخولى – الفكر العربى – ١٩٤٧ م .

٣٢ – قضايا الشعر المعاصر : نازك الملائكة – مكتبة النهضة – بغداد – ط ٢ – ١٩٦٥ م .

٣٣ – القيم الفنية المستحدثة فى الشعر العباسى : د . توفيق الفيل – منشورات جامعة الكويت .

٣٤ – الكامل فى اللغة والأدب : المبرد – م المعارف – بيروت .

٣٥ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى – الحلبى – مصر .

٣٦ – المنهاج الواضح للبلاغة : حامد عونى .

٣٧ – المثل السائر : ضياء الدين بن الأثير . ت : د . أحمد الحوفى – د . بدوى طبانة – النهضة – ١٩٥٩ م .

٣٨ – الموجز فى تاريخ البلاغة : د . مازن المبارك – دار الفكر .

٣٩ – مفتاح العلوم : أبو يعقوب السكاكى .

٤٠ – مقدمة ابن خلدون . دار الشعب – مصر .

٤١ – من قضايا النقد والبلاغة : د . توفيق الفيل – مكتبة الشباب – ١٩٨٠م.

٤٢ – الموازنة بين الطائيين – الآمدى : الحسن بن بشر – ت : سيد صقر .

٤٣ – نزهة الألباء فى طبقات الأدباء . ت : محمد أبو الفضل إبراهيم – نهضة مصر .

٤٤ – نظرية الأدب : رينيه ويليك . ترجمة : د . صفاء خلوصى .

٤٥ – نقد الشعر : قدامة بن جعفر . ت : محمد عبد المنعم خفاجى – الأزهرية – ١٩٧٨ م .

٤٦ – النكت فى إعجاز القرآن : الباقلانى . ت : محمد خلف الله .

٤٧ – نصوص أدبية – دراسة تحليلية : د . توفيق الفيل – د . مصطفى النحاس .

٤٨ – يتيمة الدهر : الثعالبى . ت : محمد محيى الدين عبد الحميد – مكتبة السعادة – القاهرة .

٤٩ – الوساطة بين المتنبى وخصومه : القاضى الجرجانى . ت : محمد أبو الفضل ط ٤ – الحلبى – القاهرة .

فهرس

أحوال متعلقات الفعل

الفصل والوصل

الإنشاء

أسلوب القصر

الإيجاز والإطناب والمساواة

التحول فى الأسلوب

التبادل فى صيغ الأفعال

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

كتب للمؤلف

١ ـ فنون التصوير البياني .

٢ ـ من قضايا النقد والبلاغة .

٣ ـ نصوص أدبية بالأشتراك مع
دراسة تحليلية أ. د / مصطفى النحاس

٤ ـ التبيان في البيان تحقيق بالأشتراك مع
أ. / عبد اللطيف لطف الله

٥ ـ الفصاحة مفهومها ؛ قيمها الجمالية .

٦ ـ القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي .

تحت الطبع :ـ

١ ـ من أدب الفكاهة والمنادمة شعر البردونيات

٢ ـ الموازنات الأدبية في تاريخ النقد العربي .

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٣١٥ / ١٩٩١
I.S.B.N: 977-241-036-4

مطبعة العمرانية للأوفست

٢٤ ش زهران ـ العمرانية الغربية ـ جيزة

١٤٤١

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا بالقاهرة
ت : ٢٩٠٠٨٦٨ - ٢٩١٩٣٧٧

To: www.al-mostafa.com